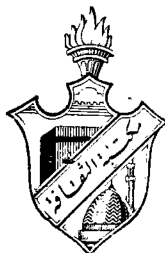
معالم

تاريخ الجزيرة العربية

تأليف

الأستاذ سعيد عوض باوزير

توزيع



مكتبة الثقافة بباب السلام

مكة المكرمة

مطابع

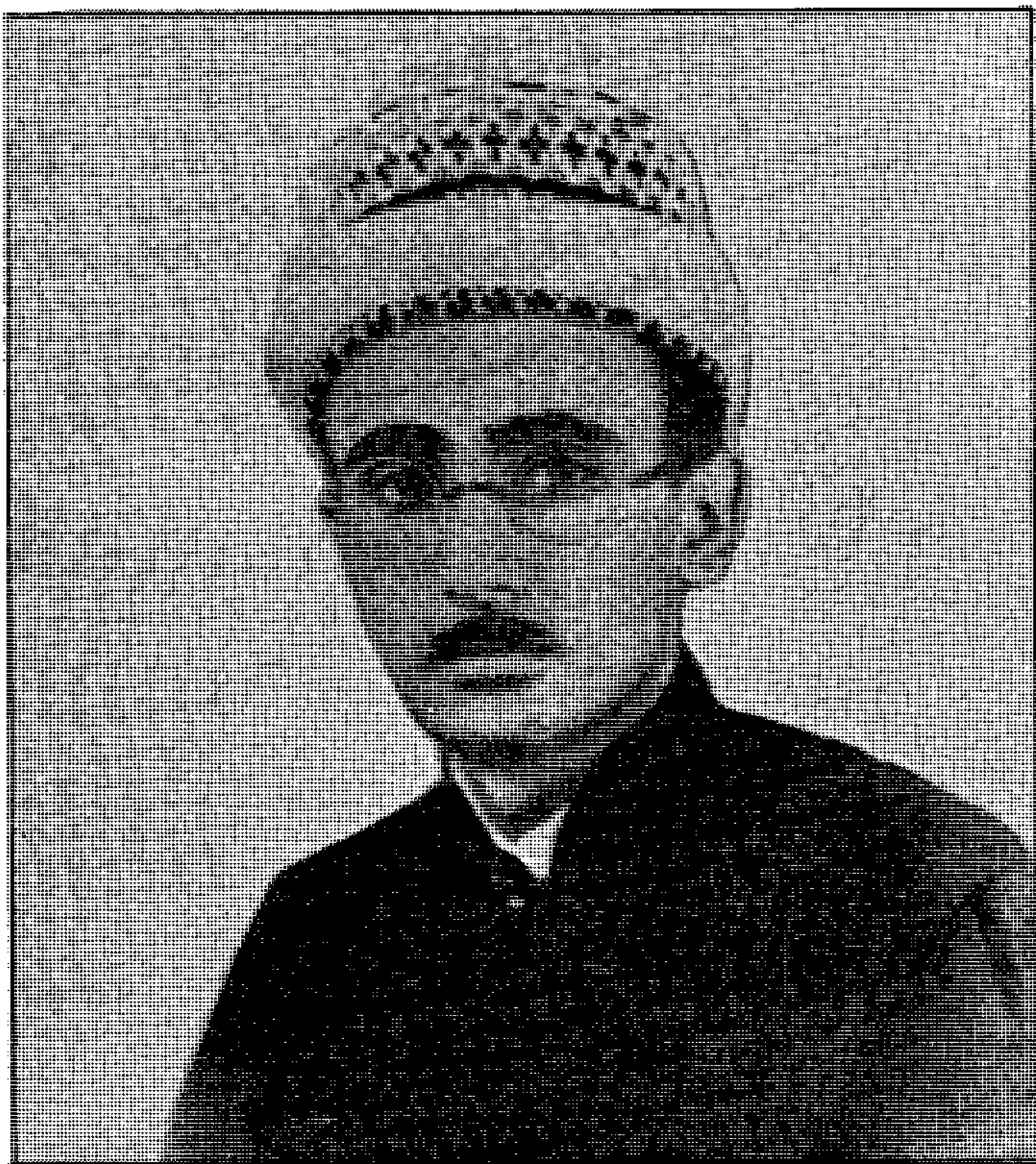
دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي

حضرموت . غيل باوزير — رمضان ١٣٧٣ مايو سنة ١٩٥٤

الطبعة الأولى

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م



المؤلف

سعيد عوض بن طاهر باوزير

مؤلف هذا الكتاب

بقلم الأستاذ محمد سالم باوزير

لن أحدثك – أيها القارئ الكريم – عن الكتاب .. فهاهو بين يديك . اقرأه .. واستمتع بقراءته .. كما قرأته أنا .. واستمتعت بقراءته ...

وإني واثق كل الثقة أنك ستعجب بأسلوبه العذب الرقراق .. وإن هذا الأسلوب سيحملك على مواصلة القراءة حتى تأتي على آخر صفحة في الكتاب ..

وعندما تنتهي من قراءته .. وتضعه جانباً ... فستود لو أنك عرفت شيئاً عن صاحب هذا الأسلوب . العذب الرقراق ..

وأنا الذي ساعدتني الظروف على التعرف إلى هذا المؤلف .. في جلسات عديدة ممتعة .. وعرفت عنه أشياء كثيرة .. ليسرني . بل إنه مما يشرفني أن أصدر كتابه هذا بكلمة – ولو مقتضبة – أعرفه بها إلى قراء العربية ...

* * *

في الأربعين من عمره المديد . نحيل الجسم .. من أثر مرض ألم به .. ردحا طويلا من الزمن .. تجلس إليه .. فيتحدث إليك .. كالصامت .. ويطربك حديثه .. ولا تودعه إلا وأنت تقرر في ذات نفسك أن تزوره مرة .. بل مرات أخرى ..

محدث بارع .. وأديب مطلع .. وروح حية نبيلة .. وعقلية متنورة .. هذا هو .. الشيخ سعيد عوض باوزير .. مؤلف هذا الكتاب ..

ولد في جمادى الآخرة عام ١٣٣٣ هـ .. في (غيل باوزير) .. إحدى المدن الحضرمية الساحلية ذات النسيم الهادئ العليل .. والمعروفة بزراعة التمباك الحموي .. والمشهورة في تاريخها القديم بالعلم والعلماء .

وتلقى علوم الدين واللغة فى معهدها الدينى الذى أسسه العلامة المصلح الاجتماعى الكبير الشيخ محمد عمر بن سلم . . وصاحب الترجمة من عائلة آل باوزير المعروفة فى حضرموت منذ سبعمائة عام بنفوذها الروحى بين القبائل وأياديها البيضاء فى الإصلاح وكرم الضيافة والإحسان إلى الناس . . .

وبعد تخرجه من هذا المعهد عين كاتباً للمجلس العالى فى المكلا . ثم قاضياً شرعياً . . فى مدينة (غيل باوزير) . . ثم ترك القضاء لأسباب . . . وانصرف إلى الأدب ينهل من معينه فقرأ للدكتور هيكل وطه حسين والعقاد والمازنى وزكى مبارك وشوقى وحافظ والرصافى والكاظمى والزهاوى وغيرهم من مشاهير الأدباء فى مصر وسوريا والعراق . .

وازداد إقباله على القراءة . . وشغفه بالدرس . . وفتن بما تخرجه المطابع من الكتب الحديثة فى التاريخ والاجتماع . فأرضى رغبته فى هذه الكتب فى الحدود التى تسمح بها ظروفه الخاصة .

وتركت هذه الدراسات أثرها فى تفكيره واتجاهاته . . فقرض الشعر الاجتماعى المؤثر . . وحبر المقالات والمحاضرات ذات الطابع الممتاز بالقوة وصدق التعبير ونزاهة القصد . .

وكتب بعض مؤلفاته فى التاريخ وغيره . . ومنها هذا الكتاب الذى بين يديك . . وكان له نشاط ملحوظ فى حقل التعليم فى كل من (غيل باوزير) (والريضة) عاصمة القطن فى حضرموت . . ونشاط اجتماعى ذو أثر . . ليس هنا موضع الحديث عنه . .

ولصاحب الترجمة صراحة فى القول وإباء فى النفس ، ويقظة فى الضمير . . هى السبب فى كثير من المتاعب التى تعرض لها ولا يزال يقاسيها حتى الآن . .

وهو من المؤمنين بما فى الدين الإسلامى من قوى كافية لانتشال المسلمين من هذا الحضيض الذى يتمرغون فيه . . إلى المقام الرفيع الذى يضمن لهم حياة سعيدة مطمئنة . .

وهو حتى الآن لم يغادر حضرموت إلا إلى عدن — عروس الجنوب العربى الكبير — وأسمرا فى أريتريا . . أثناء رحلة قصيرة . . وساعد هناك فى تكوين (المجلس الأعلى للتعليم الإسلامى) فى أريتريا . . واشترك فى وضع لائحته الداخلية . . وكان على صلة بمبعوث الأزهر الشريف . . . إلى هذه البلاد .

وقد كان صاحب الترجمة . . أحد المدرسين البارزين فى المعهد الدينى الحكومى . . ثم انفصل تحت تأثير ظروف قاهرة ...

ويشتغل الآن فى مكتب التفتيش التابع لمعارف الدولة القعيطية . . حيث يضع بعض المقررات فى التاريخ وغيره . . للمدارس الحضرمية . .

٭ ٭ ٭

وبعد . . أيها القارئ الكريم . . هل ترانى استطعت بالضبط أن أعطيك فكرة عن مؤلف هذا الكتاب . . ؟

أنا لا أعتقد ...

بل إننى أشعر بكثير من الخجل . . إن تجرأت وقلت إننى أعطيتك حتى فكرة بسيطة . . فلا زالت هناك أشياء كثيرة . . وكثيرة جداً . . يجب أن تسطر ليقرأها من يقدسون الحرية الفكرية ، ومن يمتهنونها . .

ولكن المجال ضيق . . وعسى أن نلتقى فى فرصة أخرى . .

حفظ الله المؤلف ذخراً للعروبة . . وللجنوب العربى الكبير . . آمين .

عدن **محمد سالم باوزير**

بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر ولله الحمد

وصلى الله على سيد ولد آدم محمد الهادى إلى سبيل الرشاد وعلى آله وصحبه .

أما بعد :

حرام أن تفرغ الأمم من إشباع تاريخها القديم والحديث دراسة وتحليلا ، ونحن لا نزال نتشاغل بالتافه من الأمور ، لنعيش فى جهل بماضينا وحاضرنا ، ومن ثمَّ فى غفلة عما ينبغى أن نرسم من خطط للمستقبل على ضوء هداية التاريخ.

ولست أدرى متى يتنبه حملة الأقلام منا وولاة الأمور فينا إلى واجب كهذا أعتقد أنه من بين العوامل الأساسية للنهضة التى نرجوها ؟

أما أنا فحسبي أننى وفرت على الطلبة وغيرهم من شبابنا المتنور مشقة البحث فى مختلف المصادر التاريخية حين أقدم لهم — فى كثير من الخجل — هذا العرض التاريخى الذى ليس لى منه سوى الجمع والترتيب .

وليتذكر حضرات القراء — إذا ما وجدوا فى هذا الكتاب نقصاً يعيبه قول الشاعر العربى :

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوَّح نبتها رُعى الهشيم

المؤلف

١ – جزيرة العرب

شكلها - حدودها — موقعها — مساحتها - سواحلها — رءوسها - خلجانها مضايقها - أراضيها الداخلية — مناطقها - صحاريها — جبالها — مياهها - أوديتها — مناخها — الزراعة — المعادن — الثروة المائية - الحيوانات - الصادرات و الواردات - السكان .

شكلها ــ حدودها :

جزيرة العرب مستطيل غير متوازى الأضلاع يحدها شمالا فلسطين وبادية الشام ، وشرقا الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس ، وجنوبا المحيط الهندى وخليج عدن ، وغرباً (بحر القلزم) أو البحر الأحمر .

ولزيادة الإيضاح والتحقيق ينبغى أن تفهم حدودها على النحو الآتى :

شرقى شمالى : يبدأ فى الجنوب بخليج فارس من شواطىء عمان فالبحرين إلى مصب الفرات ودجلة ، ثم على طول الفرات إلى أعالى سوريا .

غربى شمالى : يمتد من الفرات شرقى سوريا وفلسطين إلى خليج العقبة .

غربى جنوبى : على طول البحر الأحمر إلى باب المندب .

شرقى جنوبى : هو بحر العرب على شواطىء اليمن وحضرموت إلى شواطىء عمان .

موقعها ــ مساحتها :

تقع الجزيرة العربية فى الجنوب الغربى لقارة آسيا بين درجتى (١٣) و (٣٢) من درجات العرض شمالى خط الاستواء . وبين درجتى (٣٥) و (٦٠) من درجات الطول شرقى جرينتش .

أما مساحتها العامة فمليون ومائتا ألف ميل مربع (١,٢٠٠,٠٠٠) ويبلغ متوسط طولها ألفاً ومائتى ميل (١,٢٠٠) أما متوسط عرضها من الشرق إلى الغرب فسبعمائة ميل (٧٠٠) .

وتبلغ مساحة الحد الغربى من بورسعيد إلى عدن ألفا وخمسمائة ميل (١,٥٠٠) ، ومن باب المندب إلى رأس الحد فى عمان ألفا وثلثمائة ميل (١,٣٠٠) ومن بورسعيد إلى الفرات ستمائة ميل (٦٠٠) .

سواحلها :

يمتد ساحلها الغربى فى خط مائل من رأس خليج العقبة ، ويسير فى متعرجات بسيطة حتى مرفأ ينبع حيث ينحنى مكوناً شبه خليج ، ثم يعود إلى البروز غرباً حيث يقوم ميناء جدة ليعود إلى الانحناء بمحاذاة بلاد عسير ، ويرتفع قليلا ثم ينحنى ، ويعود مستقيما حتى رأس الشيخ سعيد أقصى طرف جنوبى للجزيرة والمكون لأحد جانبى بوغاز باب المندب .

بعد ذلك يبدأ خط الساحل الجنوبى منحنياً فى وسطه ، ومائلا فى اتجاه شمالى نحو الشرق ماراً بميناء عدن ، ومتعرجاً قليلا ومكوناً لعدة رءوس صغيرة حتى ميناء المكلا .

ثم يمتد إلى رأس شرمة وينحنى إلى الشمال فيكون خليج شرمة ، ويليه رأس فرتك ، ويتدرج فى الصعود إلى الشمال مكوناً لعدة خلجان وماراً بجزائر كوريا موريا ، ثم مصيرة حتى ينتهى عند أقصى حد للجزيرة شرقاً وهو رأس الحد ، ثم يرتفع فى اتجاه شمالى على أحد جانبى خليج عمان حيث يمر بمسقط ، ثم يصل إلى نقطة يضيق عندها الخليج وهناك يكون مضيق هرمز .

وبعده ينعطف الساحل إلى الغرب من خليج فارس وينحنى انحناء كبيراً ، ثم يعود إلى الارتفاع مكوناً لساناً صغيراً أو شبه جزيرة صغيرة تسمى قطر ، وبعده يتجه إلى الشمال الغربى حتى يصل الكويت وينتهى إلى البصرة فى العراق .

رءوسها ـ خلجانها ـ مضايقها :

أشهر رءوس سواحلها رأس الشيخ سعيد فى البحر الأحمر ورأس الكلب ورأس فرتك ورأس الحد فى بحر العرب .

أما أهم خلجانها فخليج العقبة فى الشمال الغربى وخليجا عدن وشرمة فى الجنوب وخليجا عمان وفارس فى الشرق .

ولها مضيقان هما مضيق باب المندب فى الجنوب بينها وبين الساحل الأفريقى ومضيق هرمز فى الشرق بينها وبين بلاد فارس .

أراضيها الداخلية :

المعروف فى جزيرة العرب أنها على وجه العموم وفيما خلا بعض المناطق أرض صحراوية كثيرة الجبال والنجود والأودية ، وعرة المسالك ، قاحلة التربة ذات طبيعة جرداء .

ومن الممكن تقسيم الجزيرة إلى ثلاثة أقسام باعتبار تقسيمها الطبيعى :

القسم الشمالى وهو صحراء حجرية فى الشمال رملية فى الجنوب وتقع ما بين شاطىء مدين ورأس الخليج الفارسى وما يتصل به شمالا ، وأكثر سكان هذا القسم بدو رعاة .

ويؤلف القسم الوسط بلاد الحجاز ونجد والأحساء ، وتجرى فى هذا القسم أودية كبيرة تروى المزارع والأشجار وتنبت المراعى

أما القسم الجنوبى ففيه هضبة عسير واليمن فى الغرب ، والجبل الأخضر فى الشرق ، ويمتاز هذا القسم بوفرة التربة وخصبها ، وكثرة نزول الأمطار وتحضر أهلها .

مناطقها :

مفتاح جغرافية الجزيرة سلسلة جبال السراة الممتدة من اليمن إلى أطراف بادية الشام ، وقد سميت بالحجاز لأنها تفصل الجهة الغربية المنخفضة المحاذية للساحل وهى بلاد الحجاز ، عن الجهة الشرقية الواقعة على هضبة فى وسط الجزيرة وهى بلاد نجد .

والمنطقة الساحلية الغربية لهذا القسم منخفضة إلى مسافة أربعين ميلا من سفح سلسلة جبال السراة على طولها من الشمال إلى الجنوب وتقع فيها المدن الساحلية لقطرى الحجاز وتهامة .

أما منطقة السفح الغربى فترتفع عن سطح البحر ستمائة وخمسين متراً ويمتد عرضها إلى أربعين ميلا وتقع فيها مكة المكرمة .

ثم تأتى المنطقة الجبلية المرتفعة من شمال مدين إلى اليمن وارتفاعها بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف قدم وفيها تيماء وخيبر والطائف وغامد وزهران جهة شرق مكة .

وبعد ذلك تأتى منطقة هضبة نجد فى قلب الجزيرة وهى جبلية فى غربيها وارتفاعها خمسمائة متر ورملية صحراوية فى شرقيها إلى صحراء الدهناء الفاصلة بينها وبين سواحل الخليج الفارسى وعرض هذه المنطقة خمسمائة ميل تقريباً .

أما السواحل الشرقية المشرفة على الخليج الفارسى فمنطقة منبسطة شمالها الكويت ثم بلاد الحسا وقطر ودُبَى ويليها عمان فى الجنوب الشرقى حيث تبدأ سلاسل كبيرة من الجبال على طول الساحل الجنوبى فى عمان ثم بلاد المهرة وأشهرها سلسلة جبال القارة .

وفى حضرموت تقوم هضبة فى الوسط تتفرع منها أودية فى الشمال والغرب والجنوب وتليها سلاسل من الجبال تتخللها أودية على طول المقاطعات الجنوبية المعروفة الآن (بالمحميّات) حتى تتصل باليمن من الجنوب والشرق .

والقسم الجنوبى من اليمن جبلى مرتفع وفى شماله هضبة تتصل فى نهايتها بسلسلة السراة .

صحاريها :

(١) فى الشمال صحراء النفود الكبير تحدها شمالا وشرقاً صحراء الشام ، وجنوباً جبل شمر ، وغرباً جبال السراة وتمتد من الشرق مائة وثمانين ميلا تقريباً (١٨٠) ومن الشمال إلى الجنوب مائة وأربعين ميلا (١٤٠) وهى على هيئة المثلث وارتفاعها عن سطح البحر بمعدل ألفين وخمسمائة قدم (٢٥٠٠) فنى شماليها وشرقيها يبلغ الارتفاع ألفى قدم (٢٠٠٠) وفى جنوبيها وغربيها ثلاثة آلاف قدم (٣٠٠٠) .

ومعنى النفود الرمال الكثيفة الصعبة المرور تسفيها الرياح فتؤلف كثباناً متسلسلة وهى مأخوذة من نفد أى سار إلى الهلاك ، لأن داخلها يكون معرضاً لخطر الهلاك وتوجد فى أطراف هذه الصحراء آبار تردها القوافل والرعاة .

(٢) وتتصل بصحراء النفود فى نهايتها جنوباً صحراء الدهناء التى تمتد محاذية سواحل الخليج الفارسى من الشمال إلى الجنوب على شكل سلاسل من الرمال طولها تسعمائة ميل وعرضها خمسة عشر ميلا ومتوسط ارتفاعها ألف ومائتا قدم (١٢٠٠) إلى ألف وخمسمائة قدم (١٥٠٠) وتنتهى إلى الصحراء الكبرى (الربع الخالى).

(٣) صحراء الربع الخالى هى أكبر صحارى بلاد العرب وموقعها بين اليمامة وأطراف نجد شمالا وحضرموت وبلاد المهرة جنوباً وعمان شرقاً ووادى الدواسر واليمن غرباً وتمتد من الشرق إلى الغرب (٦٠٠) ميل ومن الشمال إلى الجنوب (٤٠٠) ميل تقريباً وتبلغ مساحتها نحو ربع مليون ميل مربع.

ونحو الثلث منها فى الشرق والجنوب عبارة عن هضبات والباقى أوقيانوس من الرمال المنتشرة نحو الشمال والغرب وفى جنوبها الغربى رمال الأحقاف التى تبتلع الأثقال التى تطؤها.

أما ارتفاع الربع الخالى عن سطح البحر فيختلف كثيراً بالنسبة إلى المواقع فهو فى الجنوب أعظم ارتفاعاً منه فى الشرق والشمال إذ بينما يكون ارتفاع الهضبات الجنوبية عند جبال القارة (٢٠٠٠) قدم فإن ارتفاع المنطقة الواقعة على حافة الرمال لا يزيد عن (١١٠٠) قدم[١].

وينقسم الربع الخالى على وجه التقريب إلى قسمين رئيسيين:

الأول إلى الشرق من خط الطول (٥٠).

والآخر إلى غربيه. والقسم الشرقى معظمه سلاسل متوازية طويلة من الرمال الكثيفة مع كميات وافرة من المياه الضاربة إلى الملوحة على أعماق ضئيلة مختلفة وهذه الأراضى وفيرة المرعى الذى أدى إلى اعتقاد بأنها الموطن الأصلى لأحسن أجناس الإبل العربية.

أما القسم الغربى الممتد إلى وادى الدواسر ونجران فهو مفاوز مقفرة جافة قلما يصيبها المطر ينبت فى بعض أقسامها النبات الصحراوى القاسى ويعترض

---

(١) قلب جزيرة العرب.

رماله فى بعض الأماكن مساحات واسعة موحشة من الحصباء المسطحة وفى الجهات الشمالية الشرقية من هذه القفار بعض الآبار الهائلة العمق ولذلك فهى تسمى الطوال كالمغيمنة التى يبلغ عمقها مائة وواحداً وسبعين قدما (١٧١) وبئر فاضل وعمقها مائة وخمسة وعشرون قدماً[١] .

جبالها :

فى بلاد العرب ما لا يكاد يحصى من الجبال والآكام التى تفصل بينها أودية وشعاب عديدة ويكفى هنا أن نذكر أهمها وأبرزها :

بين الحافة الجنوبية للنفود الكبير من الشمال يقوم جبلا طئ (أجا وسلمى) اللذان يسميان فى الوقت الحاضر بجبل (شمر) ويبلغ أقصى ارتفاع جبل أجأ عن سطح البحر خمسة آلاف وخمسمائة قدم (٥٥٠٠) ويمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى إلى مسافة مائة ميل أما جبل سلمى فإنه دون الأول ارتفاعاً وأقل مساحة والمسافة بينهما لا تزيد عن عشرين ميلا من الأرض السهلة .

ثم تأتى سلسلة جبال السراة المعروفة وجبال الحسمة الشاهقة الارتفاع وجبل مبارك وجبل الشفاء والمويلح وجبل رضوى إلى الشرق من ينبع ويبلغ ارتفاعه ما يقرب من ألفى متر وفى مكة تقوم جبال أبى قبيس وقعيقعان وجبل النور وثور وعرفات وعلى مقربة من المدينة يقع جبل أحد .

أما فى اليمن فمن أهم جبالها نقم وكوكبان وبرط وشخب وصفوان والمقام وجبل مراد وضوران ونعمان وصبر .

مياهها :

إن جفاف مناخ الجزيرة العربية وهبوط أرضها وعدم وجود الجبال العالية التى تمسك الأبخرة وتحتفظ بها لتبترد وتنهمل مطراً ، إلا فى الجهات الغربية منها ، ثم بعد هذه السلسلة الجبلية فى جزيرة العرب عن البحار الكبيرة التى تكثر فيها التبخرات المائية كل ذلك جعل أراضى الجزيرة العربية جافة مجدبة محرقة قليلة المياه .

---

(١) رحلة فلبى فى الربع الخالى .

على أنه بالرغم من هذا توجد فى جهات كثيرة من بلاد العرب عيون وينابيع عديدة ففى جهات الحسا والقطيف سواق عديدة تؤلف بمجموعها كميات هائلة من الكتل المائية هى دون الأنهار[١] .

وفى حضرموت ولحج وأبين عدة ينابيع وعيون صالحة للاستغلال كما توجد فى مواضع كثيرة من مناطق الجزيرة العربية المختلفة .

ومياه الأمطار نظراً لصلابة الجبال ولتكوينها الصخرى لا يمتصها أديم الأرض ولا يبتلعها جوفها ، بل إن أكثرها ينزلق من سطوحها بسرعة فائقة إلى مسائل الأودية وهذه تصبها فى البحار أو فى الفيافى والقفار .

ولهذه الأسباب السابقة لا يوجد فى جزيرة العرب أنهار أو بحيرات بالمعنى المعروف من هذه المصطلحات .

وفى شمالى الجزيرة ووسطها ينزل مطر فى الشتاء بين أكتوبر وأبريل وهو على قلته قد يتخلف فى بعض السنين وأغزر أمطار اليمن ما ينزل على الحافة الغربية ويمتد مائة ميل شرقا ويقل كلما اتجه إلى الشرق وربما استمر المطر شهرين فى الجهات العالية مثل جهات صنعاء وينزل فى تهامة اليمن مطر فى الشتاء أحياناً أما فى الطائف فيهطل المطر فى أواخر أغسطس وفى بعض أنحاء نجد ينزل المطر فى ميعاد معلوم كل سنة وفى الجبل الأخضر بعمان يغزر المطر وقد ينزل البرد أحياناً .

أوديتها :

الأودية فى جميع أنحاء الجزيرة العربية تؤلف معظم الأراضى الزراعية التى عليها مدار اعتماد السكان فى زراعتهم ومعاشهم وهى كثيرة لا تكاد تحصى ومن أهمها ما يأتى :

أولا : وادى الرمة وهو من أعظم الأودية فى بلاد العرب يبدأ بقرب المدينة عند وادى الرقوب إلى أن يصل إلى أواسط نجد عند القصيم فيخترقها حتى يصل إلى الدهناء .

---

(١) قلب جزيرة العرب .

ثانياً : وادى بيشة وهو من أعظم الأودية وأهمها وهو ينحدر من سفوح جبال عسير الشرقية والشرقية الشمالية ويتجه إلى جهة الشمال والشمال الشرقى إلى أن يتصل بوادى الدواسر .

ثالثاً : وادى الدواسر وهو واد عظيم ينقسم إلى عدة شعاب وبطاح وفى أطرافه قبائل عظيمة معروفة باسمه وهو ينتهى بقرب جناح الربع الخالى الغربى عند سليل .

رابعاً : وادى نجران من الأودية العظيمة أيضاً وهو فى الحقيقة مجموعة أودية كبيرة .

خامساً : وادى حنيفة واليمامة وهو الوادى العظيم المشهور الذى يخترق أواسط نجد ويمدها بالمياه الأرضية التى يستقى الأهلون منها ويروون أرضهم بها .

سادساً : وادى التيم ويصب بقرب مدينة العقبة مبتدئاً من سلسلة جبال السراة .

وفى اليمن أودية كثيرة أهمها وادى مرزع . وادى السحارى . وادى نخلة . وادى زبيد . وادى يرمع . وادى سهام . وادى مور . وادى حرض . وادى بيش . وفى لحج وأبين وغيرهما من المقاطعات الجنوبية عدة أودية هامة .

وأهم الأودية فى حضر موت : وادى حضر موت الرئيسى الأكبر ، وادى دوعن بقسميه الأيمن والأيسر ، وادى عمد ، وادى سر ، وادى حجر . وفى عمان تجرى من الجبل الأخضر المطل على الخليج أودية كثيرة أشهرها أودية سمائل ومعاول وصحار والبركة التى تروى منطقة الباطنة الخصبة شمالى مسقط حتى مضيق هرمز .

مناخها :

البعد عن خط الاستواء والارتفاع عن سطح البحر هما أهم العوامل الجغرافية التى تؤثر فى مناخ الأقاليم ولوقوع جزيرة العرب فى منطقة قريبة من خط الاستواء ولوجود أماكن مرتفعة عن سطح البحر أو هابطة عنها ووجود مناطق أخرى قليلة الارتفاع قد يختلف مناخ بعض المناطق عن الأخرى .

ولـكن الصفة العامة فى البلاد هى الحرارة الشديدة مع الرطوبة فى السواحل والحرارة الجافة فى الأماكن البعيدة عنها غير أن هنالك أماكن عديدة ذات هواء معتدل وجو لطيف منها جميع الأماكن المرتفعة عن سطح البحر .

أما فى أواسط الجبال فإنه بالرغم عن اشتداد الحرارة فى وسط النهار فإنها تـكون محتملة فى الليل وفى طرفى النهار وأشد الحرارة مع الرطوبة تقع فى سواحل الخليج الفارسى وفى تهامة وبالأخص ما كان منها واقعاً إلى الجنوب .

الزراعة :

تقدر مساحة الأرض المعدة للزراعة فى جزيرة العرب بستة ملايين فدان يزرع منها سنوياً ما لا يزيد عن نصف هذا المقدار ويقع نصف هذه المساحة فى اليمن وبقيتها موزع بين نجـد والحجاز وعمان وبقية الأقطار الأخرى من الجزيرة .

وأهم المناطق الزراعية فى جزيرة العرب تقع فى المناطق الجبلية التى تصيبها الأمطار الموسمية ويعتدل مناخها وتمتد هذه المنطقة من الطائف إلى باب المندب على موازاة البحر الأحمر تاركة بينها وبين الساحل سهلا يتراوح عرضه بين ثلاثين وخمسين ميلا تخترقه أودية كبيرة شواطئها صالحة للزراعة لما يجرى فيها من السيول المتدفقة فى منطقة الجبال ويصلح هذا السهل لزراعة مزروعات المنطقة الحارة .

وفى الأودية الشرقية والجنوبية من الجزيرة مساحات واسعـة تتمتع بخصوبة جيدة .

وتحتل النخيل ربع المساحات المنزرعة تقريباً والبقية منها تزرع بأصناف الحبوب والفاكهة كالبر والذرة والشعير والدخن والعدس والفول والتبغ والسمسم والبن والقطن والأعناب والتفاح والرمان والخوخ والمشمش والليمون وما شاكله من الحوامض والخضروات وأنواع الأزهار العطرية .

وتروى هذه الأراضى من الأمطار الموسمية التى تهطل فى بعض المناطق ومن مياه الآبار والعيون والفيول كما فى نجد والحسا والقطيف ولحج وأبين وبعض سواحل حضرموت .

وفى منحدرات الهضبة الواقعة على ساحل البحر العربى وخليجى عدن وعمان تنمو أشجار المنطقة الاستوائية مثل جوز الهند والباباز واللبان والأنبج.

وأعظم ثمار الجزيرة التمر والنخل يوجد بكثرة فى الحجاز واليمامة وعمان ويزرع الأرز فى عمان والأحساء .

أما الأشجار البرية فيوجد فى الجزيرة منها السدر والحناء والضال والسلم والأثل والغضا والسمر .

المعادن :

لا تزال الثروة المعدنية مخزونة فى أراضى الجزيرة العربية على أن البحث الحاضر قد أسفر عن نتائج عظيمة لم تخطر على بال أحد :—

أن مسارب النفط ومنابعه تمتد من كاظمة على رأس الخليج الفارسى إلى مضيق هرمز ملتقى خليج عمان بخليج فارس وتبلغ مساحة هذه المنطقة ثلاثين ألف ميل مربع وبذلك تكون أكبر منطقة نفطية فى العالم .

وقد أصبحت منابع النفط فى ظهران جوار القطيف وفى قطر والصبيحة بجانب الكويت تغل كميات مطردة الزيادة أما فى الكويت فقد تدفقت آبار البترول بمقادير هائلة لم يكن يتوقعها أحد .

وقد دلت الأبحاث والتقارير الفنية على توفر النفط أيضاً فى المنطقة الممتدة من رأس الحد الواقع فى ملتقى خليج عمان بالبحر العربى حتى مقاطعة ظفار .

وفى شمالى الحجاز تقوم منطقة كبيرة غنية بمناجم الذهب وهى الآن تغل مقادير ضخمة من التبر وتنتشر معادن الملح العظيمة فى كافة أنحاء الجزيرة وتوجد معادن الملح الحجرى فى مأرب وجيزان وشبوة وقد كشف عن منطقة

عامرة بمناجم الفحم الحجرى فى وسط عمان[1] . وفى عمان أيضاً معادن الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلى .

وبالجملة فهذه نماذج لما قد تسفر عنه الأبحاث العلمية من معادن مخزونة فى جوف الجزيرة.

الثروة المائية :

البحار التابعة لجزيرة العرب مشحونة بأجود أنواع الأسماك وألذها ، ولو اتبعت الطرق الحديثة فى صيد الأسماك لدرّت على البلاد بثروة عظيمة .

وفى سواحل الخليج الفارسى ، وخليج عمان ، وجزر البحر العربى ، والبحر الأحمر تقع مغاطس اللؤلؤ التى تموّن أسواق الجواهر فى العالم بشتى الأصناف من اللآلىء الكريمة .

الحيوانات :

تكثر الإبل والخيل والضأن والمعز فى كافة أنحاء الجزيرة ، وعليها عماد معيشة العربى ، والفرس العربى أجمل خيل العالم وله شهرة ذائعة . وتوجد الحمير فى اليمن والحجاز والأحساء ، أما البقر فيوجد على قلة فى كثير من أنحاء الجزيرة ، ويعيش النحل فى كثير من أنحاء الجزيرة حيث يفتنّ العرب فى جنى العسل وإعداد آلاته ، وفى اليمن وحضرموت أجود أنواع العسل فى العالم .

أما الحيوانات البرّية فيوجد منها فى الجزيرة الغزال ، ومنه نوع كبير أبيض له قرون مستقيمة يسميه العرب بقر الوحش والأنثى مهاة ، وتكثر الأوعال فى بلاد اليمن وغيرها ، وهى المعز الجبلية ، والأرنب كثير فى كل جهات الجزيرة .

ومن الوحش الذى يكثر فى الجزيرة ؛ الذئب والضبع والفهد والنمر والكلاب والقردة .

---

(١) أما اليمن فغنية جدا بمعادنها التى لم تستغل حتى الآن ففى وادى الرضراض فى الحيمة وفى جبل نقم وشبام توجد معادن الفضة كما يكثر الحديد فى بلاد صعدة وريما والجوف ، والنحاس والألومنيوم فى جبال خذلان وكحلان وعفان ، وبالقرب من مدينة ذمار يوجد الكبريت والرصاص والبلور ، أما العقيق على مختلف أنواعه فيوجد بالقرب من صنعاء . وهى أراض واسعة غنية بالنفط والفحم الحجرى .

وتكثر من أنواع الطير ؛ الحمام والدجاج والقطا والعصافير المختلفة ، ومن الجوارح النسر والصقر والحدأة والغراب كما يكثر فيها الخفاش والهدهد ، وفى الجزيرة الثعابين والعقارب والضب والورل ، ويكثر الجراد فى بعض الأحايين حيث يأكله الناس ، وربما أصاب المزارع بتلف .

الصادرات والواردات :

تستورد البلاد العربية معظم حاجاتها من الخارج ، فهناك اختلال كبير فى توازنها الاقتصادى إذ لا تعدل الصادرات جزءاً صغيراً من الواردات .

وأهم الواردات إلى جزيرة العرب : الأرز البر . الدقيق . الذرة . البن . السكر . التمر . المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية . الشاى . الكبريت . الصابون . الغاز . البنزين . السمن . الزيت . السمسم . السجائر . التبغ . الحديد . الأسمنت . الأخشاب . السجاد . الأوانى الزجاجية والمعدنية . الهيل . القرفة . القرنفل . الزنجبيل . الهرد . الفلفل . الكمون . العطر . الأدوية . السيارات . المطاط . الساعات . النقود الفضية والذهبية . آلات خياطة . آلات طرب وإذاعة . أدوات وأوراق كتابة .

وأهم الصادرات : الجلود . البن . الأسماك . الصبغة . اللؤلؤ . الذرة . التمر . التمباك . الملح . اللبان . الصمغ . النفط الخام . الذهب . الليمون المجفف . الصوف . الأصداف . العسل . النورة .

سكانها :

أغلبية سكان الجزيرة العربية من الأصل العربى الصريح ، وكلهم مسلمون على أنه يوجد فى بعض مدن الحجاز أجناس غير عربية ، جاءتها بسبب الحج ومكثت فى البلاد فأصبحت من أهلها ، كما يوجد فى اليمن ما يقرب من خمسة وعشرين ألفاً من اليهود حسب الإحصاء الأخير .

أما عدد السكان فيقدر بنحو اثنى عشر مليون نسمة ، منها أربعة ملايين تقريباً فى اليمن ، ومن خمسة إلى ستة ملايين فى المملكة العربية السعودية ، والبقية فى إمارات خليج فارس وشواطىء بحر العرب .

٢ ـ الأحوال الطبيعية لجزيرة العرب

الأدوار الجيولوجية القديمة — تكوين البحر الأحمر — انفصال جزيرة العرب عن أفريقيا — الأحوال الجوية — خصب التربة ووفرة المياه — التقهقر الطبيعى — أثره فى حياة لسكان .

الأدوار الجيولوجية القديمة :

لا تزال المعلومات اللازمة عن الطبقات الأرضية والتطورات الجيولوجية فى جزيرة العرب ناقصة لا يركن إليها وربما كشفت الدراسات العميقة فى المستقبل عن الكثير من هذه النواحى المجهولة على أنه وجدت حتى الآن آثار حملت العلماء على القول بأن بلاد العرب وسوريا وشبه جزيرة سينا كانت فى وقت من أوقات الأدوار الجيولوجية القديمة قسما من أفريقيا الشمالية الشرقية .

وقد قال الأستاذ (أريك كرنكل) فى كتابه « جيولوجية العالم » إن أخدود البحر الأحمر ووجود صخور ابتدائية متشابهة التكوين فى الطبيعة والزمان على جانبى هذا البحر اعتباراً من شبه جزيرة سينا وخليج العقبة متبعة القسم الشمالى الشرقى من أفريقيا حتى جهات رأس الرجاء الصالح كل ذلك يدل دلالة قوية لا تحتمل الشك على أنه قد قامت فى الأزمان الجيولوجية قارة عظيمة مؤلفة من هذه النواحى ويفصلها عن القارة البوارسية بحر كبير بقيت لنا من آثاره الكتلة العظيمة المائية التى نسميها الآن بالبحر الأبيض المتوسط .

تكوين البحر الأحمر ـ انفصال جزيرة العرب عن أفريقيا :

إن تكوين البلاد العربية الحاضر إنما هو من عمل البراكين التى نرى من آثارها الآن الشىء العظيم فجميع الحرارة الموجودة فى جزيرة العرب إن هى إلا اندفاعات بركانية خلفت لنا الحجارة السوداء النخرة فوق الرمال القديمة فأمسكتها عن التفتت والزوال .

لقد حدثت حركات أرضية فى الأدوار القديمة سببت تكوين أخدود البحر الأحمر وانقسام القارة العظيمة إلى قسمين : قسم غربى البحر الأحمر

نعرفه الآن بأفريقيا وقسم آخر شرقيه نعرفه ببلاد العرب وقد تكونت عمان والجبل الأخضر بحركات أرضية مماثلة فإن المستر (برترام توماس) يؤكد فى كتابه : « العربية السعيدة » أن بلاد عمان كانت فى الأعصر الجيولوجية قسما من بلاد إيران .

الأحوال الجوية :

إن الأحوال الطبيعية فى بلاد العرب لم تكن قبل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الميلادى بحالتها الطبيعية والجوية الحاضرة ، وإن جفاف الجو السائد فى هذه البلاد لم يكن إلا نتيجة لتطورات جيولوجية وإقليمية استغرقت مدة طويلة ويذهب بعض العلماء إلى أن الجفاف الحالى قد بدأ فى أواخر الدورة الثلجية الأخيرة .

ويؤكد علماء الجيولوجية أن صحارى البلاد العربية الواسعة ظلت عرضة لأمطار غزيرة خلال عصور كثيرة يدلنا على ذلك ما تركته هذه الأمطار من الجروف والأودية والآثار البارزة فى جبال سينا وعلى سفوح الجبال العربية المطلة على البحر الأحمر وكانت سهول جزيرة العرب تتصف بجو ممطر منعش وبحرارة معتدلة كانت الأنهار فيها تنساب بين شجر الأحراج الكثيفة

خصب التربة ووفرة المياه :

تدل الاكتشافات الحديثة فى بلاد العرب وتثبت أنه فى وقت من الأزمنة البعيدة كانت البقاع الغربية من الربع الخالى بلاداً خصبة تجرى إليها الأنهار من جبال اليمن ومرتفعات الحجاز وتصب فى البحر الذى كان فى العهد الميوسينى ساتراً ما هو القسم الشرقى من الربع الخالى إلى خط يمتد من رحلة مفشن إلى شنة فبيرزكرت ونيفاوعين سالا .

وقد شاهد المستر فلبى على الحد بين القسم الشرقى والقسم الغربى من الربع الخالى مساحات كبيرة وجد فيها بعض أصداف الماء العذبة فى كثير من مواقعها وكان معها أيضاً كثير من الأسلحة الصوانية التى ترجع إلى العهد الحجرى الحديث (١٥٠٠ — ٥٠٠٠ عام قبل المسيح) ثم بعض قطع من بيض النعام

المتحجر وغيره من الآثار الأمر الذى يدل على خصب الأرض ووفرة مياهها .

وقد تبين العلماء مجارى أنهار عظيمة فى جزيرة العرب منها وادى الحمث الذى بنيت مدينة يثرب على أحد فروعه وكان هذا النهر يصب فى البحر الأحمر .

وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجرى فى السهول الواسعة المؤلفة لبلاد نجد والحسا :

أولها : وادى السرحان الذى كان ينبع فى مكان يقع فى الناحية الشرقية من جبال حوران ثم يخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصب بالقرب من مدن البابليين الخربة أيام لم تكن هنالك دولة بابلية وكان الخليج الفارسى يمتد إلى النواحى التى بنيت فيها فيما بعد مدينة الهيت على نهر الفرات .

ثانيها : وادى الرمة : وقد كان منبعه شرق مكة وكان يتجه نحو الشرق ، فينضم إليه عدة فروع ، ثم يصب فى بحر عمان ما بين مدينتى أور ، أو أدريد والسومرتيين .

ثالثها : نهر الدواسر وهو أكبر أنهار الجزيرة العربية ، وكان يقع منبعه شرقى بلاد اليمن ويسير نحو الشمال مخترقاً سهل الربع الخالى إلى أن يلتحق بوادى الرمة بالقرب من شواطىء خليج البصرة .

التقهقر الطبيعى وأثره فى السكان :

يقول العلامة الإيطالى المستشرق (كايتانى) فى تاريخه[1] عن الإسلام ما نصه :

« لقد أخذت جزيرة العرب تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة إذ أن هذا التقهقر كان بطيئاً جداً فإن تأثيره فى حياة السكان لم يكن فجائياً ، بل كان مطرداً تبعاً للقلة فى الأمطار وارتفاع حرارة الجو على أن ازدحام السكان لم يكن هنالك كما هى الحال فى البلاد المزدحمة الآهلة وكان الناس يعيشون من صيد الأسماك ويسكنون متفرقين متباعدين .

---

(١) مقتطف يوليو ١٩٤٤ .

ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع ولما اشتدت بهم الحالة ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا إلى بلاد أخصب تربة وأجود جواً وأكثر أمطاراً .

وهكذا بدأت أولى هجراتهم التى حدثت غير مرة فإن الآثار التى استخرجت من جوف الأرض ما بين النهرين الفرات ودجلة تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد المسيح على أن هذه الاكتشافات يجب أن لا تنفى فكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ » .

٣ - العرب والأمم السامية

من هم الساميون - مهد الساميين - اللغة السامية - هجرة الساميين - ترتيب هجرات الساميين - أقدم الأمم السامية عندنا - أصل تسمية عرب - وصف العربى الأصيل -

من هم الساميون ؟

اصطلح المؤرخون فى هذا العصر أن يسموا الشعوب التى تتفاهم بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية والتى كانت تتفاهم بالفينيقية والآشورية والآرامية « شعوبا سامية » نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام لأن هذه الأمم جاء فى التوراة أنها من نسله وسموا لغاتهم اللغات السامية .

مهد الساميين :

مسألة مهد الساميين من المسائل التى لا تزال غامضة والتى يجب تركها حتى تتسع معارفنا بما يكشف من الآثار العربية والآشورية والبابلية وغيرها وقد اختلفوا فى موطنهم الأصلى فأقوال التوراة تنص على أن مهد الإنسان ما بين النهرين ومنه تفرق فى الأرض فاشتق من الساميين الآشوريون والبابليون فى العراق والآراميون فى الشام والفينيقيون على شواطىء سوريا والعبرانيون فى فلسطين والعرب فى جزيرة العرب والأثيوبيون فى الحبشة .

وذهبت طائفة إلى أن مهد الساميين جزيرة العرب ومنها تفرقوا فى الأرض كما تفرقوا فى صدر الإسلام ولهم على ذلك أدلة وجيهة بعضها لغوى والبعض الآخر اجتماعى أو خلقى .

اللغة السامية :

مهما يكن من أمر المهد الأول للساميين فإن الأمم التى تفرقت منه كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة هى اللغة السامية الأصلية ثم تغيرت تلك اللغة بسبب تباعد الأقاليم التى استوطنتها تلك الأمم وتبعاً لنواميس الارتقاء وتباعدت ألفاظها وتراكيبها على أنها لا تزال تشترك فى خصائص غيرها

عن سواها من اللغات الآرية والطورانية نظراً لأنها من أصل واحد كما تتشابه الآن فروع اللغة اللاتينية أو فروع السنسكريتية فيقال مثلا إن اللغتين الإيطالية والأسبانية أختان أمهما اللغة اللاتينية وإن الفارسية والأوردية أختان أمهما السنسكريتية أما أم اللغات السامية فلا وجود لها الآن وقد ظن بعض فلاسفة اللغة أنها العبرانية وزعم غيرهم أنها العربية وغيرهم أنها البابلية .

هجرة الساميين :

إن أقواماً عديدة من الشعوب السامية هاجرت من مواطنها الأصلية فى أواسط جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة فى الجهات الشمالية وكانت هذه الهجرات فى الغالب تتبع طريقاً يمكن أن يكون واحداً فى جميعها فى فترات تقصر وتطول فى كل حالة منها .

ويعلل العلماء هذه الهجرات بأسباب عديدة أهمها كثرة النسل وضيق أسباب المعيشة والجفاف والقحط والحروب والرغبة فى الاستيلاء والفتح والاستقرار فى البلاد الغنية المجاورة وامتلاكها ويشبهون الجزيرة ببحر يرسل موجات بشرية فى فترات وحقب مختلفة تنتشر من المركز إلى المحيط فتغذى البلاد المجاورة بأقوام جديدة صريحة الدماء صحيحة الأجسام صلبة الأعواد لم تبهض أعباء المدنية كواهلها بمتاعبها ومشاقها .

ولا تزال معرفة أولى الهجرات السامية مفتقرة إلى كثير من البحث والتنقيب ولكن الذى عرف حتى الآن يدل على أن أولى الهجرات السامية حصلت بانتقال الفلاحين السمريين من أواسط الجزيرة إلى الجهات الجنوبية فيما بين النهرين ثم توالت بعد ذلك الهجرات المعروفة فى التاريخ على الترتيب الآتى :

ترتيب هجرات الساميين

١ — هجرة العكاديين قوم حمورابى إلى العراق سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد .
٢ — هجرة الكلدانيين إلى ما بين النهرين بعد هجرة قوم حمورابى .
٣ — هجرة الفينيقيين إلى سواحل سوريا سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد .

٤ — هجرة الأقوام الإسماعيلية من الحجاز إلى شمال بلاد العرب سنة ٦٠٠ ق م .

٥ — هجرة قوم معدّ بن عدنان إلى العراق وسوريا وفلسطين حوالى القرن الاول الميلادى .

٦ — هجرة القبائل اليمانية بعد سيل العرم فى القرن الثالث الميلادى .

٧ — الهجرات الإسلامية الأولى فى صدر الإسلام والقرن الميلادى السابع تلك الهجرات التى حملت القبائل العربية من أواسط جزيرتها إلى أقصى الشمال والغرب والشرق فوصلت طلائعها إلى الأناضول وجبال القوقاس شمالا والمحيط الأطلسى وبلاد أسبانيا وفرنسا غرباً وبخارى وتركستان شرقا .

أقدم الأمم السامية تمدنا :

يرى بعض المؤرخين أن أقدم الأمم السامية التى تمدنت وخلفت آثاراً هم البابليون تمدنوا فى الألف الثالث قبل الميلاد وهو الزمن الذى نزح فيه الفينيقيون من خليج فارس إلى سوريا على ما يظن .

لقد كانت العراق أو ما بين النهرين بلاد خصب ورخاء نزلها الطورانيون قديماً (من جنس المغول) جاءوها وهم أهل بادية فطاردوا قوماً كانوا فيها من أهل الرخاء لم يعرف خبرهم وأنشئوا فيها تمدّنا حسنا واتخذوا فيها آلهة وشرائع واستنبطوا كتابة صورية تحولت بتوالى الأجيال إلى الشكل المسمارى المعروف .

ولما تحضروا وغلب عليهم الرخاء جاءهم الساميون من البادية وغلبوهم على مافى أيديهم وأخذوا آلهتهم وشرائع وزادوا فيها أو حسنوها وقد كانت دولة حمورابى من أرسخ الدول مدنية وحضارة وهو السادس من ملوك الدولة البابلية وصاحب أقدم كتب التشريع فى العالم عاش فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وكان فاتحاً عظيما ومصلحا كبيراً وقد جمع الشرائع ونظمها وبوّبها فعرفت باسمه وقد رتبها فى مائتين واثنين وثمانين مادة وفى أثناء هذه المدة ظهر إبراهيم الخليل عليه السلام .

أصل تسمية عرب :

كان لفظ عرب فى التاريخ القديم يرادف لفظ بادية أو بدو فى هذه الأيام على أن العرب كانوا يسمون جزيرتهم عربه ولما تحضر بعض قبائل العرب قديماً وأقاموا فى مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصوراً فى البدو فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالين فاستعملوا لفظ الحضر لأهل المدن والبدو لأهل البادية ولم يبق للفظ العرب من معنى البداوة الآن إلا فى مثل قولهم أعرابى .

وصف العربى الأصيل :

يمكن وصف العربى الأصيل بأنه ذو وجه بيضاوى منبسط وعينين براقتين سوداوين يعلوهما حاجبان كثيفان وأنف أقنى وجبهة لا عالية ولا منخفضة وهامة مرتفعة وبنية فى غاية الكمال وعضلات نشيطة قوية وأطراف معتدلة متناسبة مع تكوين الجسم .

أمامن حيث الصفات المعنوية فالعرب مثال الذكاء والحلم والكرم والشجاعة والفروسية وحبّ الحرية وتعشق الاستقلال والحنكة والدهاء وسعة الحيلة كما أنهم متهورون بالحذر والطمع والشك .

٤ — العرب قبل الإسلام

العرب البائدة

الأدوار التاريخية الكبرى — العرب البائدة — العمالقة — طسم — جديس — عاد الأولى — عاد الثانية — ثمود — مدين — جرهم .

الأدوار التاريخية الكبرى :

قسم المؤرخون تاريخ العرب قبل الإسلام إلى ثلاثة أقسام باعتبار الأدوار التاريخية الكبرى التى تناوب العرب فيها السيادة على الجزيرة العربية .

فقد كانت السيادة فى الدور التاريخى الأول لقبائل القسم الشمالى من جزيرة العرب وأكثرهم من العرب البائدة ، وفى الدور الثانى المتوسط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبى وأكثرهم من القحطانيين ، أما الدور الثالث والأخير فقد عادت السيادة فيه إلى عرب الشمال وأكثرهم من العدنانيين وينتهى هذا الدور بظهور الإسلام .

وفى هذا التقسيم يدخل كل ما عرف من تاريخ العرب من أقدم أزمانهم إلى أن أشرقت الجزيرة العربية بنور الهداية المحمدية .

العرب البائدة :

يذكر المؤرخون هذا القسم من تاريخ العرب القدماء الذى يعرفون أصحابه بالعرب البائدة يقصدون بذلك العرب التى لم يكن فى الجزيرة إلا أخبارها حينما جاء الإسلام ولم يبق لهم عقب معروف ويسميهم المؤرخون العرب العاربة ويذكرون منهم : — عاد ، ثمود ، العمالقة ، طسم ، جديس ، أميم ، جرهم ، مدين ، ومن ينتمى إليهم فى أمم أخرى .

وبعض هؤلاء عرف التاريخ أخبارهم ودلت عليهم آثارهم وكلهم من أبناء أرم بن سام إلا العمالقة فيما يقول المؤرخون فإنهم من نسل لاوذ بن سام أخ

أرم بن سام ، وكان لبعض هـذه الأمم ملوك ودول فى جزيرة العرب امتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر وأعظم الأمم البائدة شأناً عاد وثمود ومدين وجرهم .

العمالقة :

يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب وخصوصاً أهل شمالى الحجاز مما يلى جزيرة سينا الذين فتحوا مصر باسم (الشاسو) البدو أو الرعاة ، ويسميهم اليونان (هيكسوس) .

وكان للعمالق دولتان كبيرتان إحداهما فى العراق والأخرى فى مصر ويؤخذ من الاكتشافات الأثرية الأخيرة أن العصر الحديدى لمصر يبدأ بدخول الساميين إليها أى إن المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية فأتاهم الساميون بالحدادة فى أقدم أزمنة التاريخ المصرى ويقال بأن دولة الشاسو فى مصر من سنة ٢٢١٤ إلى ١٧٠٣ قبل الميلاد .

طسم وجديس :

المعلومات التى ذكرت فى التاريخ عنها لا تستحق الذكر لغموضها وتناقضها والاكتشافات الأثرية لم تصل إليها بعد ، والأخبار التى عرفت عنها مأخوذة من كلام العرب واليونان .

أما مقر هاتين الأمتين فاليمامة شرقى نجد وقصتها تدعى القرية وكان السلطان لطسم فعسف ملوكها بجديس فثارت عليها وأوقعت بها فاستصرخ بقيتها حسان ابن تبع اليمانى فسار إلى اليمامة وأهلك جديساً .

هـذه خلاصة تاريخ هاتين الأمتين ويتخلل ذلك حديث عن امرأة من جديس اسمها زرقاء اليمامة كانت تبصر على مسافة ثلاثة أيام وأنها لما حمل تبع على جديس طلبوا إليها أن تكشف لهم عن القوم فأنبأتهم بقدومهم فلم يصدقوها ثم تحققوا صدقها .

أما عصر هذه الدولة فيؤخذ من فنائها على يدى تبع بن حسان بن أسعد أنها بادت فى أوائل القرن الخامس للميلاد ، ولهاتين الأمتين آثار قلاع أشار إليها بعض المؤرخين مثل المشقر والمعنق والحجر .

عاد الأولى :

لايعرف بالضبط الزمن الذى قامت فيه حكومة عاد إلا أن المؤرخين يرجحون أن بدء ظهورهم كان قبل الميلاد المسيحى بزمن طويل جداً ويعسر تحقيق الأحداث التى كانت فى أيام حكومتهم وربما كشفت عنها الأيام بما يعثر عليه الباحثون من الآثار ، أما منازلهم فهى الأحقاف الواقعة بين حضرموت والبحرين واليمن فى رأى بعض المؤرخين .

وقد جاء ذكر عاد فى القرآن الكريم فى سياق العبرة فى مواضع عديدة فأشار إلى أنهم كانوا يعبدون الأوثان فأرسل الله إليهم النبى هوداً عليه السلام ليهديهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام وهذه صورة من حديث هود وردت فى سورة الأعراف : —

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين، فلما كفروا برسالة النبى هود وعمهوا فى طغيانهم أصابهم قحط شديد وجفاف دام ثلاث سنوات فرحل على أثره قسم منهم إلى البيت الحرام للاستسقاء ، وفى مدة غيابهم أصاب بلادهم وأهلهم ما أشار إليه الكتاب العزيز فى سورة الأحقاف :

« فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » .

ويذكر المؤرخون أن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتقذف به وتقلع الشجر وترفع البيوت وأن الخلجان ملكهم هلك فى الريح فيمن هلك ولم ينج من هذا العذاب سوى هود عليه السلام ومن آمن به ، ولما عاد الوفد من مكة كانت الريح قد فعلت فعلها فى قومهم .

وقد سار النبى هود عليه السلام بعد هلاك قومه فى دعوته التوحيدية إلى أن أدركته الوفاة ودفن فى حضرموت ولكن التاريخ لم يعين موضع هذا القبر والقبر المعروف اليوم شرقى الوادى الرئيسى بحضرموت مثار للشك لأسباب متعددة فضلا عن أنه لم تقم أدلة تاريخية تحدد موضع القبر الشريف .

عاد الثانية :

كان رئيس الوفد الذى عاد من مكة أحد كبراء عاد الأولى ويدعى لقمان وقد آمن بهود عليه السلام وملك عاداً الثانية التى تتألف من نسل الذين اتبعوا هوداً وآمنوا برسالته ومن الذين كانوا فى وفد عاد الأولى إلى مكة .

ويذكر التاريخ أن الملك اتصل لعاد الثانية ألف سنة أو يزيد إلى أن جرت خلافات بين عاد وقبيلة ثمود المجاورة لها أدت إلى نشوب الحرب بين الفريقين وكان الظفر لثمود حيث قتل عدد كبير من عاد وتفرق الآخرون فلا يعلم ما كان من أمرهم بعد .

ثمود :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ، قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » .

بهذه الآيات الكريمة أشار القرآن إلى كفر ثمود بالله وإشراكهم به وأشار إلى طغيانهم وعدم شكرهم لنعم الله بقوله فيما يرويه عن نبى الله صالح :

« أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ،

وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

ولكن ثموداً ظلت على طغيانها وشركها فحل بها ما قصه الكتاب العزيز :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوءكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

فى هذه الآيات يلخص القرآن الكريم قصة ثمود ، وهى كل ما يستطيع المؤرخ أن يعتمد عليه فى هذا الشأن ويذكر ابن خلدون أن صالحاً عليه السلام ظل ينذر قومه عشرين سنة فلما أيس من إصلاحهم ونفذ فيهم أمر الله ، ارتحل فى رهط ممن آمن به إلى فلسطين حيث أدركته المنية هناك ، ودفن فى موضع بقرب الرملة يحمل اسمه إلى الآن .

وقد كانت منازل ثمود فى الجهات الجنوبية بين عسير واليمن وحضر موت ثم انتقلت بدواع غير معلومة بعد حروبها مع عاد من بلادها الأصلية فى الجنوب إلى شمالى الحجاز فى وادى القرى ، وأنشأت فى العلا ومدائن صالح والحجر منشآت بقيت لنا آثارها حتى الآن .

مدين :

تقع ديار مدين إلى الشرق والجنوب الشرقى من مدينة العقبة اعتباراً من حد وادى عرابة إلى منطقة جبال الجسمة فى الشرق ، وإلى الجنوب حتى بلدة

ضبا ويطلق اسم مدين على القبيلة التى أرسل الله إليها النبى شعيبا كما جاء فى قوله تعالى « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » .

ومدين هذه هى البلاد التى فر إليها موسى عليه السلام من مصر بعد قتله للمصرى وأقام عند النبى شعيب وتزوج من بلته .

ويشير القرآن الكريم إلى أن شعيبا عليه السلام دعا قومه إلى ترك الأوثان وعبادة الله وحده وألا ينقصوا المكيال والميزان غير أن قومه سخروا منه ولم يتبعه إلا نفر قليل منهم « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

وجاء فى سورة هود : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

ويذكر المؤرخون أن قبيلة مدين هذه يرجع نسبها إلى مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى تزوج بابنة لوط عليه السلام وقد ورد ذكر مدين فى التوراة فى أماكن عديدة وأنهم من نسل مدين بن إبراهيم .

جرهم :

قسم المؤرخون قبيلة جرهم إلى قسمين جرهم الأولى التى كانت تسكن اليمن فى عهد عاد ويدرجونهم فى قسم العرب البائدة ولم يبق من تاريخ هذه الطائفة ما يصح الاعتماد عليه غير أن البيهقى يذكر أن يعرب بن قحطان لما غلب عاداً

على اليمن وملكه من أيديهم ولّى إخوته على الأقاليم فولّى جرهما أخاه على الحجاز .

أما جرهم الثانية فيعتبر قدومهم إلى الحجاز بداية تاريخهم وقد اختلفت الروايات فى تحديد الزمن الذى نزلت فيه الحجاز والأقرب إلى الصواب أن ذلك كان قبل قدوم إبراهيم بولده إسماعيل وأنهم كانوا فى الأودية التى بأطراف مكة إلى أن حفرت زمزم فانتقلوا إلى المكان الذى فيه مكة .

أما السبب فى قدوم جرهم إلى الحجاز فيعزوه بعضهم إلى تنافسهم مع أبناء عمومتهم من قحطان على الزعامة وطلب الرزق الأمر الذى أدى إلى هجرتهم إلى الحجاز ويعزوه بعضهم إلى بقاء سلالة جرهم فى الحجاز حينما أرسل يعرب ابن قحطان أخاه جرهما إلى الحجاز لانتزاع السلطة من أيدى العماليق .

ولما شب إسماعيل بن إبراهيم فى مكة ووجد نفسه بين الجراهم تزوج من ابنة كبيرهم مضاض بن عمرو ورزق منها اثنا عشر ولدا وكان إسماعيل يلى أمر مكة إلى أن توفى فوليها اثنان من أبنائه نابت ثم قيداد وانتقل الأمر بعدهما إلى جرهم وظلوا على حكم مكة إلى زمن عدنان حيث ضعف أمرهم إذ ذاك .

وفى أوائل القرن الميلادى الثالث تساعدت بطون كنانة العدنانيون وخزاعة القحطانيون على إخراجهم من مكة حين نقموا عليهم ظلمهم للحاج وأكلهم أموال الكعبة وعند خروجهم أخذ عمرو بن الحارث الجرهمى غزالين من الذهب كانا فى الكعبة وحجر الركن فدفنهما فى زمزم وانطلق هو ومن معه إلى اليمن حيث حزنوا على ما فارقوا من سلطانهم فى مكة ويقدر المؤرخون مدة إقامتهم فى مكة بواحد وعشرين قرنا .

٥ — اليمن قبل الإسلام

حدود اليمن — عرب اليمن — نظام الحكم فى اليمن — الأذواء والأقيال — المحافد والمخاليف — أشهر المدائن اليمنية فى التاريخ — الدول اليمنية الكبرى .

حدود اليمن :

المؤرخون من العرب عندما يذكرون اليمن يقصدون الجزء الجنوبى الغربى من جزيرة العرب فقط أما المؤرخون من قدماء اليونان عندما يذكرون اليمن أو العربية السعيدة فيعنون بها البلاد الواقعة بين خليج العجم من الشرق وبحر العرب من الجنوب والبحر الأحمر أو خليج العرب كما يسمونه من الغرب وبادية الشام والعراق من الشمال فيدخلون فى بلاد اليمن معظم الجزيرة العربية .

عرب اليمن :

ينتسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان ويعرفون بالعرب المتعربة لأنهم اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهى البائدة وقد تشعبت قبائل قحطان وتعددت عشائرهم حتى زاحموا من كان هناك من العمالقة فأبادوهم وأنشأوا الدولة القحطانية على أنقاضها .

وأشهر أولاد قحطان هو يعرب الذى اتسع ملكه وامتد نفوذه فى أنحاء الجزيرة العربية وقد ملك بعده ابنه يشجب بن يعرب وبعده ابنه عبدشمس وهو سبأ وقد خلف سبأ هذا عدة أولاد أشهرهم حمير وكهلان وأشهر بطون حمير : قضاعة ومن فروع قضاعة بلى وجهينة وكلب وبهراء وبنونهد وجرم وأشهر بطون كهلان : الأزد وطى ومذحج وهمدان وكندة ومراد وأنمار وجذام ولخم .

نظام الحكم فى اليمن :

لم يكن للسلطات القديمة التى تولت الحكم فى اليمن نظام متبع وإنما كان

لكل رئيس سلطة محصورة على مخلاف لا يتجاوزه فإن اضطرته الأحوال إلى الغزو أو الإغارة خارج مخلافه عاد إلى مقر سلطته دون أن يذعن له أحد أو يؤدى إليه خراجاً ممن هم خارج دائرة نفوذه المحصورة ويدعى هؤلاء الرؤساء بالأذواء أو الأقيال .

على أنه قد ينبغ بين الأذواء والأقيال رجل ذو مطامع أهل للسيادة العامة فيمد سلطته على مجاوريه ويضم أملاكهم إليه ويسمى نفسه ملكا وينظم من هذه الممتلكات مملكة يجعل محفده قصبتها .

وقد يتوالى الحكم فى عقبه أو ذويه حيث تتكون منهم دولة يطول بقاؤها أو يقصر ويتسع نفوذها أو ينحصر حسب الأحوال والظروف الداعية لذلك . .

وكان هؤلاء الرؤساء يشتغلون بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق أو قل كانت التجارة أبرز أعمالهم فى هذا العصر كما كان أكثرية الشعب مشتغلا بها .

الأذواء والأقيال :

كان الرؤساء فى اليمن يسكنون المحافد جمع محفد وهو عبارة عن عدة قصور مجتمعة يقيم فى أحدها شيخ أو وجيه أو أمير تحف به الحاشية والأعوان والخدم ويعرف صاحب المحفد بلفظ ذو مضافا إلى اسم المحفد فيقال ذو غمدان أى صاحب غمدان وذو معين أى صاحب معين وتعرف هذه الطبقة بالأذواء .

أما القيل فهو أمير يتولى تدبير شئون عدة محافد بمعنى أن سلطة القيل وموضع اختصاصه أوسع وأشمل من سلطة الأذواء ويجمع القيل على أقيال .

ويسمى مجموع المحافد بما يلحقها من القرى والمزارع مخلاف يحكمه قيل أو ملك صغير وينسب المخلاف إلى أكبر محافده أو إلى المحفد الذى يقيم فيه القيل أو الملك وقد يتحول القصر إلى مدينة بعد ظهور الدولة وقد يبدل اسمه كما تحول قصر ريدان إلى ظفار ، وسلحين إلى مأرب .

المحافد والمخاليف :

أشهر المحافد أو القصور التى وصلت إلينا أسماؤها :

غمدان ، تلفم ، ناعط ، صرواح ، سلحين ، ظفار ، شبام ، بينون ، ريام ، براقش ، دوثان ، أرياب ، عمران ، وبعض هذه القصور بقى إلى ما بعد الإسلام حيث ذكره العرب ووصفوه .

أما المخاليف فقد ذكر العرب منها ثمانية وأربعين مخلافا أشهرها :

مخاليف شبوة ومأرب والمعافر والسحول وذى رعين وجيشان ورداع وذمار وألهان وحراز وهوزن وحضور وأقيان وقولان وكان معظم هذه المخاليف فى أواسط اليمن وشرقيها فيما يعرف اليوم باليمن والجوف وحضرموت .

أشهر المدائن اليمنية فى التاريخ :

أشهر المدن اليمنية التى عاصرت ملوك معين وسبأ وحمير هى :

مأرب أو سبأ ، معين ، صرواح ، نجران ، صنعاء ، شبوة ، شبام ، وتريم ، وظفار ، وريدان ، ويثيل ، والسوداء ، والبيضاء ، وحيران ، وميفع وغيرها .

الدولة اليمنية الكبرى :

أشهر الحكومات اليمنية فى التاريخ قبل الإسلام ثلاث وهى :

١ — دولة معين التى يقدر بعض العلماء بدايتها حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وعاصمتها القديمة (معين) أما عاصمتها الحديثة فتسمى (قرنا) .

٢ — دولة سبأ ويبتدىء تاريخ تكوينها فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد كما يرجح بعض المؤرخين وينتهى إلى سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد حيث يبتدىء العصر الحميرى وعاصمتهم (مأرب) .

٣ — دولة حمير وتبتدئ بانهيار دولة السبئيين فى السنة الخامسة عشرة بعد المائة قبل الميلاد وعاصمتهم تدعى (ريدان) ظفار .

وقد تحدث التاريخ أيضاً عن قيام مملكة رابعة هى قتبان وعاصمتها (تمنا) وتقع فى المنطقة التى تقع فيها الآن بيجان وسنتحدث عنها عند الكلام على بيجان بين المقاطعات الجنوبية .

٦ – دولة معين

معين – أصلهم – تحضرهم فى بابل – عودتهم إلى اليمن – ملكهم – حضارتهم – لغتهم – زمن حكمهم – ملوكهم – عاصمتهم – اتساع سلطانهم – انهيار دولتهم .

معين أصلهم :

يدل ما عرف من أحوال معين الاجتماعية والسياسية والدينية ومن أسماء رجالهم وآلهتهم أن أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل ظهور دولة حمورابى بعدة قرون .

وقد اشتهر بين مؤرخى العرب أن دول اليمن بعد القبائل البادية تنتسب إلى قحطان فإذا كان ذلك صحيحاً فى السبئيين والحميريين فإنه لا يصح على المعينيين لأنهم أقدم كثيراً من بنى قحطان . على أن بعض المؤرخين يرى أن نسب معين يرجع إلى قحطان أيضاً .

تحضرهم فى بابل – عودتهم الى اليمن :

لما ظهرت دولة حمورابى فى بابل واقتبست ديانة السومريين وشرائعهم ونظاماتهم وسائر أحوال اجتماعاتهم كان المعينيون فى جملة القبائل التى نالت حظاً من ذلك كله بفضل الاحتكاك والتقليد واستمرأت حياة الحضارة التى لا يمكن أن تقارن بحال من الأحوال بالحياة البدوية .

فلما ذهبت دولة العرب من العراق نزح المعينيون فى جملة القبائل التى نزحت وقد تعودت الحضارة فلم تستطع أن تعود إلى حياتها البدوية الأولى ، فالتمست مقراً تقيم فيه ، فنزلت اليمن وتوطنت الجوف .

ملكهم – حضارتهم :

لقد كان التمدن الذى اقتبسه المعينيون من البابليين مساعداً لهم فى التغلب على القبائل التى كانت تتولى السلطة فى اليمن قبلهم فامتدت سيادتهم على معظم الجزيرة العربية قبل قيام دولة سبأ بأجيال .

ولم تكد تستقر الأمور للمعينيين فى اليمن حتى بدءوا بنقل ما عرفوه من حضارة بابل إلى بلادهم ، فشادوا القصور والمحافد وافتنوا فى وسائل الترف وتعاطى رجالها التجارة نظراً للأحوال التى تقتضيها طبيعة البلاد .

وقد اضطرتهم الحضارة إلى الكتابة لتدوين المخابرات السياسية والحسابات التجارية ، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها وقرب تناولها بالنسبة إلى الحرف المسمارى ، فدونوا بها لغتهم .

لغتهم :

كانت لغة المعينيين فى الأصل لغة عامية بالنسبة إلى لغة بابل المدونة ، ثم تكيفت بالحضارة التى احتكت بها فى العراق ، وبمخالطة السومريين والأكاديين وغيرهم من سكان ما بين النهرين الأصليين واقتبسوا لكتابتها الأبجدية الفينيقية كما تقدم .

على أن هذه الأبجدية قد تنوعت بتوالى الأجيال حتى صارت إلى الحرف المسند المشهور وأخذه عنهم السبئيون والأحباش .

زمن حكمهم :

لا يعرف بالضبط الزمن الذى عاشت فيه هذه الدولة من بدايتها إلى نهايتها ولكن العلماء قدروا عمر الآثار التى عثروا عليها فى أطلال هذه الدولة ، فذهب جماعة إلى أنها عاشت فى الألف الثانى قبل الميلاد ويحدده بعضهم بالقرن الرابع عشر (ق . م) وقد بقيت إلى القرن الثامن قبل الميلاد .

ملوكهم — عاصمتهم :

وفق الباحثون فى أنقاض معين وغيرها من أطلال المعينيين إلى العثور على كثير من أسماء الملوك والمعبودات المعينية التى تؤيد أصلها البابلى .

وقد بلغ عدد الملوك الذين عثروا على أسمائهم فى أنقاض الجوف بمعين وغيرها ستة وعشرين ملكا يشترك كل بضعة منهم باسم واحد ويتميزون عن بعضهم بالألقاب وكانت الحكومة فيهم وراثية تنتقل من الأب إلى الابن .

ويرى بعض العلماء أن عاصمتهم القديمة (معين) أما (قرنا) فهى العاصمة الحديثة وقد وفق المستشرق (هاليفى) إلى ارتياد بلاد الجوف الجنوبى فى شرق صنعاء واكتشف أنقاض معين وقرأ اسمها عليها بالمسند وبجانبها براقش إحدى مدن اليمن التاريخية المشهورة .

اتساع سلطانهم :

لم يرد ذكر معين فى الكتب العربية ولكن ذكرها بعض مؤرخى اليونان والرومان ودلت الآثار التى كشفت فى اليمن على طرف من تاريخها .

والمعروف من تاريخهم حتى الآن يدل على أن سلطانهم امتد على الجزيرة العربية بأجمعها إلى خليج فارس والبحر الأبيض المتوسط .

كما يدل على أن دولتهم لم تكن دولة حرب وفتح ، بل كانت دولة تجارة مثل دولة الفينيقيين على شواطىء سوريا ، وكانت طرقها التجارية ممتدة فى أواسط جزيرة العرب ، وكانت تصدر الطيب والمر إلى الآفاق وتتلقى تجارة الهند وما جاورها ، فترسلها إلى الشام ومصر وما يليهما وقد وقفوا على بعض من النقوش المعينية فى العلا قرب وادى القرى وفى الصفا وحوران وغيرها مما يدل على انتشار سيادتها ومستعمراتها فى أعالى الحجاز .

انهيار دولتهم :

ظهرت سبأ فى بلاد اليمن وقويت شوكتهم حوالى القرن الثامن قبل الميلاد حيث نازعت المعينيين السلطان وقضت عليهم ويؤخذ من بعض النقوش الأثرية أن تغلب السبئيين عليهم كان فى الزمن الذى يلقب فيه ملوك السبئيين بلقب (مكرب) .

ويظهر أن السبئيين إنما غلبوهم على السلطة فقط ، فقد جاء ذكر المعينيين فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد والسبئيون يومئذ فى إبان دولتهم .

٧ — مملكة سبأ

السبئيون ، بداية دولتهم — ملوكهم ، مدة حكمهم — قصبة ملكهم حضارتهم — سد مأرب — موقع السد — بناء السد — مؤسسه — تقلص دولتهم .

السبئيون — بداية دولتهم :

السبئيون هم أولاد عبد شمس الملقب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فإلى سبأ هذا تنتسب القبائل السبئية جميعها التى عرفت فى التاريخ .

وليس من المستطاع تحقيق بداية هذه الدولة بالضبط ولكن بعض المؤرخين استدل من وجود ذكر ملكة سبأ فى أيام سليمان النبى عليه السلام أى فى القرن التاسع قبل الميلاد أن بداية هذه الدولة أقدم من ذلك فاحتمل أنها بدأت فى أوائل هذا القرن وربما كشفت الآثار فى المستقبل عن تحقيق الزمن الذى بدأت فيه هذه المملكة .

ملوكهم — مدة حكمهم :

بلغ عدد الذين عرفوا من ملوك السبئيين ووصلت إلينا أسماؤهم سبعة وعشرين كما تدل على ذلك الآثار ، منهم خمسة عشر مكربا واثنا عشر ملكا ، لأن ملكهم كان يسمى فى الطور الأول مكرب سبأ ، ثم سمى فى الطور الثانى بملك سبأ ، ولما انتقلت عاصمة السبئيين إلى ريدان سمى ملك سبأ وريدان وهو بداية العصر الحميرى الذى هو فرع من دولة سبأ ، وهناك طور رابع لقب فيه الملك بملك سبأ وريدان وحضرموت وهو عصر التبابعة الحميريين .

أما مدة حكمهم فإذا اعتبرنا بداية دولتهم فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد فتقدر بأكثر من سبعمائة سنة لأن الآثار تدل على أنهم حكموا إلى سنة مائة وخمسة عشر قبل الميلاد حين انتقلت العاصمة إلى ريدان .

قصبة ملكهم :

قضى السبئيون زمناً طويلا فيما يظهروهم من قبيل الأذواء أصحاب القصور والمحافد كما كان المعينيون فى أوائل دولتهم حتى إذا نبغ فيهم صاحب قصر صرواح شرقى صنعاء ، وكان قوياً طامحاً فاستولى على جيرانه ، فلما اشتد ساعده أو ساعد خلفائه ذهبوا بدولة المعينيين فأصبحت صرواح قصبة ملكهم وهى عاصمتهم الأولى أما عاصمتهم الثانية فهى (مأرب) التى انتقلوا إليها عندما اتسعت دولتهم ، وكان رئيسهم قبل إنشاء الدولة يسمى ذو صرواح[1] .

حضارتهم :

أقام السبئيون حيناً من الدهر بجوار المعينيين واختلطوا بهم وبغيرهم من سكان الجزيرة واقتبسوا لغتهم وديانتهم وعاداتهم فكان من الطبيعى أن يترك هذا الاحتكاك والتقليد أثره فى حياتهم بعد قيام حكومتهم .

وقد ثبت فى التاريخ أنهم أنشئوا فى اليمن دولة كبرى على أنقاض دولة المعينيين وأنهم خلفوهم فى نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أصبح السبئيون فى القرون الأولى قبل الميلاد أكبر وسائل الاتصال بين تلك الأمم فكانت السلع والأطياب تأتى من الهند والحبشة إلى شواطىء جزيرة العرب فينقلها السبئيون على قوافلهم إلى مصر والشام والعراق .

وقد اتسعت ثروتهم بواسطة التجارة وزهت بلادهم وامتدت سيادتهم إلى أطراف الجزيرة شمالا وشرقاً واحتفروا الترع وبنوا السدود وحولوا الرمال إلى تربة خصبة وبنوا القصور والمحافد والهياكل وتفننوا فى تزيينها وزخرفتها وأشادوا حولها الأسوار واغترسوا الحدائق حتى صارت بلادهم جنة آهلة عامرة .

---

(١) (مأرب) هى أشهر مدائن اليمن وتسمى أيضاً سبأ ويؤخذ مما وقفوا عليه من أنقاضها أنها كانت مستديرة الشكل قطرها نحو كيلومتر يحدق بها سور له بابان أحدهما شرقى والآخر غربى وبجانب الباب الغربى كتابة تشير إلى اسم الملك السبئى الذى بناها وفى وسطها آثار هيكل يسميه أهل تلك الناحية هيكل سليمان .

ومع هـذا فقد كانت دولة السبئيين دولة قوافل وتجارة فقط ولم تـكن كالأشوريين والمصريين معاصريها إذ لا تجد للحرب والفتح أثراً يذكر فى تاريخها إلا قليلا .

سد مأرب :

من الأدلة البارزة على حضارة السبئيين والتى لا تزال آثارها قائمة حتى الآن سد مأرب الذى بناه السبئيون لحفظ المياه التى تجتمع من السيول وتوزيعها على قدر الحاجة ، وقد دفعهم إلى هذا التدبير عدم وجود أنهار فى اليمن بالمعنى الجغرافى المعروف حيث كان الناس يعتمدون فى سقى أراضيهم على الأمطار فإذا انقضى فصل المطر ظمئ الناس وجفت مزارعهم وأغراسهم وقلما ينتفعون حتى فى أيام الأمطار من استثمار البقاع العالية على منحدرات الجبال وربما فاض السيل فسطا على المدن والقرى فاضطروا عند ذلك إلى اختزان الماء ورفعه حتى ينتفعوا به فى سقى الأراضى المرتفعة والمنخفضة على السواء ، وقد بنوا لهذا الغرض سدوداً كثيرة بلغت إلى الثمانين فيما يروى بعض المؤرخين ولـكن أشهرها وأهمها وأبقاها على الزمن السد العظيم المعروف (بسد مأرب) لقربه من مدينة مأرب عاصمة السبئيين .

موقع السد :

اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلق وبنوا فى عرضه السد المعروف بسد مأرب وهو يقع على بعد (٣) ساعات من مدينة مأرب وتقع المدينة (مأرب) فى الشمال الشرقى وبين المضيق والمدينة متسع من الأرض يبلغ نحو ثلثمائة ميل مربع كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد بناء السد رياضاً وبساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين الجنة اليمنى والجنة اليسرى .

بناء السد :

هو عبارة عن حائط ضخم أقاموه فى عرض الوادى على نحو (١٥٠) ذراعاً أو خطوة نحو الشمال الشرقى من المضيق وسموه العرم وهو سد أصم طوله من

الشرق إلى الغرب نحو (٨٠٠) ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه (١٥٠) ذراعاً لا يزال نحو ثلثه الغربي أو الأيمن باقياً إلى الآن ، أما الثلثان الآخران منهما فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول أنقاضهما [1] .

مؤسسه [2] :

عثر النقابون فى أنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه ، أهمها نقشان أحدهما على الصدف الأيمن الملاصق للجنة اليمنى تفسيره (أن يثعمر بيين بن سمهعلى ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الرى) والآخر على الصدف الآخر تفسيره (أن سمهعلى ينوف بن ذمرعلى مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى) وسمهعلى هذا هو والد يثعمر المذكور وكل منهما بنى صدفاً أو حائطاً وكلاهما من أهل القرن الثانى قبل الميلاد فهما مؤسسانه ولم يتمكنا من إتمامه فأتمه خلفاؤهما وبنى كل منهم جزءاً نقش اسمه عليه ، وهناك نقوش أخرى تدل على أن هذا السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد كما هى العادة فى تشييد الأبنية الكبيرة بكل زمان .

تقلص دولتهم :

ما زال السبئيون فى عزتهم وثروتهم حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر إلى البحر فأخذوا فى الضعف وكان أصحاب ريدان وهى أقرب إلى البحر جنوباً قد اشتد ساعدهم وهم من حمير فرع من السبئيين فغلبوهم على مدينتهم واتحدوا معهم دولة واحدة كان يقيم ملوكها تارة فى مأرب وطوراً فى ريدان (ظفار) ثم اقتصروا على الإقامة فى ريدان وبهذا الدور يبتدئ العصر الحميرى الذى هو فى الواقع فرع من دولة سبأ .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ــ جرجى زيدان .
(٢) نفس المصدر .

٨ ـ العصر الحميرى

أصلهم — نشوء دولتهم — أطوار الحكم الحميرى — ملوكهم — فتوحاتهم — مدنيتهم — تجارتهم — انهيار دولتهم .

أصلهم ـ نشوء دولتهم :

الحميريون هم أولاد حمير بن عبد شمس الملقب سبأ وقد كانوا خاملين أيام حكم السبئيين ليس لهم شأن يذكر حيث كان السبئيون منفردين بالسلطان وقد أقاموا مدة من الزمن فى ريدان وهم أذواء أو أقيال يتمتعون بنفوذ محصور وكانوا فى ضمن إمارات أخرى يمنية يناوئون السبئيين ويحاربونهم من حين لآخر وقد استطاعت سبأ أن تقضى على بعض هذه الإمارات ولكن حمير ثبتت وصمدت لها حتى سنحت لهم فرصة تغلبوا بها على إخوانهم السبئيين وجعلوا ريدان عاصمة المملكة وكان ذلك فى سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد وبهذا التاريخ يبدأ العصر الحميرى .

أطوار الحكم الحميرى :

تنقسم المدة التى حكم فيها الحميريون إلى قسمين القسم الأول عبارة عن زمن حكم الطبقة الأولى التى تلقب بملوك سبأ وريدان وتبتدىء من سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد وتنتهى بضم حضرموت إلى حكومتهم سنة مائتين وخمس وسبعين بعد الميلاد .

ويقدر المؤرخون ملوك هذه الطبقة بثلاثين إلى أربعين ممن عثر على أسمائهم فى الآثار والنقود وفيهم كثير من المعاصرين أو الإخوة ولا يعرف على وجه التحقيق أول ملوكهم من هذه الطبقة إذ لم تدل الآثار على شىء من ذلك .

أما القسم الآخر فهو الزمن الذى يلقب فيه ملوكهم بالتبابعة جمع تبع والعرب يشترطون فى التبابعة أن تكون حضرموت والشحر فى سلطتهم وتبتدىء هذه المدة بسنة مائتين وخمس وسبعين ب . م حيث ضمت حضرموت

إلى ألقاب ملوكهم فسمى الملك منهم ملك سبأ وريدان وحضرموت . وتنتهى بانتهاء دولة حمير الثانية أيام ذى نواس الحميرى سنة خمسمائة وخمس وعشرين ميلادية فكأنها حكمت ستمائة وأربعين سنة .

ملوكهم ـ فتوحاتهم :

يختلف المؤرخون اختلافا كبيراً فى عدد ملوك الحميريين ومدة حكمهم حيث يقدرهم البعض بستة وعشرين ملكا فى حين يزيد البعض الآخر على هذا العدد أما مدة حكمهم فيزعم بعض بأنها أكثر من ألفى سنة وكل هذه الأقوال لا يستطيع المؤرخ أن يطمئن إليها حتى تؤيد بما يكتشف من الآثار والنصوص التاريخية الصحيحة .

وقد نبغ فى هذه الدولة ملوك قواد غزوا الممالك وفتحوا المدائن وحاربوا الفرس والأحباش وغيرهم ولهذا فإن دولة حمير تختلف عن دولة سبأ بأنها أقرب إلى الدول الفاتحة على أن المؤرخين من العرب بالغوا كثيراً فى وصف هذه الفتوحات الحميرية ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة ما كتبوا إلا إذا كشف التنقيب على آثار يمكن الاستناد إليها .

وأشهر ملوكهم شمر يرعش وهو التبع الذى ذكروا أنه غزا العراق وفارس وخراسان وفتح مدائنها وملك بلاد الروم .

ومنهم أسعد أبو كرب ذكروا أنه غزا أذربيجان ولقى الترك وهزمهم وقتل وسبى وهابته الملوك وإليه ينسبون غزوات كثيرة وأعمالا عظيمة وأنه غزا المدينة (يثرب) وكسا الكعبة وأنه أول من تهود من العرب وقد عمر فى رواية بعضهم إلى مائة وعشرين سنة .

ومنهم بلقيس بنت الهدهاد بقيت فى اليمن عشرين سنة ثم تزوجت سليمان عليه السلام فنقلها إلى فلسطين(١) .

---

(١) ويقال بأن سليمان كان يذهب للقائها فى اليمن ويقول بعض المؤرخين إنها عقدت معه معاهدة على غرار ما يعرف اليوم بمعاهدة صداقة وحسن جوار حين داخلها القلق على مستقبل بلادها ومصير تجارتها وقوافلها بسبب اتساع ملك الإسرائيليين فى عهد سليمان .

ومن أشهرهم حسان بن تبع أسعد الذى غزا اليمامة وأباد جديساً وقصة ذى نواس الحميرى معروفة فى التاريخ وهو الذى غزا نصارى نجران وشق لهم أخاديد فى الأرض أحرقهم فيها وفى سورة البروج إشارة إلى هذه الحادثة « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود » إلى آخر الآيات .

مدنيتهم :

كان الحميريون أهل تمدن ودولة لا تقل عن دول معاصريهم فى (أشور) و (فينيقية) ومصر وفارس فابتنوا المدن وشادوا القصور والهياكل . وتبسطوا فى العيش غير أن تمدنهم لم يكن حربياً . كتمدن الأشوريين والفرس والمصريين بل كان تجاريا فى الغالب كتمدن الفينيقيين . فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وانقطعوا لأعمالهم وتفرقوا لاستثمار أرضهم بغرس الحبوب ، وحفر المناجم ، واصطناع العطور والأطياب ، وركوب القوافل ، فى القفار والسفن فى البحار ، لنقل السلع ، وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان إخوانهم الفينيقيون ، فى أجيال أخرى ، وقد تعاصروا وتعاونوا على ذلك دهراً طويلا .

وقد ضرب اليمنيون نقوداً نقشوا عليها صور الملوك وأسماءهم . وأسماء المدن التى ضربت فيها بالحرف المسند . وزينوها برموز سياسية أو اجتماعية . كصورة (البومة) أو (الصقر) أو رأس (الثور) أو صورة (الهلال) ويؤخذ من صورهم على النقود أن ملوك اليمن كانوا يضفرون شعورهم جدايل يرسلونها على أقفيتهم ، أو على جانبى رءوسهم ، أو خديهم ويظهر أنهم لم يكونوا يرسلون لحاهم ولا شواربهم ؛ لأن صورهم التى وصلت إلينا لم تدل على شىء من ذلك كما كانوا يركبون الأفراس أو المركبات تجرها الخيول والأفيال ، ويلبسون الأساور الثمينة والمآزر المحوكة بالذهب .

وكانت الزراعة فى رقى حسن ، مع مشقة الرى فى بلاد لا أنهار فيها وقد بلغ من رغبتهم فى العمارة ، وعلو همتهم أنهم أنشئوا سدوداً كالجبال يحجزون بها المياه فى الأودية حتى ترتفع فتسقى المرتفعات . وقد تكاثرت السدود

بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات . وذكر الهمدانى فى (يحصب) من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا ومن أكبرها وأشهرها قصعان وربوان وشحران . وسد (عباد) وسد (لحج) وأشهر هذه السدود سد (مأرب) وسد (الخانق) بصعده . وسد (شبام) .

أما صناعتهم فأهمها تحضير بعض أصناف التجارة كالبخور واللبان . والطيوب وغيرها .وكان ذلك مشهورا عنهم بين الأمم القديمة لا يشاركهم فيه أحد . وقد اشتهروا بصناعة التعدين وهى استخراج المعادن من بطن الأرض وقد يظهر غريبا . أن يقال بأن بلاد العرب قد اشتهرت عند القدماء بمعادنها وجواهرها ، ولكن التاريخ أصدق شاهد على ما كان فى جزيرة العرب من مناجم الذهب والفضة ، والحجارة الكريمة ، وغيرها من المعادن وقد ذكر الهمدانى فى صفة جزيرة العرب . وياقوت فى معجم البلدان كثيرا منها . هذا عدا الصناعات التى تدعو إليها الضرورة كالحياكة والحدادة ، وصياغة الحلى ، وغيرها وقد برعوا فى فن البناء براعة مدهشة ، وهذه آثارهم تدل على فخامة مبانيهم وعظمتها ومن أشهر هذه المبانى : قصر (غمدان) وكان بناؤه فى القرن الأول للميلاد ، وظل باقيا إلى أيام عثمان ، وشاهد الهمدانى بقاياه تلا عظيما كالجبل ، وقال فى وصفه إنه كان عشرين طبقة مثل أكبر أبنية العالم المتمدن وأعلاها .

تجارتهم :

إن توسط بلاد اليمن بين أمم العالم القديم جعلها واسطة التجارة بينها من أقدم أزمنة التاريخ فكان بينها وبين الهند علائق تجارية لا يعرف أولها . وكان للهنود محصولات ومصنوعات يحتاج إليها المصريون والأشوريون والفينيقيون وغيرهم ، فكان اليمنيون ينقلون هذه المتاجر إلى تلك الأمم فى سفن البحر أو قوافل البر ، وكان على شواطىء اليمن موانىء ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادى النيل كما ترسو اليوم سفن انكلترا وغيرها عند (عدن) فى أثناء أسفارها بين أوروبا والهند . وكانت لهم ميناء اسمها (موزا) يبنون فيها السفن الكبرى . لقطع الأوقيانوس الهندى . ولهذا السبب

عمرت جزيرة (سوقطره) يومئذ لتوسطها فى طريق تلك التجارة . ومن الموانى التجارية المشهورة فى اليمن فى ذلك العهد (عدن) و (قانا) حصن غراب . (وظفار) و (مسقط) .

أما الأصناف التى كانوا يحملونها من الهند . فهى الذهب والقصدير . والحجارة الكريمة . والعاج . وخشب الصندل والتوابل والقطن . ويحملون من شواطىء أفريقيا الشرقية . العطور والأطياب . وخشب الأبنوس . وريش النعام . والذهب والعاج غير ما كانوا يحملونه من حاصلات اليمن نفسها وهى البخور واللبان والمر واللادن .

وكان السبئيون يحملون من الجهة الأخرى مصنوعات صور ومحصولات الشام إلى بلادهم وغيرها بطريق المبادلة ، قبل سك النقود وأهمها الحنطة والزيت والخمر ومصنوعات فينيقية .

انهيار دولتهم :

يشير المؤرخون إلى أن السبب فى انهيار دولة سبأ الثانية يعنون دولة حمير انهيار سد مأرب ، ولكن التحقيق هو أن هناك عوامل متعددة فى تضعضع دولتهم ، منها انصراف الرومان وغيرهم عن نقل التجارة بطريق اليمن حيث سلكوا البحار ومنها القحط إلى غير ذلك من الأسباب . وقد أشار القرآن الكريم لما أصاب أصحاب السد بقوله :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير . سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ويختلف المؤرخون فى وقت حدوث سيل العرم فيقول البعض إنه حدث فى القرن الثالث للميلاد وبعضهم فى القرن الخامس أو السادس . وقد حقق العلامة (غلازر) الألمانى حدوث سيل العرم فقال إنه حدث عام (٤٤٧) م . وقيل فى سبب تهدم السد . إن المنازعات المستمرة قد صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهده والاستمرار فى تقويته فضعف فلم يقو على صد هذا السيل .

٩ ـ القحطانيون خارج اليمن

هجرتهم من اليمن — أسبابها — دولة غسان — أشهر ملوكهم — المنذر بن الحارث — ذهاب دولتهم — آخر ملوكهم — آثارهم — دولة اللخميين — أول حكامهم — عاصمتهم — أشهر ملوكهم — مدة حكمهم — المنذر بن النعمان بن ماء السماء — آخر ملوكهم — استيلاء المسلمين على الحيرة — دولة كندة — أصلهم — ملوكهم — ذهاب سلطانهم .

هجرتهم من اليمن ـ أسبابها :

لقد كان انتشار الحضارة فى اليمن سببا قويا فى تكاثر السكان وتزاحمهم حتى ضاقت بهم مواطنهم ، وكان هذا التزاحم عاملا لإثارة التنافس والأحقاد فالاصطدام .

وكانوا فى أخريات أيام سلطتهم عرضة للقحط بسبب قلة الأمطار وانفجار السدود نظراً للإهمال الذى لحقهم فكانوا ينزحون بطونا وأفخاذا يطلبون الرزق بعيداً عن الفتن والمصادمات . فى أطراف جزيرة العرب . شرقا وشمالا فينزل بعضهم اليمامة أو البحرين أو عمان أو الحجاز أو مشارف الشام أو العراق .

ومن بين هذه القبائل التى نزحت ، العشائر التالية :

(طى) (الأشعر) (بجيله) (جذام) (الأزد) (عامله) (كندة) (لخم) (نصر) (مذحج) (همدان) (مازن) (غسان) (ازدشنوءة) (الأوس) (الخزرج) (خذاعة) ويقال بأن هذه القبائل خرجت من اليمن وتفرقت فى أنحاء الجزيرة بعد تهدم سد مأرب وهى جميعا ترجع بأنسابها إلى كهلان بن سبأ ابن قحطان .

ولا يستطيع المؤرخ المحقق ، أن يطمئن إلى صحة انتساب هاته القبائل إلى قحطان . إذ لا دليل على قحطانيتهم غير أقوال النسابين . حيث يحتمل انتحالها هذه النسبة للفخر أو التقرب إلى الفرس أو الروم(١).

---

(١) جرجى زيدان .

وأهم هذه القبائل القحطانية ثلاث : غسان ، ولخم وكنده . فقد كونوا لأنفسهم دولا وإمارات فى مهاجرهم عظيمة الأثر . خالدة الذكر .

دولة غسان :

هاجرت من اليمن بعد سيل العرم ، وانتهى بها السير إلى ماء اسمه (غسان) بالشام فنسبوا إليه ونزلوا هناك مجاورين (الضجاغمة) من قضاعة ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو وكانوا يؤدون (الأتاوة) للضجاغمة كارهين ولكنهم تغلبوا أخيراً على الضجاغمة وغلبوهم على ما فى أيديهم وتفردوا بالسلطان . وأنشأوا لأنفسهم دولة فى ما هو الآن يعرف بالبلقاء وحوران .

ولم يكن للغساسنة مدينة يتخذونها داراً للملك . بل كانوا يتنقلون من البلقاء إلى جهات دمشق وتدمر وكانت أكثر إقامتهم (ببصرى) فى حوران على بعد (١٧١) كيلومترا من دمشق إلى جنوبها الشرقى .

ويختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً فى بداية حكمهم ومدته وعدد ملوكهم مما يجعل القطع فى حقيقته مستحيلا . ولكنه يظهر من تاريخهم ومما يرويه مؤرخو الروم أن إمارتهم بدأت فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

وقد احتاج الروم إلى الاستعانة بهم فى الحروب المستديمة بينهم وبين أعدائهم من الفرس ، فحالفوهم على أن يمدهم الروم بأربعين ألفاً إذا دهمهم العرب ، وأن يمدوهم الروم بعشرين ألفاً إذا دهمهم الفرس ، وقد كان الغساسنة أطوع لحضارة الروم ودينهم من (المناذرة) الآتى ذكرهم لحضارة الفرس ، وقد تنصروا وتحمسوا فى النصرانية .

أشهر ملوكهم :

أول من عظم أمره منهم (الحارث بن جبلة) الملقب بالأعرج والمعروف بابن أبى (شمر) (٥٢٩ — ٥٦٩ م) وهو الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة ابن عمرو بن جفنة ، وجفنة هذا هو الجد الذى تنسب إليه الأسرة ، فيقال (بنو جفنة) .

(والذى يعرف من أخبار هذا الحارث أن (جستنيان) قيصر ملك الروم ، ملكه سنة (٥٢٩) ميلادية ، ليحارب المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وجعله رئيس كل القبائل التى بالشام ولقبه بأعظم الألقاب فى الدولة الرومية ، بعد لقب الملك وكان بينه وبين المنذر عدة وقائع ، وأسر المنذر أحد أبناء الحارث وقربه إلى العزّى سنة (٥٤٤ م) . ثم انتصر الحارث على المنذر فى قنسرين وقتل المنذر فى الموقعة ، وهو اليوم الذى يعرف فى الروايات العربية باسم يوم حليمة وذهب الحارث إلى القسطنطينية سنة (٥٦٣م) ليتفق مع الروم على من يخلفه فى الإمارة ، فراع أهل المدينة منظره ، حتى إن الإمبراطور جستنيوس حينما كبر وخرف كان يخوف بالحارث . ومات الحارث حوالى سنة (٥٧٠ م) لخلفه ابنه .

المنذر بن الحارث :

فسار سيرة أبيه فى معونة الروم ومحاربة أمراء الحيرة وقد هزم أمير الحيرة قابوس بن المنذر سنة (٥٧٠) فى موقعة يحتمل أنها المعروفة باسم يوم عين أباغ ، ثم لم يمده الروم بالمال ، وكانت بينه وبين الروم ريبة فعصى ثلاث سنين ، ثم احتاج الروم إلى مصالحته حينما أغار الفرس والعرب على سورية فأرسل قيصر رسولا لحالفه على قبر سرجيوس بالرصافة ، ثم دعاه الإمبراطور جستنيان بعد سنين إلى القسطنطينية ، ونفاه إلى صقلية .

وبعد موت جستنيان سار المنذر هو واثنان من أبنائه إلى القسطنطينية ، فاحتفى به الإمبراطور وأعطاه الإكليل بدل التاج ، ثم رجع فأغار على الحيرة وحرقها ، ولكن الروم ارتابوا فى أمره كما ارتابوا فى أبيه من قبل . فلما بنيت كنيسة فى حوّارين بين دمشق وتدمر ، دعى المنذر ليشهد الاحتفال ، ثم أخذ غدراً إلى القسطنطينية سنة (٥٨٦م) وقطعت الوظائف التى كانت تعطى للغساسنة فثار بنو المنذر الأربعة يقودهم النعمان أكبرهم ، وأغاروا على أرض الدولة الرومية ، ونهبوا وخربوا . فكانت حروب أسر فيها النعمان وأرسل إلى القسطنطينية كذلك ، فعمت الفوضى بادية الشام ، واتخذت القبائل رؤساء من أنفسها ، وانحاز بعضها إلى القدس .

ذهاب دولتهم ـ آخر ملوكهم :

حمل الفرس على مملكة الروم سنة (٦١٤ م) . واستولوا على الشام فى عهد كسرى برويز ، فضعف سلطان العرب وذهبت دولتهم ولكنه بقيت لهم إمارة إلى الفتح الإسلامى ، حيث نجد ذكرهم فى وقعة اليرموك ، وفتوح الشام ، وفى شعر حسان بن ثابت ، ولعل (هرقل) أعادهم إلى الإمرة . حينما أخرج الفرس من الشام سنة (٦٢٩م) ،

أما آخر ملوكهم فهو جبلة بن الأيهم ، حكم سنة (٦٣٢) وقد انقاد للإسلام فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم تنصر ولحق بالروم .

آثارهم :

امتد سلطان (الغسانيين) على حوران وسائر مشارف الشام ، وفى تدمر وعلى سائر عرب فلسطين وسوريا ولبنان بدواً وحضراً . وقد شادوا كثيراً من القصور والأديار للعبادة ، وأنشأوا المدن والقرى وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج ، ومن بين قصورهم صرح الغدير ، والقصر الأبيض ، والقلعة الزرقاء ، وقصر المشنتر وغيرها . ويستطيع الباحث أن يتبين بعض أبهتهم وترفهم من أشعار الشعراء الذين مدحوهم كحسان والنابغة الذبيانى .

دولة اللخميين :

تاريخ هذه الدولة أوضح وأثبت من تاريخ الغسانيين لأنه كان مدونا . وقد هاجروا إلى العراق بعد سيل العرم كغيرهم من عرب اليمن . وكانت هجرتهم فى عهد ملوك الطوائف بالعراق وقد انحطت فارس عن عظمتها بعد انهزام ملكهم (دارا) أمام الإسكندر المقدونى سنة (٣٣٢) قبل الميلاد .

أول حكامهم :

أول من حكم العراق (آل تنوخ) وتنوخ فرع كبير من قضاعة . وهى فرع من قحطان كما يرجح البعض . وأول من تأمر منهم مالك بن فهم ثم خلفه ابنه جذيمة الأبرش صاحب القصة المعروفة مع الزباء ملكة الجزيرة . وكان جذيمة

هذا ثاقب الرأى شديد النكاية . شن الغارات على قبائل العرب فهابه الناس ومدحه الشعراء . ولم يكن له غلام ذكر فبعد أن ملك (ستين سنة) خلفه ابن أخته (عمرو بن عدى) ابن نصر اللخمى . ونصر فرع من لخم وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة . وأول من اتخذ الحيرة منزلا . ولذلك تسمى هذه الدولة دولة آل نصر أو آل لخم . أو ملوك الحيرة . أو المناذرة على السواء .

عاصمتهم :

كانت عاصمة اللخميين (الحيرة) وهى على ثلاثة أميال من مكان الكوفة . فى موضع يقال له (نجف) على ضفة الفرات الغربية . فى حدود البادية . وتقع الآن فى الجنوب الشرقى من مشهد على . وهى مدينة مزدحمة بالمنازل والقصور والحدائق والأنهار . واشتهرت بصحة هوائها . وظلت عامرة بعد الإسلام عدة أجيال . وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير ، وكانا فى غاية الإتقان والنظام والعظمة . وقد بنيا فى أيام النعمان الأول . وكان حكمه فى أوائل القرن الخامس الميلادى .

أشهر ملوكهم — مدة حكمهم :

يبتدئ حكم اللخميين بعمرو بن عدى سنة (٢٦٨) م واستمر ثلثمائة وأربعة وستين سنة أى إلى سنة (٦٣٢) م وعدد ملوكهم (اثنان وعشرون) آخرهم المنذر المغرور . وكلهم من نسل عمرو بن عدى اللخمى إلا ستة من الدخلاء .

ومن أشهر ملوك الحيرة النعمان الأول بن امرئ القيس حكم (٢٨) سنة من (٤٠٣ — ٤٣١) م . عاصر فيها من ملوك الفرس يزدجرد الأول . وبهرام جور . وكان من أشد ملوك العرب نكاية فى أعدائه . وأبعدهم مغارا . غزا الشام مرارا وفتك بأهلها وسبى وغنم وجند الجند على نظام عرف به وكانت له كتيبتان إحداهما من الفرس تسمى (الشهباء) والأخرى من تنوخ اسمها (دوسر) يغزو بهما من لا يدين له من العرب . وكان صارماً حازما . اجتمع له من الأموال والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة . ويقال بأنه تنصر فى آخر عهده . وتنسك ورجع عن وثنيته وخرج من قصره ليلا ملتحفا

بكسائه وساح فى الأرض فلم يره أحد ولم يعرف له خبر وفيه يقول (عدى ابن زيد) يخاطب النعمان بن المنذر :

وتدبر رب الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ ـطة حى إلى الممات يصير

المنذر بن النعمان :

من بين ملوك الحيرة المشهورين (المنذر بن النعمان بن امرئ القيس) حكم من سنة (٤٣١) إلى (٤٧٢) وقد أعان يزدجرد فى حروب كثيرة من بينها حربه مع الروم . وذلك أن يزدجرد اضطهد النصارى فى بلاده . وجاراه ابنه بهرام . فنهض الروم لنصرة النصارى . أو تذرعوا بذلك طمعاً فى الفتح ، فنشبت الحرب بين الدولتين وحاصر الروم (نصيبين) فاستنصر (بهرام) المنذر فلباه . ووعده أن يكتسح له سوريا وقد فعل . وبالغ رجاله فى النهب والقتل . ووقع الرعب فى قلوب الروم . وعمدوا إلى الصلاة والاستعاذة بالله . من ذلك الأسد الغربى أن يدخل عليهم عاصمة ملكهم (القسطنطينية) ولو تم ذلك لتغير وجه أوروبا كما تغير بفتح العثمانيين لها بعد ذلك . ولكن أوروبا نجت يومئذ باضطراب وقع فى معسكر المنذر ، فاضطره إلى عقد الصلح .

ابن ماء السماء :

ومنهم المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء حكم من سنة (٥١٤) إلى (٥٦٣) م وهو أشهر ملوك لخم وأكثرهم عملا وقد عاصر من ملوك الفرس (قباذ) وابنه (أنوشروان) ومن قياصرة الروم . (يوستنيانوس) ومن الغساسنة (الحارث بن جبلة) وكلهم من كبار الرجال اجتمعوا فى عصر واحد وفى أيامه فتح الأحباش (اليمن) على يد (أبرهة) .

وفى أيامه استولت كندة على الحيرة ، وذلك أن (قباذ) ملك الفرس أظهر القول بمذهب (مزدك) الاشتراكى فى الأموال والنساء . فأبى المنذر

بجاراته ، فطرده وولى على الحيرة (الحارث بن عمرو بن حجر) آكل المرار ، جد امرئ القيس الشاعر ولكن المنذر عاد إلى الحيرة بعد أن اجتمع أمر الفرس لكسرى أنو شروان .

آخر ملوكهم ـ استيلاء المسلمين على الحيرة :

وكان آخر ملوكهم (المنذر بن النعمان) الملقب بالمغرور حكم من سنة (٦٢٨) إلى (٦٣٢) م وقتل فى حروب الردة بالبحرين وقد فتحت الحيرة صلحاً على يد (خالد بن الوليد) فى خلافة أبى بكر الصديق سنة (١٢) من الهجرة . وقد نزل خالد شرقى (الحيرة) قريباً من قصر (الخورنق) وتولى الدفاع عن العاصمة القائد الفارسى (المرزبان) وحاول صد المسلمين عنها ، ولما ظهر عجزه توارى وراء الأسوار ، وأرسل إليهم خالد يخيرهم بين ثلاثة ، إما الإسلام أو الجزية أو الحرب . وأمهلهم (٢٤) ساعة فاختاروا الجزية وهكذا انقضى أمر الحيرة ، عاصمة المناذرة ، ودخلت تحت سيطرة المسلمين .

دولة كندة ـ أصلهم :

يقول ابن خلدون إن كندة تنتسب إلى كهلان بن سبأ وإن أول من لقب كندة من ولده (عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان) ويروى الثقات بأن أصلهم من البحرين والمشقر . وقد أجلوا عنهما . فأقاموا (بحضرموت) فى بلد يعرف باسمهم ، وقصبته (دمون) وأقاموا هناك دهرا وهم على وفاق مع الحميريين حكام البلاد . وكان الحميريون يستخدمون خاصتهم وكبارهم فى بعض مصالحهم ويدخلونهم فى بطانتهم وحاشيتهم .

ولكن العلاقات بين الكنديين والحميريين ساءت أخيراً ووقعت حروب كثيرة بينهم اضطرت معها بعض قبائل كندة إلى الرحيل إلى أرض معد حيث أقاموا هناك .

ملوكهم :

حدث أن قدم رؤساء بكر بن وائل . إلى حسان بن تبع ملك اليمن وأحد التبابعة وطلبوا إليه أن يولى عليهم ملكا يقضى على الخلافات فيما بينهم ويضرب

على أيدى المفسدين منهم وكان (حجر بن عمرو الكندى) المعروف بآكل المرار ذا رأى ووجاهة . فولاه عليهم . فهو أول ملوك كندة فى (نجد) وكان أول عمل قام به أن أنقذ أرض بكر من سلطة اللخميين وبقية بلاد نجد ، واجتمعت كلمة القوم على احترامه حتى مات ودفن فى بطن عاقل سنة (٤٥٠) م تقريبا ، فيكون ابتداء هذه الدولة فى بداية القرن الخامس . وقد ملك بعده ابنه عمرو بن حجر ويسمى المقصور ، لأنه اقتصر على ملك أبيه . وتوفى سنة (٤٩٠)م .

فلما مات عمرو خلفه ابنه الحارث . وكان كبير المطامع حاسداً للخميين على تقربهم من الأكاسرة . فانتهز فرصة تغير (قباذ) الفارسى على المنذر ابن ماء السماء . فقصده لولاية الحيرة فولاه (قباذ) إياها ، كما سبق . وقد عظم فى أعين القبائل ، وتوافد إليه أشراف معد يهنئونه ويطلبون إليه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم . ويضع حداً للحروب الثائرة بينهم ففرق بينهم أربعة من أولاده على النحو الآتى : —

حجر بن الحارث ... على — بنى أسد بن جذيمة وغطفان — شرحبيل ابن الحارث ... على — قيس عيلان وطوائف غيرها — سلمة بن الحارث ... على — تغلب والنمر بن قاسط ..

ولم يطل سلطان الحارث على الحيرة لأنه بعد موت قباذ تولى (أنوشروان) فأرجع المنذر كما سبق . وفر الحارث بأولاده وماله . وقد تبعه المنذر فى جمع من تغلب وأياد . فنجا الحارث . ونهب ماله ، وأخذ (٤٨) من قومه . فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث . وقد قتلا فى ديار (بنى مرينا) عند ما قدموا بهم إلى المنذر وقد رثاهما امرؤ القيس فى قصيدته التى يقول فيها :

ملوك من بنى حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا

وقد ظل الحارث فى بنى كلب ، حيث نجا من المنذر حتى قتل فيهم .

ذهاب سلطانهم :

عمل المنذر على الانتقام من أبناء الحارث فسعى فى الإفساد بينهم حتى تحارب سلمة وشرحبيل ، وقتل شرحبيل فى معركة تعرف بيوم الكلاب . وخاف سلمة بعد ذلك على نفسه عند ما أدرك الوقيعة من المنذر فخرج من تغلب والتجأ إلى بكر بن وائل فسار إليهم المنذر وهزمهم شر هزيمة ، وقد أضعف ذلك من نفوذ حجر صاحب بنى أسد ، وأخيه معد يكرب وتنكر بنو أسد لملكهم ، وأجمعوا على خلافه ، وضربوا الجباة الذين أرسلهم لجمع (الأتاوة) فاستعان عليهم حجر بجند من ربيعة ففتك بهم وحبس أشرافهم ومنهم (عبيد ابن الأبرص) الشاعر المعروف ، وقد أطلقه بعد ما بعث إليه عبيد بشعر يستعطفه فيه فخرجوا وفى نفوسهم غل وما زالوا يترقبون الفرص للقضاء عليه حتى قتلوه طعنا . وحجر هذا هو والد امرئ القيس الشاعر المشهور .

وقد حاول امرؤ القيس الثأر من قتلة أبيه فاستنجد القبائل واستجار بهم فلم يلبه أحد ، ويقال بأنه قصد قيصر الروم عدو اللخميين ، لينصره على أعدائه وقد أجاب القيصر دعوته ، وسمع مدائحه ، ولكن بعض أعدائه من بنى أسد ، وشى به إلى القيصر وقال إنه شتمك فصدق الوشاية وألبسه حلة مسمومة . مات بسببها أثناء عودته .

وتضعضعت دولة كندة بعد موت امرئ القيس ولم يبق من ملوكها غير معد يكرب . وأمراء صغار لهم سيادة على بعض القبائل ، هى بقية نفوذ آبائهم وربما حكم الواحد منهم بلداً أو وادياً ، وأشهر فروع تلك الدولة أربعة ، فى الأماكن الآتية : دومة الجندل ، البحرين ، نجران ، غمر ذى كندة ، وقد بقيت هذه الإمارات الصغيرة حتى ظهر الإسلام فذهبت جميعها .

١٠ ــ الأحباش والفرس
فى اليمن

هجمات الأحباش الأولى — اليهودية وغزو الأحباش الأخير — السبب الاقتصادى للغزو — وصول الجيش — امتلاكه اليمن — الحميريون يستنجدون بالفرس .

هجمات الأحباش الأولى :

يستفاد من كتب اليونان والسريان . أن الأحباش أخذوا يستخفون بالحميريين . ويطمعون ببلادهم . من أوائل النصرانية على أثر تضعضع السبئيين وذهاب دولتهم . وتفرق كلمتهم . والأحباش يومئذ فى إبان سطوتهم وعاصمتهم (اكسوم) . ويظن بعض المؤرخين بأن جماعة من الأحباش احتلوا شواطىء اليمن الجنوبية عند مهره فى القرن الأول قبل الميلاد يترقبون فرصة يثبون بها على الحميريين . طمعاً بثروة بلادهم والاستئثار بما بقى من تجارتها .

وهناك أخبار صحيحة تقول بأن الأحباش حملوا على شواطىء اليمن فى أوائل القرن الثانى للميلاد . وعادوا فجددوا الحملة . فى أواخر القرن الثالث . ففتحوا بعض اليمن وبعض تهامة . ولكن الحميريين تعاونوا عليهم وأخرجوهم من بلادهم وعاد الأحباش بعد (٥٠) سنة فاكتسحوا اليمن كلها ، وذكروا خبر ذلك الفتح على آثارهم ، وتوالت الوقائع بين الأحباش وحمير فى أواسط القرن الرابع للميلاد ، كانت الحرب فيها سجالا . وقد حارب أحد ملوكهم (الهدهاد) ملك اليمن ، وفتح البلاد اليمنية سنة (٣٤٥) م . بمساعدة قيصر الروم (قسطنطيوس) رغبة فى نشر النصرانية التى كانت قد دخلت الحبشة من عهد قريب . ولكن الحميريين استعادوا سلطتهم سنة (٣٧٤) م . وما زالت فى قبضتهم حتى غزاها الأحباش المرة الأخيرة سنة (٥٢٥) م .

اليهودية وغزو الأحباش الأخير :

دخلت اليهودية اليمن على يد أحد ملوك حمير ، ورغب الناس فيها ، فانتشرت فى اليمن كلها ، وكانت قياصرة الروم قد تنصروا وأخذا يهتمون بنشر النصرانية

وتأييدها ، ويستعينون بها على نشر نفوذهم ، وتوسيع دائرة تجارتهم فتسربت النصرانية من الحبشة ، إلى جزيرة العرب ، وخصوصاً فى نجران وعدن . وأرسلوا إليهم الكهنة والرهبان ، وبنوا فى نجران مزاراً عرف بكعبة نجران .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى ملك اليمن ذونواس الحميرى ، وكان شديد التعصب لليهودية ، غزا أهل نجران وخدد لهم الأخاديد ، وعرض عليهم اليهودية ، فامتنعوا فحرقهم وهدم بيعتهم ، وقد أفلت رجل منهم مضى إلى قيصر الروم — يستغيثه ويخبره بما صنع ذونواس : فكتب القيصر إلى ملك الحبشة يحرضه على نصرته وغزو اليمن . هذا هو رأى المؤرخين من العرب ، فى سبب الغزو ، وهو الانتقام للنصرانية .

السبب الاقتصادى للغزو :

أما اليونان فينسبون ذلك الغزو إلى سبب تجارى مالى فيزعمون بأن العرب كانوا يضايقون تجارة الروم عند مرورها ببلادهم ، وربما تعدوا على تجار الروم ، أثناء اجتيازهم اليمن وقتلوا جماعة منهم ، فتوقفت حركة التجارة ، عند ذلك كتب القيصر إلى النجاشى يأمره بغزو اليمن .

وصول الجيش — امتلاكه اليمن :

عبر الأحباش البحر الأحمر ، وكانوا سبعين ألفاً تحت قيادة (أرياط) حتى ورد اليمن ، فجمع ذونواس ما استطاع أن يجمع من الرجال ، وسار إليهم فاقتتلوا قتالا شديداً ، كانت خاتمته هزيمة ذى نواس ، وتفرق جيشه . ويقال بأن ذانواس أقحم فرسه البحر هرباً من الأسر ، فكان آخر العهد به ، وبذلك تم للأحباش ملك اليمن .

وقد ظل (أرياط) على حكم اليمن حتى نقم عليه بعض قواده فاجتمعوا بقيادة (أبرهة الأشرم) وحاربوه . وبرز له (أبرهة) فقتله واستولى على الحكم مكانه . وأبرهة هذا هو صاحب الفيل الذى غزا (مكة) ليهدم الكعبة ففشل . وقد عاش حاكما على اليمن عشرين سنة وخلفه ابنه (يكسوم) ، ثم (مسروق) بن أبرهة وقد عمل الأحباش أثناء حكمهم على نشر النصرانية بين

الحميرين وبنى أبرهة فى صنعا كنيسة كبيرة سماها (القليس) وبالغ فى تزيينها وإتقانها وكانت مدة حكم الأحباش اليمن فيما يروى العرب (٧٣) سنة .

الحميريون يستنجدون بالفرس :

مل الحميريون سلطة الأحباش ، واستبدادهم . وطال عليهم البلاء . وكان فى أمراء حمير رجل اسمه (سيف بن ذى يزن) استنجده قومه فسعى فى إنقاذهم . واستنصر قيصر الروم فرده خائبا فمضى إلى كسرى فأمده بجند تحت قيادة (وهرز) من خير بيوت فارس وأكثرها شجاعة . وتغلب الفرس وأجلوا الأحباش عن اليمن . وكتب (وهرز) إلى كسرى يخبره . فكتب إليه أن يملك سيف ذى يزن . ويقدم هو إليه . ويقول ابن هشام بأن وهرز بقى ومات باليمن . فأمر كسرى على اليمن ابنه المرزبان ثم ابنه (التينجان) ثم ابن التينجان ثم باذان الذى بعث النبى (ص) فى زمنه .

ولما خلا سيف باليمن وملكها جعل يقتل الأحباش . ويفتك بهم حتى لم يبق إلا بقية منهم فى ذلة وقلة فاتخذهم خولا ومكث على ذلك برهة من الزمان وبينما هو ذات يوم راكب ومعه الحبشة بحرابهم مالوا عليه فطعنوه حتى قتلوه ولم يقم على الحميريين ملك بعده حتى كان الإسلام . ودخلوا فى حوزة المسلمين .

٢١ — العدنانيون

أصل العدنانيين — أقدم أخبارهم — قبائل عدنان — منازلهم — قريش — قصى — هاشم — عام الفيل — ميلاد النبي (ص) — بطون قريش

أصل العدنانيين :

تنتسب جميع القبائل العدنانية إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد قدم إبراهيم من بلاد ما بين النهرين مهاجراً منها إلى فلسطين ومصر . ثم قدم فى وقت من الأوقات إلى الحجاز حيث ترك ابنه إسماعيل من جاريته هاجر المصرية وإبراهيم هو من الكلدانيين . وقد علمنا أن أصل الكلدانيين من جزيرة العرب هاجروا إلى ما بين النهرين ، فى الأعصر القديمة ، وأنشئوا فيها دولتهم ، فإبراهيم إذن ليس بغريب عن الحجاز وإنما عاد إلى بلاده الأصلية .

أقدم أخبارهم :

يبدأ تاريخ الإسماعيليين ، فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وأقدم ما ذكره المؤرخون عن أخبارهم خلاصته : أن إسماعيل لما نزل مكة وشب فيها وجد نفسه بين جرهم فتزوج منهم ورزق اثنى عشر ولداً . كان منهم أصل الفرع العظيم من العرب العدنانيين . ويروى الثقات بأن إبراهيم جاء إلى مكة ثلاث مرات . الأولى ترك فيها هاجر وطفلها إسماعيل والثانية بعد أن أدرك إسماعيل وتزوج من جرهم زواجه الأول . والثالثة بعد زواج إسماعيل زوجته سيدة بنت مضاض الجرهمى . وفى هذه المرة رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت .

وقد ولى إسماعيل زعامة مكة وولاية البيت وخلفه فيها اثنان من ولده ثم انتقلت الزعامة إلى جرهم وظلت فى أيديهم مع بقاء أولاد إسماعيل ولاة للبيت . إلى أن كثرت بطون إسماعيل فاتفقت كنانة العدنانية وخزاعة القحطانية على انتزاعها من جرهم .

ويظهر أن الإسماعليين كانوا بمعزل عن الحكم والنظام وإنشاء الدول حتى حوالى التاريخ المسيحى ، وكانت دول العرب الأخرى فى اليمن ومشارف الشام والعراق وغيرها تستخدمهم فى نقل التجارة على القوافل بين ممالك ذلك التمدن . ويعبرون عنهم تارة بالإسماعيلية ، وطوراً بقيدار أو غيرهما . وكانوا أهل ماشية وخيام وإبل .

وفى القرن السادس قبل الميلاد غزا بختنصر البابلى بلاد الحجاز ، فجمع عدنان العرب والتقى هو وبختنصر فى ذات عرق فاقتتلوا قتالا شديدا . فانهزم عدنان وتبعه بختنصر إلى حصون هناك ، ولم يقع بين الفريقين قتال وعاد الأشورى إلى بلاده ، دون طائل ، وكان ذلك مقدمة لتسلط معد بن عدنان على سائر العرب واستئثاره بزعامتهم دون جرهم والعمالقة .

قبائل عدنان — منازلهم :

تنقسم القبائل العدنانية أولا : إلى فرعين عظيمين ، عك ومعد ، أما عك فنزلت فى نواحى زبيد جنوبى تهامة ، وبقى منهم بقية إلى أيام الإسلام ، وليس لهم تاريخ يذكر . وأما معد فهو البطن العظيم الذى تناسل منه عقب عدنان كلهم ، وقد انقسمت معد إلى فرعين كبيرين . نزار وقنص . هلكت قنص ولم تبق منهم بقية وبقى النسل والكثرة فى نزار وهم عدة فروع أشهرها ربيعة ومضر وإياد وأنمار .

وقد أقامت ربيعة فى مهبط الجبل من غمر ذى كندة . بينه وبين مكة سير يومين . وبطن ذات عرق وما حاذاها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة .

وأقامت قبائل مضر فى حيز الحرم إلى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد ، أما إياد وأنمار فقد أقامتا فيما بين أرض مضر إلى نجران وما والاها .

وقد اضطرت أنمار إلى الرحيل من تهامة الحجاز إلى سرات عسير بين الحجاز واليمن أثر حروب وقعت بينها وبين إخوانها من ربيعة ومضر ، وبقى من آثارها قبيلتا خثعم وبجيلة .

وتنازعت قبيلة إياد السلطة فى الحرم وما جاوره مع ربيعه ومضر أيضاً . واضطرت آخر الأمر إلى الرحيل عن الحجاز إلى جهات العراق ووقعت بينها وبين الفرس وقائع كان آخرها على يد الملك (سابورذى الأكتاف) الذى فتك بهم .

أما ربيعة فهى من أقوى القبائل العدنانية وأعظمها وقد تنازعت السلطة زمناً طويلا على الحجاز مع مضر ثم نزحت عنها واستولت على أماكن عديدة فى الجزيرة فنزلت عبد القيس البحرين وهجر . ونزلت بكر وتغلب وعنزه ظواهر نجد . وانتشرت فى اليمامة فى ما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق وأقامت قبائل منها فى بلاد اليمن وحالفت أهله . ومن بقايا ربيعة قبيلة عنزة التى ينتمى إليها الملك عبد العزيز آل سعود .

بعد أن نزحت ربيعة عن الحجاز استقلت قبائل مضر بسائر بلاد الحجاز وانتشرت فروعها وأفخاذها فى أطرافها وكان منها حيان مشهوران هما خندف وقيس عيلان ، وقد ازدهرت مكة أثناء سلطة مضر وأصبح لها شأن عظيم .

قريش :

هم بنو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر ، ففهر هذا هو قريش ومن كان من ولده فهو قرشى ، أما من انتسب إلى أعلى من فهر فهو كنانى نسبة إلى كنانة بن خزيمة ، فإذا علا فوق كنانة فهو مضرى فقط ، ويقال لبنى كنانة وقريش مضر أيضاً ، نسبة إلى مضر جدهم الأعلى .

وقد بلغت قريش الذروة من الشرف والمنعة . فى أيام قصى بن كلاب ، حيث يبدأ تاريخ مكة الفعلى بقيامه على حكومة خزاعه ، واستئثاره دونها بمقاليد الحكم . وولاية البيت .

والواقع أن جميع السلطات العدنانية فى مختلف منازلها لم يكن لها نظام سياسى متبع كما هو الحال فى اليمن آنذاك ، أو على الاصطلاح الذى نفهمه اليوم ، فقد كان

أغلبهم . أهل بادية لا يألفون الحضر ولا يطيب لهم الاستقرار بأرض معينة . إلا قريشا ، فقد تحضرت فى مكة ، وكان لهـا مركز ممتاز فى شؤون تجارة بلاد العرب كلها ، ويطمئن بعض المؤرخين إلى أن مكة عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلة قبل قصى .

وقد ظل أمر مكة لجرهم ، بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مضاض ابن عمرو بن الحارث الجرهمى ، حيث ضعف فى عهده شأن الجرهميين وطمعت خزاعة فى الوثوب إلى مناصب الأمر فى البلد الحرام وكانت بئر زمزم قد نضب ماؤها فعمد مضاض إلى البئر فأعمق حفرها ، ودفن فيها غزالتين من ذهب مع طائفة من الأموال بالكعبة وأهال الرمال عليها رجاء أن يعود إليه الأمر يوماً . فيفيد من الكشف عنها . وخرج من مكة ووليت خزاعة أمرها . وظلت تتوارثه حتى آل إلى قصى بن كلاب ، الجد الخامس للنبى عليه السلام .

وخزاعة هذه ، هى احدى القبائل القحطانية التى هاجرت من اليمن إلى الحجاز ، عقب سيل العرم ، وقد حصل نزاع بين خزاعة وبطون كنانة أولا : أدى إلى قسمة المناصب الحكومية بينهم ، فكان الحكم وما إليه فى خزاعة ، والقضاء والمنصب الدينى فى كنانة ، إلى أن كثرت بطون كنانة واشتدت عصبيتها فنازعت خزاعة ثانية ، وتمكنت بزعامة قصى بن كلاب من الاستيلاء على مناصب الحكم فى مكة ، وسدانة البيت والعناية بشؤون الحج ، وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الميلادى .

قصى :

بعد أن تم لقصى أمر مكة استقر بها وجمع قريشا من منازلهم بين كنانة . فأنزلهم فى مكة ، نقلهم بذلك من البداوة إلى الحضارة وهو أول من أصاب من قريش ملكا أطاعه به قومه فصار له لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليه . واتخذوا (دار الندوة) ازاء الكعبة لمشاوراتهم . ثم تصدى لإطعام الحاج وسقايته ، وفرض على قريش خراجاً يؤدونه .

فاجتمع له شرف قريش . وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء .

فلما كبر قصى وضعف جعل السقاية واللواء والرفادة لابنه عبد الدار وتولاها أبناؤه من بعده لكن أبناء عبد مناف بن قصى كانوا أشرف فى قومهم وأعظم مكانة فأجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ، ونوفل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عبد الدار ، وتفرق رأى قريش تنصر طائفه هؤلاء ، وأخرى أولئك ، وأوشكوا أن يقتتلوا ثم آل الأمر إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار .

هاشم :

هاشم بن عبد مناف بن قصى هو الرجل الذى آلت إليه زعامة قريش ورئاسة مكة بعد قصى . وكان ذا مؤهلات خاصة لم يستطع معها أن يفكر أحد فى منافسته . وكان ذا يسار فولى السقاية والرفادة ، وأطعم الحاج ، وهو الذى سن لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وأطعم أهل مكة فى سنة الجدب ، وقد ازدهرت مكة فى أيامه سنة ٤٦٤ م وسمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة جميعا .

وقد عقد هاشم بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الإمبراطور على الإذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن . وطمأنينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشى كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن ، فازداد بذلك أهل مكة منعة ويسارا ومهروا فى التجارة حتى أصبحوا لا يدانيهم فيها أحد من أهل عصرهم .

وقد توفى هاشم بغزة أثناء احدى رحلات الصيف نخلفه أخوه المطلب . فى مناصبه حتى كبر شيبة بن هاشم الذى دعى بعد ذلك عبد المطلب فقام فى مناصب أبيه هاشم وحفر بئر زمزم التى طمتها جرهم . واستخرج الغزالتين الذهبيتين والأسياف . وحلي بهما البيت الحرام .

عام الفيل :

وفى أيام عبد المطلب غزا (أبرهة) عامل النجاشى باليمن مكة سنة (٥٧٠) م. فى جيش من الحبشة تقدمه هو على فيل عظيم ركبه قاصداً هدم البيت الحرام . فلما اقترب من مكة بعث رجلا من الجيش فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وبينها مائة بعير لعبد المطلب ، وأيقنت قريش أن لا طاقة لهم بقتاله ، وقد قابله عبد المطلب فى جماعة من رؤساء مكة ، وفاوضه على الرجوع عن هدم البيت على أن تنزل له تهامة عن ثلث ثروتها فرفض وأجاب عبد المطلب إلى رد إبله إليه ، وعاد عبد المطلب حزينا فأخذ يدعو عند الكعبة ويستنصر على هذا المعتدى ، وحمى الله بيته الحرام ، فجعل كيد أبرهة فى تضليل وأرسل على أصحاب الفيل طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . قال بعض المؤرخين ، تفشى فى الجيش مرض فتك به فتكا ذريعا ، وأصابت العدوى أبرهة فارتاع وعاد ببقية جيشه إلى اليمن ، وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ولم يقم إلا قليلا حتى مات .

ميلاد محمد :

وقد سئمت قريش هذا العام ، عام الفيل ، وعلى أثر انهزام أبرهة وقعت الحادثة التاريخية الكبرى . فى تاريخ الجزيرة العربية ألا وهى ميلاد منقذ الإنسانية الأكبر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

بطون قريش :

لما توفى قصى كانت بطون قريش قد صارت اثنى عشر بطنا

(١) بنو الحارث بن فهر . (٢) بنو محارب بن فهر . (٣) عامر بن لؤى .

(٤) عدى بن كعب . (٥) سهم بن عامر . (٦) بنو جمح بن عمرو .

(٧) بنو تيم بن مرة . (٨) بنو مخزوم بن يقظة (٩) بنو زهرة بن كلاب .

(١٠) بنو أسد بن عبد العزى (١١) بنو عبد الدار (١٢) بنو عبد مناف

ثم انقسمت عبد مناف إلى بنى هاشم ، بنى أميه بن عبد شمس ، وبنى المطلب وبنى نوفل .

١٢ ـ أحوال العرب قبل الإسلام

الدين — اللغة — الكتابة — الأندية والأسواق — العلوم والمعارف — التربية والتعليم — المرأة — المجتمع .

الدين :

رأس الأنبياء بعد حادثة الطوفان إبراهيم الخليل عليه السلام والأنبياء كلهم من بعده من عقبه ، وكانت النبوة فى فرعين من ولده إسحاق وإسماعيل . ومن الأول جميع أنبياء بنى إسرائيل ، وأعظمهم وأبقاهم أثراً ، موسى وعيسى عليهما السلام ، ويسمى دين الأول (اليهودية) ودين الثانى (النصرانية) . أما إسماعيل فهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان من ولده محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء .

وقد عرفت جزيرة العرب ، اليهودية والنصرانية قبل الإسلام ، فكانت اليهودية فى اليمن ويثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء . أما النصرانية ففى جهات من البحرين والحيرة وفى قبائل من طى وفى عرب الغساسنة . وإن كان المسيحيون منهم أبعد عن الروح الحقيقى لديانة المسيح التى تدعو إلى السلم والتسامح.

وكانت سائر العرب تدين بدين إبراهيم ، ولما طال بهم الزمن وابتعدوا عن مكة كانوا يأخذون شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة لقصد التبرك بها ، فكان ذلك سبب انتشار تعظيم الحجارة والأصنام والتقرب بها إلى الله عز شأنه وكان (عمرو بن لحى الخزاعى) قد قدم ببعض التماثيل من الشام وأقامها على الكعبه ، ودعا العرب لتعظيمها ، ومن ثم أخذ العرب ينصبون التماثيل والأصنام ويتقربون بتعظيمها إلى الله . وقد حكى القرآن قولهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ومن أصنامهم المشهورة اللات والعزى ومناة وأعظمها (هبل) وكان على ظهر الكعبة ، وهو من عقيق أحمر على صورة إنسان .

على أن أفراداً من العرب سمت عقولهم وسلمت فطرتهم أدركوا سخافة هذه

التماثيل وعبادتها ، فوحدوا الله وأخلصوا له العبادة منهم زيد بن عمرو بن نفيل العدوى القرشى ، فارق دين قومه وقال أعبد رب إبراهيم ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وقد تنصر وكذلك عثمان بن الحويرث الأسدى .

اللغـــة :

لغة العرب ، إحدى اللغات السامية الحية ، التى تكلم بها قحطان وأخذها من قبائل العرب القديمة ، ويقال لبنى قحطان العرب العاربة ، وقد تعلم العربية من جرهم القحطانية التى نزلت الحجاز إسماعيلُ وبنوه ، وهم العرب المستعربة .

وبذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربى الحميرى وهو لغة العرب الأصلية ، والفرع العدنانى أو الحجازى ، وهو لغة بنى إسماعيل ، وبين اللغتين بون بعيد فى الإعراب ، والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف ، على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى ، لأن سكان الجنوب اليمنيين بما كان لهم من قوة ورقى قد استطاعوا أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم ، فكان ذلك سبباً فى اتصال الشعبين سياسياً وتجارياً مما أدى إلى تقارب اللغتين فى الألفاظ وتجانس اللهجتين فى المنطق . ولما أخذت دولة الحميريين تدول استطاعت لغة عدنان أن تتغلب على لغة حمير وأدبها بفضل الأسواق والحج ومنافسة العدنانيين للحميريين والفرس ، واختلاطهم بالروم والحبشة ، من طريق الحرب والتجارة . ثم جاء الإسلام فساعد على محو اللهجات الجنوبية ، وذهاب القومية اليمنية فاندثرت لغة حمير ، وآدابهم ، وأخبارهم حتى اليوم .

الكتابة :

يرى (ابن خلدون) أن الخط بلغ فى دولة التبابعـة فى اليمن مبلغاً من الإحكام والجودة ، لما بلغت دولتهم من الحضارة والترف ، ويذهب إلى أن الخط انتقل من اليمن إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة اليمنيين فى العصبية ، ومن الحيرة أخذه أهل الطائف وقريش ، على أنه يعترف بأن الخط المسند الحميرى خط منفصل الحروف ، وليس الخط العربى الذى انتهى إلى قريش على هذه الصورة .

هذا هو رأى بعض المؤرخين القدماء ، أما المتأخرون فيتلخص رأى بعضهم فيما كتبه الأستاذ (إبراهيم جمعه) فى كتابه (قصة الكتابة العربية) قال :

« وقد أثبت البحث العلمى الدقيق أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر صورة من خطوط النبط ، وعلى نحو ما استعار النبط خطهم الأول من الآراميين ، استعار العرب خطهم الأول من الأنباط . والصورة الأولى للخط العربى لاتبعد كثيراً عن صورة الخط النبطى ، ولم يتحدد الخط العربى من هيئته النبطية بحيث أصبح خطاً قائماً بذاته إلا بعد أن استعاره العرب الحجازيون لأنفسهم بقرنين من الزمان . وما تزال فى الكتابة العربية حتى يومنا هذا فى بعض الأقطار وفى كتابة المصاحف بوجه خاص آثار نبطية لم يستطع أن يتخلص منها الخط العربى على طول الزمن .

ويقول (إبراهيم جمعه) أن الثابت فى رحلة الخط العربى هذه إلى بلاد العرب ، أنها تمت بين منتصف القرن الثالث الميلادى ، ونهاية القرن السادس ، وهو الوقت الذى تم فيه تحول الخط العربى من صورته النبطية البحتة إلى صورته العربية المعروفة التى نراه عليها الآن .

ولم تكن الكتابة منتشرة بين العرب حتى فى اليمن المتحضرة وإنما كانت معروفة بين الخاصة منهم . أما البادية فلا تعرف الكتابة وربما كانت تعدها عيباً ، وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أمة أمية ، نظراً لقلة انتشار الكتابة بينهم وانحصارها فى أفراد قليلين (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وقد كان قلة الكتابة سبباً فى اعتمادهم على قوة الحافظة ، فقد كانوا يحفظون القصائد والخطب الطويلة من مرة واحدة يسمعونها .

الأندية والأسواق :

كان للعرب أسواق ومجالس آداب تشبه فى كثير من الوجوه الأندية اللغوية ، والمجامع العلمية التى للأمم المتمدينة فى العصور الحاضرة . أما مجالس الآداب فكانوا يعتقدونها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، والبحث فى بعض

الشئون العامة ، وكانوا يسمونها الأندية . ومنها نادى قريش . وأما الأسواق فقد كانت أمكنة تجتمع فيها الناس فى أوقات معينة للبيع والشراء ، وكان العرب يحضرونها بما عندهم من المآثر والمفاخر فينشدون الشعر ويلقون الخطب ، ويتحاكمون إلى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه ، فكان ذلك من أكبر الوسائل فى شحذ الذهن وترقية الفكر وتهذيب اللغة .

ومن أشهر هذه الأسواق (عكاظ) بين نخلة والطائف تعقد السوق فيه ، فى أوائل ذى القعدة إلى عشرين منه و (مجنه) بالقرب من مكة بمر الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذى القعدة . (وذو المجاز) على فرسخ من عرفة يقيمون فيه ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يعرفون فى التاسع إلى عرفة ، وهو يوم التروية .

العلوم والمعارف :

كان للحضر من الجاهليين علوم وفنون مدونة تتناسب ، وما وصلوا إليه من درجات التمدين والحضارة ، وكانت لهم قوانين موضوعة وشرائع مسنونة ومدارس ومعاهد للتربية والتعليم[١] فمن علومهم هندسة إرواء الأرض ، وعمارة المدن ، والحساب ، وعلم الآلات ، والطب ، والبيطرة ، والزراعة ، والآداب غير أن هذه المعارف كلها كانت عملية تعتمد على التجارب .

أما البدو منهم فقد كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون ولكن الحاجة هدتهم إلى جملة فنون كسبوها بالتجارب ، وتناقلوها بالرواية والسماع ، من ذلك الشعر والخطابة ، وعلم النجوم ، والأنساب والأخبار ، ووصف الأرض ، والطب والأنواء ، ومهاب الرياح ، والكهانة والقيافة والزجر والفراسة .

التربية والتعليم :

كان الغلام من العرب فى العصر الجاهلى يتمرن على أعمال آبائه ليسلك طريقهم ، فى كسب العيش ، وتحصيل اللباس ، واتخاذ المسكن ، وليقتدر على

---

(١) تاريخ التربية . لمصطفى أمين .

مدافعة الأعداء ومنازلة الوحوش ، فالأسرة والعشيرة هى أهم الوسائل فى تربية الطفل عندهم ، فيما سبق وفى تحصيل الأخلاق الفاضلة ، فقد كان الأحداث يأخذون عن آبائهم وأبطال عشيرتهم أخلاق الشجاعة والإقدام ، ويتعلمون منهم الكرم والوفاء والمروءة والنجدة ، والغيرة ، وغيرها من الأخلاق التى اشتهر بها العرب .

أما الحضر فقد كانت التربية عندهم أرقى وأوفى ، كانت تنقسم قسمين ابتدائية وعالية ، وهناك من الدلائل مايدل دلالة قاطعة على أنه كان لكل من القسمين مدارس ومعاهد خاصة به[1] وكان الأطفال فى القسم الابتدائى يدرسون الهجاء والمطالعة والحساب وقواعد اللغة . كما كان الطلاب فى القسم العالى يدرسون الهندسة العملية والحساب وعلم الفلك والطب وفن العمارة والنقش والآداب والتاريخ . وكانت لهم دور كتب يختلف إليها الطلاب ورواد العلم ، وقد عثر الباحثون فى آثار مدائنهم على أنقاض مدرسة للأطفال ، حوت قراميد عليها دروس للأحداث فى الحساب والهجاء ، وشملت فوق ذلك معجمات وكتباً للمطالعة وقواعد اللغة .

المرأة :

كان للمرأة العربية فى الجاهلية من علو المنزلة ، وسمو المكانة ، وجميل الأخلاق ، ونبيل الصفات ، ما للرجل ، وفرة عقل ، وحصافة رأى ، وصفاء ذهن ، وطيب أخلاق وآداب ، وكانت تستشار فى أمر زواجها ، وتترك لها الحرية فى اختيار بعلها ، وكانت تتعلم الشعر والخطابة ، وكثيراً من الأعمال والفنون التى يجيدها الرجال ، وتتعلم فوق ذلك تدبير المنازل وإعداد الطعام ، ورعى الماشية ، وغزل الصوف ، والضرب على المعازف من دفوف وطبول ومزاهر ، ومداواة الجرحى فى أوقات الحرب ، كما كانت الأم العربية تعد بنتها لتكون زوجة صالحة ترعى حقوق زوجها ، ولتكون فى المستقبل أماً تحسن تربية الأطفال وتهذيبهم .

---

(١) تاريخ التربية

غير أن بعض القبائل العربية كأسد وتميم قست قلوبها ففشت بينهم عادة وأد البنات ، خوفا من العار الذى قد يلحق بهم من أجلهن ومنهم من كان يأتيه خشية الإنفاق وخوف الفقر . وهذه الوصمة لم تكن من العادات الفاشية بين العرب . وإنما اختصت بها قبائل قليلة .

وكان للزوجة المكانة السامية الثانية بعد الأب فى الأسرة يجلها الزوج ويشركها فى أمره . ويتغنى باسمها فى شعره . ويفتخر الولد بنسبته إلى أمه كما يفتخر بنسبته إلى أبيه . وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك .

المجتمع :

كان المجتمع العربى مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع الشعب والأمة ، وكانت الحكومة أو السلطة لرؤساء العشاير يملكون بالإرث ، ويحكمون بالعرف . إلا ما كان من النظم السياسية المعروفة عند التبابعة فى اليمن والمناذرة والغساسنة فى الحيرة والشام ، وفيما خلا هذه المقاطعات كان العرب بدوا بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعى الأنعام ، فيطعمون من لحمها ولبنها ويكتسون بصوفها ووبرها . ويتتبعون بها مواقع القطر ورياض الأرض . إلا قريشا فقد تحضروا كما سبق لقيامهم على البيت الحرام . وإيلافهم رحلة اليمن والشام فإذا أخلفت السماء ، وأمحلت وجوه الأرض أغار بعضهم على بعض وغزا بعضهم بعضاً فكان من نتائج الجدب والحرب ذهاب الأمن . وتصدع أركان الألفة فيما بينهم وكانوا لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة ، ويتبجحون باللسن والفصاحة ، ويتكاثرون بالنفر العديد . ويعتزون بالقرابة الواشجة .

« وجملة القول[1] أن المجتمع العربى خارج القبيلة كان مفككا من الجهة السياسية والاقتصادية واللغوية مرتبطا من الجهة الخلقية والعقلية والأدبية .

---

(١) رتايخ الأدب العربى (للزيات)

ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهانا بصيرة . وحنكة خبيرة . ومعارف واسعة . كونوا أكثرها من نتاج قرائحهم . وثمار تجاربهم . فإن لغتهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه . ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه ولا يكون التمدن اللغوى إلا بعد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته وإن لم يرق فى شكله . عام فى أثره . وإن لم يعم فى أهله » .

١٣ – الحادثة التاريخية الكبرى

مكة وقريش – أعظم مولود عرفه التاريخ – محمد (ص) يتلقى دروس الحياة – حرب الفجار – حلف الفضول – قريش تعيد بناء الكعبة – نذر الانقلاب – الرسالة الخالدة – الهجرة – الجهاد – دعوة الملوك إلى الإسلام – وفود العرب – الرفيق الأعلى .

مكة وقريش :

فى أواسط القرن السادس الميلادى ، ارتد تيار النهضة العربية من الجنوب والشمال إلى الحجاز ، وتدفق فى مدنه ، ولا سيما مكة التى كانت يومئذ مثابة العرب لوجود البيت ومعقل العروبة ، لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبى ومجمع الثروة ، لوقوعها فى طريق القوافل الآتية من الجنوب ، تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر ، يقصدها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية ، ويقضون مناسك الحج ، ويشهدون موسم عكاظ ، ويتذوقون فى ظلال الأشهر الحرم نعمة السلام ولذة الهدوء .

وكانت قريش قطب الرحى لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، لولايتها على الكعبة ورياستها فى عكاظ ، وزعامتها فى التجارة ، وغناها من رحلات الشتاء والصيف ، وتقلبها فى البلاد ، وصلتها بمختلف الشعوب ، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال ، وفرضت عليهم لغتها وأدبها .

أعظم مولود عرفه التاريخ :

فى هذا الظرف الذى كانت فيه قريش تتمتع بالسيادة على العرب فى مدينتها المقدسة ، وقعت الحادثة التاريخية الكبرى التى غيرت وجه التاريخ ، لا فى جزيرة العرب فقط ، ولكن فى بقاع المعمورة بأسرها . فقد ولدت آمنة بنت وهب القرشية إحدى سيدات بنى زهرة (محمداً) بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ، فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق

(٢٠) أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية ، على أرجح الأقوال . وقد توفى أبوه وهو ما زال جنيناً فى بطن أمه ، وماتت أمه وهو طفل فى السادسة من عمره ، ومات جده عبد المطلب ، وهو ما يزال فى الثامنة ، فآلت كفالته إلى عمه أبى طالب أنبل قريش وأكرمهم مكانة فى قومه .

محمد عليه السلام يتلقى دروس الحياة :

رحل (محمد) عليه السلام إلى الشام مرتين : الأولى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، والثانية : وهو شاب فى الخامسة والعشرين ، مرَّ فيهما بوادى القرى ومدين ، وديار ثمود ، وعرف طرق القوافل فى الصحراء ، واستمع إلى حديث العرب وأهل البادية ، عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نبئها ، ووقف من بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة ، ورأى أحبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعن مناوأة الفرس من عباد النار لهم ، وانتظارهم الوقيعة بهم .

وكان يحضر الأسواق المجاورة لمكة بعكاظ ومجنة وذى المجاز ، يستمع إلى إنشاد الشعراء وخطب الخطباء ، ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثنيتهم ، ويحدثونهم عن كتب عيسى وموسى وكان له من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ، ودقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، ما جعله ينظر إلى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق .

حرب الفجار :

وقد حمل (محمد) عليه السلام السلاح ، إذ وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفجار ، وهو بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، وسببها أن النعمان ابن المنذر كان يبعث كل سنة قافلة من الحيرة إلى عكاظ تحمل المسك ، وتجىء بديلا منه بالجلود والحبال وأقمشة اليمن المزركشة ، فعرض البراض الكنانى نفسه عليه ليقود القافلة فى حماية قبيلته كنانة ، وعرض عروة الهوازنى نفسه كذلك ، فاختار النعمان عروة فتبعه البراض ، وغاله وأخذ قافلته . فأرادت هوازن أن تأخذ بثأرها من قريش ، فنشبت الحرب ، وظلت أربع سنوات تباعاً ، انتهت بعدها إلى الصلح .

حلف الفضول :

وحضر (محمد) عليه السلام حلف الفضول الذى عقده بنو هاشم وزهرة ، وتيم فى دار عبد الله بن جدعان ، حيث تعاقدوا وتعاهدوا لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة . وكان عليه السلام يقول ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم لو دعيت به لأجبت .

وقد دعاهم إلى عقد هذا الحلف شعورهم بما أصابهم بعد موت هاشم وعبد المطلب : من تفرق الكلمة ، وتنازع السلطة . الأمر الذى أطمع فيهم العرب ، كما فعلت هوازن فى حرب الفجار ، وسميت (فجاراً) لأنها وقعت فى الأشهر الحرم .

قريش تعيد بناء الكعبة :

طغى على الكعبة سيل عظيم ، انحدر من الجبال فصدع أركانها ، وترددت قريش فى أمر هدم الكعبة وإعادة بنائها مخافة أن يصيبهم أذى لما كان يحيط بها من أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شىء من أمرها . ولكن الوليد بن المغيرة أقدم فى شىء من الخوف فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانى ، وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد . فلما أصبح ولم يصبه شىء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة ، ومحمد عليه السلام ينقل معهم.

ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة للبدء فى البناء وبدأت فيه ، فلما ارتفع إلى قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس فى مكانه ، فى الجانب الشرقى ، اختلفت قريش أيهم يكون له فخار وضع الحجر فى هذا المكان ، واستحر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببها ، وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لأيمانهم ، ولذلك سموا (لعقة الدم) .

ورأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، ما صار إليه أمر القوم وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، فقال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فكان (محمد) عليه السلام أول داخل ، فقالوا : هذا (الأمين) رضينا بحكمه ،

فوضع الحجر فى ثوب وقال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف منه ، ثم رفعوه إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، فأخذه (محمد) ووضعه فى موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر . وكان سن (محمد) عليه السلام حينذاك خمساً وثلاثين سنة ، فيما يروى ابن إسحاق .

نذر الانقلاب :

لم يبق لرجل فى مكة من السلطة والمكانة ، ما كان لقصى أو هاشم أو عبد المطلب ، فهذا الخلاف بين القبائل والتحالف بين لعقة الدم . وتنازع السلطان بين بنى هاشم وبنى أمية . كل ذلك يدل على انحلال السلطة فى مكة . الأمر الذى أدى إلى مزيد من حرية الناس فى التفكير ، والجهر بالرأى . وإلى إقدام اليهود والنصارى على تعيير العرب بعبادة الأوثان . بل انتهى بكثير من أهل مكة إلى زوال قداسة الأصنام من نفوسهم ، وإن ظل سادة مكة يظهرون لها التقديس طمعاً فى الاحتفاظ بمكانة مدينتهم الدينية والتجارية .

وكان الأعراب فى قفار البادية ، يفتك بهم الجهل والجدب والحرب ويعانون عنت الكبراء وفقد الأمن ، وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة ويقاسون فى أرزاقهم فحش الربا ، وأكل السحت ، وتطفيف الكيل ، والشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق ، ومن ماء إلى ماء . يضربون على أوتار العصبية ويؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل ، واليهود فى يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعى والزراعى يشيعون أكل الربا ، وينشرون تعاليم التوراة .

ولم تكن هذه المادية القبيحة ، والنظام الفاسد ، وتبلبل الأفكار مما اختصت به جزيرة العرب فقط ، فقد كانت أحوال العالم الاجتماعية والدينية والسياسية ، تنذر بالزوال ، والانقلاب ، فبيزنطية حاضرة الروم أخذت فى جدل عقيم فى أمر دينها ، وفارس قد سخر فيها المجوس بدينهم واندفعوا يقتتلون على المطامع المادية .

وبالجملة فقد كان ظهور الإسلام ، فى ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال . ونقضاً صريحاً لتلك الحياة .

الرسالة الخالدة :

كان (محمد) عليه السلام يطيل التفكير فيما حوله ، ويقلب فى صحف ذهنه كل ما وعى ، متلمساً أسباب الهدى ، طامعاً فى الوصول إلى الحقيقة . وبينما هو فى غار حراء ذات يوم يتحنث كعادته عند ما بلغ الأربعين ، جاءه الملك الذى أفضى إليه بأول قطعة من الوحى ، إعلاماً بنبوته ، وإيذاناً بأن الله اختاره لإعلاء رسالته الخالدة ، وإبلاغها إلى العالمين . وكان ذلك فى سنة (٦١٠) ميلادية .

كانت رسالة (محمد) عليه السلام تقوم على أساسين ، هما : الإيمان والإحسان ، أى العمل الصالح ، وهى بعد ذلك فى مجموعها ثورة اجتماعية قلبت العقلية العربية قلباً ، وشنت على الجاهلية حرباً ، ورسمت للاجتماع مثلا أعلى يخالف ما ألفوه ، ويناقض ما عرفوه ، فماتت العصبية القومية ، والجنسية ، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء فى الله لا فى العصب . على أن بعض الأعراب لم ينزعوا عن جاهليتهم وعصبيتهم ، وكذلك بعض من لم يتشبعوا بروح الدين ، من متحضرى العرب ، وبذلك نستطيع أن نفسر إسراع كثير من العرب إلى الردة عن الإسلام عقب وفاة النبى مباشرة . وبذلك أيضاً نعلل اشتداد الخصومة بين الهاشميين والأمويين فيما بعد وبين العدنانيين والقحطانيين كذلك .

الهجرة :

استمر النبى عليه السلام ، ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً أعلن بعدها الدعوة إلى الدين الجديد ، وعاب آلهة قريش وندد بدينها ، وقد أرهقته قريش ومن أسلم معه بألوان الأذى ، وأدخلت إلى نفس أهل مكة جميعا من الروع ما صد أكثرهم عن اتباعه ، لذلك فقد فكر النبى عليه السلام فى الهجرة عن مكة ليكون له ولأصحابه من الحرية فى الجهر بالدين والدعوة إليه ما يكفل لهم النجاح ، فهاجر إلى يثرب (المدينة) بعد عدة اجتماعات عقدها سرا فى مكة مع بعض الأوس والخزرج سكان يثرب الذين يفدون إلى مكة فى أيام الموسم ،

وكان قدومه المدينة ، فى يوم الإثنين لثمان خلت من ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده الشريف ، ويوافق هذا اليوم (٢٠) سبتمبر سنة ٦٢٢ م .

وقد كان الأوس والخزرج من عباد الأوثان . وكان بينهم وبين يهود يثرب عداوة شديدة . أدت إلى القتال أحيانا ، وقد لجأ اليهود كعادتهم إلى الوقيعة والتفريق بين الأوس والخزرج ليكونوا بمأمن منهم ومن عدوانهم . وليتفرغوا للتجارة وجمع الثروة وقد نجحوا فى سياستهم ، فاشتدت العداوة بين الحيين ، ونشبت بينهما الحروب ، وكان آخرها يوم (بعاث) الذى انهزمت فيه الخزرج شر هزيمة ، ولكن الله تعالى جمعهم بالإسلام وألف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمته إخواناً .

الجهاد :

صبر النبى عليه السلام وأصحابه على الأذى فى مكة ثلاثة عشر عاما ، ولكن الدين الجديد الذى احتمل فيه هذا الأذى والذى هاجر فى سبيله إلى يثرب لا يقر الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة ، وإذا كان يمقت الاعتداء وينكره ويقرر الإخاء ويدعو إليه ، فإنه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة ، وعن حرية العقيدة وعن الوطن ، هذه سياسة النبى عليه السلام التى اتجه إليها عقب استقراره فى المدينة حتى تم له فتح مكة ، وحتى مكن للدين الجديد فى الأرض ، وعلت بذلك كلمة الحق .

كان لأهل مكة والطائف ، تجارة واسعة النطاق حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار ، وكانت صادرات مكة السنوية على ما قدرها بعض المستشرقين توازى مائتين وخمسين ألفا من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهبا فرأى النبى عليه السلام أن يعرض هذه التجارة للخطر من ناحيته وناحية أصحابه ، حتى تضطر قريش إلى التفكير فى التفاهم معه لكفالة حرية الدعوة إلى الإسلام ، وحرية الدخول إلى مكة لأداء الشعائر الدينية ، وقد وادع النبى عليه السلام لهذا الغرض القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة ، وتحالف معها ، وقد جهز النبى عليه السلام

السرايا والرحلات المسلحة تتعرض لعير قريش ، وتريهم قوة المهاجرين واستعدادهم للدفاع عن دينهم حتى لا يتطرق إلى قريش أو غيرهم من العرب مطمع فى إعنات المسلمين والتعرض لهم ، كما كان النبى عليه السلام يرمى بذلك إلى إرهاب اليهود المقيمين فى المدينة وحواليها الذين بدءوا يقلبون للنبى ظهر المجن ، ويعملون على الوقيعة به ، ويثيرون البغضاء بين المهاجرين والأنصار ، ويحاولون إيقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بعاث وما قيل من الشعر فيه .

وقد اتفق فى سرية عبد الله بن جحش ، أن رمى فيها أحد المسلمين عمر ابن الحضرمى بسهم فقتله ، فكان أول دم أراق المسلمون ، وقد حاولت قريش بذلك أن تثير شبه الجزيرة كلها على النبى وأصحابه حتى لقد أيقن النبى أن لم يبق فى مصانعتهم أو فى الاتفاق معهم رجاء ، وكانت هذه الحادثة من بين الأسباب التى أدت إلى غزوة بدر ، والغزوات التى تتابعت بعدها وكما حارب النبى قريشا فى بدر وأحد والخندق ، غزا غيرهم من العرب كثقيف وهوازن وبنى المصطلق ولحيان وغزا أيضاً يهود بنى قينقاع وخيبر وبنى قريظة والنضير كلٌّ ذلك تنفيذا لسياسته العليا فى حماية الدعوة والدفاع عن العقيدة .

دعوة الملوك الى الاسلام :

كانت فارس والروم أقوى دول العالم فى العصر الذى رافق هجرة النبى عليه السلام ، وامتداد سلطان الإسلام بعد الهجرة وكانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس ، ومصر والشام تحت نفوذ (هرقل) أما بلاد العرب فقد كان يحكمها أمراء متعددون لهم نفوذ محصور ما خلا الحجاز التى بدأ الإسلام يبسط سلطانه عليه لذلك . فقد أرسل النبى عليه السلام رسله إلى ملوك الجزيرة والدول المتاخمة لها ، قبل غزوة خيبر بقليل أو بعدها على اختلاف بين المؤرخين ، وكتب مع كل رسول كتابا يدعو فيه إلى الإسلام وكان عدد الرسل كالآتى :

(١) دحية بن خليفة الكلبى — إلى — هرقل ملك الروم

(٢) عبدالله بن حذافة السهمى — « — كسرى ملك فارس

(٣) عمرو بن أمية الضمرى — إلى — النجاشي ملك الحبشة
(٤) حاطب بن أبى بلتعة — « — المقوقس ملك مصر
(٥) شجاع بن وهب الأسدى — « — الحارث الغسانى ملك الشام
(٦) المهاجر بن أمية المخزومى — « — الحارث الحميرى ملك اليمن
(٧) عمرو بن العاص السهمى — « — ملكى عمان
(٨) سليط بن عمرو — « — ملكى اليمن

وقد عاد هؤلاء الرسل إلى النبي عليه السلام بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقة وعطف ، وفى بعضها غلظة وشدة وكان كسرى أقبحهم رداً فقد استشاط غضبا ومزق الكتاب وأرسل إلى بازان عامله على اليمن أن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز ، أما هرقل والنجاشي والمقوقس فقد كان ردهم حسنا ، وكذلك أمير البحرين الذى أسلم وأمير اليمامة الذى أظهر استعداده للإسلام إذا بقى على حكمه ، ولم يكن رد أميرى اليمن وعمان بالرد الحسن .

وفود العرب :

كانت السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود ، فقد ترك فتح مكة وانتصار المسلمين فى حنين ، وانسحاب الروم أمامهم فى تبوك ، أثرا عميقا فى نفوس قبائل العرب . فدخلوا أفواجا فى دين الله ، وقدمت وفودهم على النبي عليه السلام تعلن إسلامها وتعبر عن طاعتها وإذعانها ، حتى لم يبق فى شبه الجزيرة بطن أو قبيلة إلا أسلم ، ما عدا أقلية أخذتهم العزة بالإثم منهم عامر بن الطفيل العامرى الذى قال للنبى عليه السلام أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، وقد أصابه الطاعون فى عنقه ، وقضى عليه عقب عودته من مقابلة النبي عليه السلام ومنهم مسيلمة بن حبيب الذى ادعى النبوة فى قومه بنى حنيفة ويزعم بأنه شريك محمد فى الرسالة ، وأنه يوحى إليه .

وكانت الوفود التى تتوالى على النبي فى المدينة ، مزيجا من المشركين وأهل الكتاب ، وكان النبي يكرم كل وافد عليه ويرد الأمراء مكرمين إلى إماراتهم ، ومنهم الأشعث بن قيس الكندى ، قدم فى ثمانين راكبا من قومه ، ودخلوا

المسجد على النبي وقد رجّلوا لممهم ، وتكحلوا ، ولبسوا جبب الحبر بطنوها بالحرير ، فقال لهم ألم تسلموا قالوا بلى ، قال فما هذا الحرير فى أعناقكم ، فشقوه .

ومنهم وائل بن حجر الكندى ، قدم مع الأشعث فكان أمير بلاد الشاطىء من حضرموت ، فأسلم وأقره النبى فى إمارته ، على أن يجمع العشر من أهل بلاده ، ليرده إلى جباة الرسول .

وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم ، وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ، ومعافر وهمدان ، كما كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام ، فلما بلغ الروم إسلامه حبسوه ثم قتلوه .

ومن بين الوفود ، وفود تميم وربيعة وقحطان ومواد ، وثقيف ، وأسد ، والأزد ، وغسان ، ومهرة ، ونجران ، ومذحج ، وخثعم ، والنخع وغيرهم ، وأول من وفد من اليمن فى السنة العاشرة من البعثة ، قبل الهجرة نصارى نجران الذين سمعوا القرآن وآمنوا به ، وأول من وفد منهم بعد الهجرة وفد الأشاعرة ، أبو موسى وأصحابه أهل وادى زبيد .

وأرسل النبى عليه السلام عماله على اليمن وحضرموت فجعل على أعمال الجند معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعرى ، وعلى صنعاء وأعمالها المهاجر ابن أمية المخزومى . وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضى ، وكان هذا يقيم (بنزيم) وأقام له نواباً فى بعض البلاد يجمعون الصدقات ويعلمون الناس أحكام الدين ، وقد ظل زياد عاملا على حضرموت حتى خلافة أبى بكر .

الرفيق الأعلى :

لقد جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وشعر النبى عليه السلام ، فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة بحمى تنتابه ، فاستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له ، وفى يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة هجرية الموافق ثمانية (يونيه) سنة

٦٣٢ ميلادية لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى من الجنة ، وفارق الحياة الدنيا بعد أن أكمل الله به الدين ، وأتم نعمته على المسلمين .

وقد اجتمع أصحابه قبل دفنه فى سقيفة بنى ساعدة يأتمرون فيمن يقوم بأمر المسلمين بعده ، فلما تمت البيعة لأبى بكر ، أقبلوا على تجهيز النبى عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل فى قميصه ، وكفن فى ثلاثة أثواب ، ووضع على سريره ودخل الناس يصلون عليه أفراداً ، وقد انتهوا من صلاتهم منتصف ليلة الأربعاء ، ودفن فى الموضع الذى مات فيه من حجرة السيدة عائشة بنت الصديق ، فى الجهة الشرقية الشمالية من المسجد ، وكانت سنه عليه السلام إذ ذاك ثلاثا وستين سنة قمرية .

١٤ — بلاد العرب بعد انتشار الإسلام

عهد الخلفاء الراشدين

ارتجاج الجزيرة — حزم الصديق — قتال المرتدين — الأشعث بن قيس — انتصار المسلمين — وحدة العرب — عمال الجزيرة في عهد الخليفة الأول — عاصمة الخلفاء الراشدين — نظام الحكم — واردات الدولة — النقود — التعليم — نظرة عامة .

ارتجاج الجزيرة :

كان النبي عليه السلام مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، فلما توفي عليه السلام غاب مناط الاستقرار فحدث ما لا بد أن يحدث وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارىء وترجع الأمور إلى نصاب[1] .

اجتمع كبار الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبتون بينهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه ومضى كبار المهاجرين ليحضروا هذا الاجتماع في السقيفة ولينقذوا الموقف المضطرب بما هيئوه من تدابير كان لها الأثر الفعال في الاستقرار الذي شمل الجزيرة العربية وبايع الناس أبا بكر وتخلف البعض عن البيعة ومنهم عترة النبي وأقربهم إليه وأعظمهم إيمانا بدينه والغيرة عليه .

واضطرب أناس في مكة قريبو عهد بالنفاق فهموا بالعصيان لولا نذير من السلطان ، واضطرب القبائل من أعراب البادية وغيرهم فالبعض منهم يرى أنه إذا أخلص للنبي في حال حياته فلا مانع من أن يخرج على من ولي الحكم بعده وقد عبر عن هذا المعنى حارثة ابن سراقة الكندي أحد المتخلفين من البيعة من الحضارم بقوله :

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا　　فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر
أيورثها بكراً إذا كان بعده　　فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

---

(١) العقاد في عبقرية الصديق .

وامتنع فريق عن أداء الزكاة متأولين قول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » وقالوا لا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا فهم لم ينكروا الفريضة وإنما أنكروا الجباه .

وكان فى بعض أنحاء الجزيرة مشعوذون لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس فتوهموا أنه حيلة كاهن أفلحت فطمعوا فى الفلاح لأنهم كهان ، وتطلعت رءوسهم إلى الفتنة . فادعى مسيلمة النبوة فى قومه بنى حنيفة باليمامة وادعاها طليحة فى بنى أسد والأسود العنسى فى اليمن . وكان فى اليمن وحضرموت أسر معرقات فى الحكم برزت فى هذا الاضطراب كعوامل للفتنة التى أنتجها اضطراب ميزان الأمور .

حزم الصديق :

وقد قابل الخليفة الأول فتنة الردة هذه بأحزم ما تقابل به من بدايتها إلى منتهاها وبادرها بالحزم من صيحتها الأولى وتعقبها بالحزم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها .

وقد تردد كبار الصحابة وفى مقدمتهم الفاروق فى متابعة أبى بكر على رأيه فى أخذ المرتدين بالشدة ولكنهم نزلوا أخيراً عند هذا الرأى ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه حتى تمزق شمل الفتنة وساد الأمن والاستقرار أنحاء الجزيرة .

قتال المرتدين :

توجه الأمراء والجنود لقتال المرتدين والمتخلفين عن البيعة عقب عودة أسامة بن زيد من الشام وفيما يلى بيان موجز عن المواضع التى اتجهت إليها :

(١) خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد الأسدى ثم مالك بن نويرة
(٢) عكرمة بن أبى جهل « مسيلمة باليمامة .
(٣) المهاجر بن أبى أمية « الأسود العنسى بصنعاء .
(٤) حذيفة بن محصن « أهل دبا بعمان .
(٥) عرفجة بن هرثمة « أهل مهره .
(٦) سويد بن مقرن « تهامة اليمن .
(٧) العلاء بن الحضرمى « البحرين .
(٨) طريفة بن حاجز « بنى سليم وهوازن .

(٩) عمرو بن العاص إلى قضاعة .
(١٠) خالد بن سعيد « مشارف الشام .

وقد حصلت وقائع حربية بين هؤلاء القواد وبين المرتدين من العرب كان النصر فيها جميعها حليف جيوش الخليفة ولم تنقض السنة التى لحق فيها الرسول بربه حتى عادت الجزيرة العربية أشد إيماناً بدينها وأقوى تمسكا به .

الأشعث بن قيس :

كتب أبو بكر إلى عامله بحضرموت زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبى ويأمره بأخذ البيعة على من قبله من أهل حضرموت ، فقام فيهم زياد خطيباً وعرفهم موت النبى عليه السلام ودعاهم إلى بيعة أبى بكر ، فامتنع الأشعث بن قيس من البيعة واعتزل فى كثير من كندة وبايع زياداً خلق آخرون[1] .

ولما رأى زياد اجتماع عظماء كندة على الأشعث كتب إلى أبى بكر يستمده فأمر أبو بكر المهاجر بن أبى أمية عامله على صنعاء أن يمده وأن يسير مع عكرمة بن أبى جهل لمحاربة الأشعث وكان عكرمة قد جاء من عمان ومعه خلق كثير من مهره والأزد وعبد القيس ، فلقيا الأشعث ، ففضا جموعه وقتل منهم مقتلة كبيرة ، فلجئوا إلى حصن لهم يدعى النجير ، فحصرهم المسلمون حتى أجهدوا ، فطلب الأشعث الأمان . ونزل إلى زياد والمهاجر ، فقبضا عليه وبعثا به إلى أبى بكر أسيراً فمن عليه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة ولم يزل بالمدينة إلى أن سار إلى العراق غازياً ومات بالكوفة ، فصلى عليه الحسن بن على بعد صلح معاوية .

ويروى ابن الأثير « أن بنى معاوية كلها أطبقت على منع الصدقة إلا شرحبيل بن الصمط وابنه فإنهما قالا لبنى معاوية إنه لقبيح بالأحرار التنقل ، إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل والقبيح اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك » .

---

(١) ياقوت الحموى .

ويقول ابن الأثير أيضاً « إن شرحبيل هذا هو وامرأ القيس بن عابس أشارا على زياد بتبييت القوم ، فطرقهم ليلا وقتل ملوكهم الأربعة وهم محوس ومشرح وجمد وأبصعة وأختهم العمردة وكانوا قد ثملوا من الشرب وهؤلاء الملوك هم بنو معد يكرب بن وليعة وكان لكل واحد منهم واد يملكه » .

انتصار المسلمين ـ وحدة العرب :

لقد كان انتصار المسلمين فى حروب الردة دليلا قاطعاً على أن العرب أشربت نفوسهم مبادىء التوحيد ولذلك لم يقل أحد من الذين ادعوا النبوة أنهم يدعون الناس إلى وثنيتهم وإلى جاهليتهم الأولى كما دل على أن الذين امتثلوا هذه المبادىء من أصحاب رسول الله المهاجرين والأنصار قد وهبوا لها نفوسهم فلا غالب لهم ومن ثم أسرعت وحدة العرب إلى التماسك والثبات فلم يمض عام من خلافة أبى بكر حتى كان المسلمون العرب يواجهون الفرس فى دلتا الفرات فيقهرونهم ولم ينقض العام الثانى حتى كانوا يواجهون الروم فى الشام ويثبتون لهم وكذلك مهد أبو بكر للفتح وللإمبراطورية بعد أن هيأ الدين الجديد لها القلوب والأفئدة .

عمال الجزيرة فى عهد الخليفة الأول :

قسم أبو بكر الجزيرة العربية إلى ولايات جعل على كل ولاية عاملا من قبله يقيم الصلاة ويفصل فى القضايا ويتولى تنفيذ الحدود وكانت جزيرة العرب جميعها قد دخلت نهائياً تحت الإدارة الإسلامية وهؤلاء هم عمال الجزيرة :

١ ـ عتاب بن أسيد عاملا على مكة .
٢ ـ عثمان بن أبى العاص « « الطائف
٣ ـ المهاجر بن أبى أمية « « صنعاء
٤ ـ زياد بن لبيد « « حضرموت
٥ ـ يعلى بن أمية « « خولان
٦ ـ أبو موسى الأشعرى « « زبيد ورمع
٧ ـ معاذ بن جبل « « الجند

٨ — جرير البجلى عاملا على نجران
٩ — عبد الله بن ثور « « جرش
١٠ — العلاء بن الحضرمى « « البحرين

عاصمة الخلفاء الراشدين :

تسمى الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين وتبتدىء بخلافة أبى بكر عقب وفاة النبى مباشرة سنة ١١ من الهجرة وتنتهى بقتل الإمام على سنة ٤٠ من الهجرة وكانت المدينة هى العاصمة الإسلامية الأولى منذ اتخذها النبى عليه السلام مقراً لإقامته كما كانت العاصمة السياسية للخلفاء الراشدين إلى أن غادرها الخليفة الرابع على بن أبى طالب إلى الكوفة سنة ٣٦ ﻫ

نظام الحكم :

كان نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين فى دور التكوين حيث كان واضح الأساس فى كتاب الله وفى سنة رسوله مبهم التفاصيل وخصوصاً فى عهد الخليفة الأول إذ كانت حكومته أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية فلم يكن فى عهده للدولة جيش نظامى بل كانت الفروسية تجعل من كل عربى جندياً فاذا دقت طبول الحرب ونادى المنادى للقتال خرجت القبائل وعلى رأس كل جماعة زعيمها ومعهم ميرتهم وذخيرتهم لا يكلفون الحكومة المركزية شيئاً ويعتمدون فى معاشهم على ما يغنمون فى الحرب فقد كانوا يأخذون أربعة أخماس الغنائم ويرسلون الخمس إلى الخليفة ليضعه فى بيت المال ولينظم به الشؤون العامة القليلة التى يتولاها بصورة مباشرة .

ولم يكن لأبى بكر وزير وإنما كان عمر يلى القضاء ، وأبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام وكان يكتب له الرسائل عثمان بن عفان وزيد بن ثابت .

وأول من عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء عمر ابن الخطاب وقد وضع لهم أنموذجا يسيرون عليه وكان للقضاة رزق من بيت

المال كما وضع ابن الخطاب دواوين لإحصاء الجنود وضبط خرج الدولة ودخلها ورتب للجنود رزقاً من بيت المال وكان لكل جند عرفاء يلون أمورهم ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم كما أقام فى كل ثغر جنوداً مرابطين لحمايته وكان أول من استعمل البريد لنقل الرسائل .

وليس فى دولة الخلفاء حصر للخلافة فى أسرة معينة بل كان يختار الخليفة بالانتخاب من أى أسرة من أسر قريش وأساس الانتخاب هو الشورى وقد كان الخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بنى تيم وعمر من بنى عدى وعثمان وعلى من بنى عبد مناف .

واردات الدولة :

كان للدولة فى عهد الخلفاء الراشدين واردات ثابتة تتكون من الخراج والجمارك والصدقات والجزية فالخراج هو ما كان يوضع على الأراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها فى أيدى أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التى أبقيت فى أيديهم . والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان فى مقابل حمايتهم . والجمارك أو العشور ما يأخذ على أموال التجارة التى ترد من الخارج ، فكانوا يأخذون من تجار المسلمين ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر أما الصدقات فهى المقادير المعروفة فى الأموال التى تجب فيها الزكاة .

ولا يعرف مجموع ما يرد سنوياً إلى بيت المال ولا مقدار ما كان يصرف فى السنة إلا أنهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة .

النقود :

لم يكن للعرب نقود خاصة يتعاملون بها قبل الإسلام ، بل كانوا يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة وسار المسلمون على تلك الحال حتى خلافة عمر بن الخطاب ، فضرب عمر الدراهم على نقش الكسرويه ، غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله وعلى

أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله أكبر .

التعليم :

كان أكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف القراءة والكتابة ، لأن فتح الحيرة سهل جلب كثير ممن يكتبون هناك لتعليم الناشئة وكان المسلمون فى هذا العهد يستقلون بفهم العلوم الدينية مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة الإسلامية إنما جاءتهم بهذه اللغة . أما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال فيها على بداوتها وربما بينهم من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضى بواسطة المران لا بتعلم سابق .

ولم يكتب شىء من الكتب فى هذا العهد إلا القرآن فإنه جميع فى صحف فى عهد أبى بكر فلما جاء عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار أما سنة الرسول فلم تجمع فى كتاب ولم يدون كذلك شىء من العلوم الأخرى فى هذا العهد .

نظرة عامة :

لما كان الحجاز موطن الخلافة(١) أيام الخلفاء الراشدين كانت ثانية الأرزاق من البلاد المفتوحة كمصر والعراق ، ولما انتقلت الخلافة إلى دمشق فى العهد الأموى ظلت الخيرات تنهال على الحجاز لكثرة الفتوح وكثرة الغنائم وكانت عصبية عربية تقر بالسيادة للعرب ، فكانت ترعى جزيرة العرب وسكانها وكان الفاتحون من العرب وكثير من غنائمهم يتسرب إلى بلادهم ، ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم وعطاياهم ، لذلك سعدت الجزيرة فى عهد الأمويين وأنتجت علماً وفناً .

فلما جاءت الدولة العباسية ، تغير الوضع فأصبح زمام الأمور أكثره فى يد الفرس والعمال أكثرهم من الفرس .

---

(١) ملخص من ظهور الإسلام لأحمد أمين ص ٢١١

وزاد الأمر سوءا فى الحجاز خروج العلويين به ، والتفاف الناس حولهم وإرسال الخلفاء العباسيين من ينكل بهم ، فأخذت جزيرة العرب يقل شأنها شيئاً فشيئا بغلبة العنصر الفارسى وإبعاد العنصر العربى وقلة المدد الذى يرسل إلى الجزيرة .

ولما جاء المعتصم وتغلب العنصر التركى كان الأمر أسوأ فقد كتب إلى عماله فى الأطراف بإسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعلوا وانحط شأن العرب من ذلك الحين .

واستمر هذا العبث بالجزيرة وتتابعت حوادث خروج العلويين وثورات الحجاز واستفحال شأن القرامطة وظهر فى كل ناحية من نواحى الجزيرة طامعون فى الملك طامحون إلى السيطرة والسلطـان ، والخلافة فى بغداد عاجزة عن الاحتفاظ بهيبتها ونفوذها .

كل هذه الأحداث وأمثالها أضعفت شأن جزيرة العرب ، وجعلتها فى شبه عزلة ، وأخرتها مادياً وعلميا حتى أن المقدسى لمـا زارها فى القرن الرابع وصفها بالفقر وقلة العلم .

ووصف مذاهبهم الدينية فقـال : « إن مذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سـنة ونواصى صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة « خوارج » غالبة وهجر وصعده شيعة ... وشيعة عمان وصعده وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة ... والغالب على صنعاء وصعده أصحاب أبى حنيفة والجوامع فى أيديهم وفى نواحى نجد اليمن مذهب سفيان . . والعمل بهجر على مذهب القرامطة وبعمان داودية على مذهب آل الظاهر لهم مجالس » .

ومع هذا فقد كان فى الحجاز حركة دينية فى الفقه والحديث وقد كان هذا الإقليم أخصب الأقاليم فى هذا الموضوع وكان للإمام مالك وتلاميذه من بعده فضل كبير فى الحركة الفقهية .

أما فى اليمن فقد انتشر فقه الزيدية وهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ومذهبهم فى الأصول قريب من مذهب اعتزال فهم يقولون بالعدل والتوحيد كالمعتزلة وبوجوب الخروج على الظلمة كالخوارج ولهم فى الفقه اجتهاد يخالفون فى بعض الأحكام المذاهب الأربعة وقد اشتهر منهم أئمة فى اليمن كالإمام يحيى الرسى والإمام الناصر للحق والقاسم بن إبراهيم وأبو الحسن الصليحى ملك اليمن الذى قتل سنة ٤٧٣ هـ كان فقيها زيدياً كبيرا .

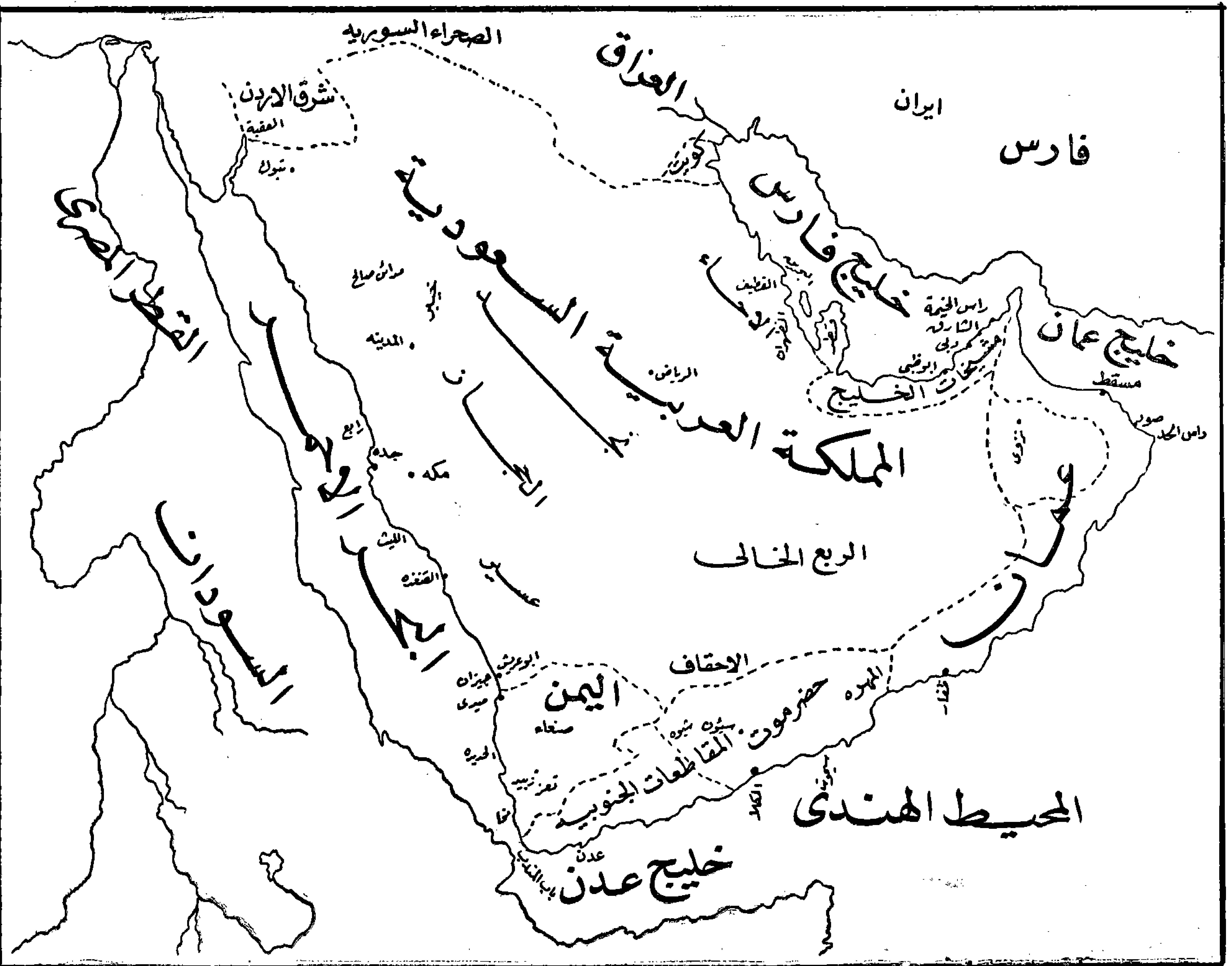
١٥ – جزيرة العرب

حسب تقسيمها السياسى الحاضر

تقلبت على جزيرة العرب بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين أحداث شتتت شملها ومزقت وحدتها ، وفرقتها شيعاً وأحزابا ، وظل أمرها طيلة القرون الماضية ، فى اضطراب و سكون ، إلى أن انتهى بها المطاف إلى هذا التقسيم السياسى الحاضر .

ولهذا آثرت الحديث الآن عن تاريخ كل قسم من هذه الأقسام بمفرده مبتدئاً بالمملكة العربية السعودية ثم أمارات الخليج الفارسى فاليمن وعدن والمقاطعات الجنوبية مقتصراً على الحوادث المهمة التى توضح معالم التاريخ فى هذه الأقطار ومشيراً إلى مالابد منه من المعلومات الجغرافية التى تعطى القارئ فكرة عن موقع كل قطر وحدوده ومساحته وسكانه ومناطقه .

وأنا أرجو بذلك أن أكون قد أديت بعض الواجب الذى أشعر به نحو إخوانى أبناء الجزيرة العربية وغيرهم من الناطقين بالضاد ومهدت لهم سبيل الاستزادة من هذه المعلومات بواسطة المراجع الكبرى والكتب المبسطة .


الصحراء السوريه
العراق
ايران
فارس
شرق الاردن
العقبة
تبوك
خليج فارس
خليج عمان
مسقط
المملكة العربية السعودية
الرياض
الربع الخالي
مدائن صالح
المدينه
مكه
جده
رابغ
الليث
القنفذه
عسير
جيزان
ميدى
الحديدة
اليمن
صنعاء
الاحقاف
المهره
حضرموت
المقاطعات الجنوبية
تعز
زبيد
عدن
باب المندب
خليج عدن
المحيط الهندى
البحر الاحمر
القطر المصرى
السودان
عمان
رأس الحد
صور

١٦ - المملكة العربية السعودية

موقعها :

تقع فى قلب الجزيرة العربية ومبدؤها من الغرب عند الدرجة ٣٢ والدقيقة ٣٠ - ومنتهاها الشرقى من جهة الخليج الفارسى عند الدرجة ٦٠ من الطول الشرقى وتمتد من الخليج الفارسى حتى البحر الأحمر ، ومن حدود الشام حتى مشارف اليمن وهى أكبر بلاد العرب مساحة وأوسعها رقعة .

حدودها :

يحدها البحر الأحمر غرباً والخلج الفارسى شرقاً واليمن جنوباً والعراق والكويت وشرق الأردن شمالا .

أقسامها :

يمكن إرجاع الأقسام الإدارية فى مملكة نجد والحجاز إلى الأقسام الآتية :

أولا فى نجد وملحقاتها خمسة أقسام أو خمس أمارات :

١ - إمارة نجد أو العارض ومقرها فى الرياض عاصمة نجد .

٢ - إمارة القصيم .

٣ - إمارة جبل شمر .

٤ - إمارة الحسا .

٥ - إمارة عسير السراه .

ويتبع كل مقاطعة من هذه المقاطعات الكبيرة عدة نواح وتسمى كلها بالإمارات .

فمن الإمارات التابعة لنجد الرياض والحوطة ووادى الدواسر والوشم والسدير والمحمل وبيشه .

إمارات القصيم عنيزة والقصيم والرس والمذنب ويتبع الجبل حائل وتيماء على طرف النفود الكبير وخيبر والإمارة البدوية التى تشمل حرب وعنزة وهتيم وشمر

ويتبع الحسا القطيف والجبيل والإمارات البدوية مثل إمارة آل مرّه وبني هاجر وبني خالد والعجمان وإمارة مطير والمناصير والعوازم والرشائدة .

ويتبع عسير إمارات أبها وشهران وقحطان ورجال المع ونجران .

ويتبع عسير تهامة ثلاثة أقضية قضاء ضبا وجيزان وأبي عريش .

ثانياً وينقسم الحجاز من حيث الإدارة إلى إمارات يتولاها أشخاص يدعون بالأمراء وهذه أسماء الإمارات من الشمال إلى الجنوب .

١ — إمارة قريات الملح .

٢ — « الجوف أو وادي السرحان الأدنى .

٣ — « تبولة .

٤ — « العلا .

٥ — « ضبا على ساحل البحر الأحمر .

٦ — « الوجه على ساحل البحر الأحمر .

٧ — « املج بين الوجه وينبع .

٨ — « ينبع .

٩ — « المدينة المنورة وهي من أوسع الإمارات .

١٠ — « رابغ ذات المرفأ الطبيعي الجميل .

١١ — « القضيمة الواقعة بين رابغ وجدة .

١٢ — « جدة مرفأ الحجاز الأكبر .

١٣ — « مكة المكرمة وهي عاصمة الحجاز .

١٤ — « الطائف .

١٥ — « غامد وزهران .

١٦ — « بني شهر .

١٧ — « القنفدة وهي ثغر عسير السراة ومركز مهم للتجارة .

١٨ — « الليث على شاطئ البحر الأحمر .

وضعها الأخير :

كانت هذه المملكة عبارة عن مجموعة حكومات وإمارات عديدة اندمج بعضها فى بعض وقد اكتسبت وضعها الجغرافى الأخير عام ١٩٢٦ م بعد استخلاص جلالة الملك عبد العزيز آل سعود للحجاز من أيدى الأشراف سنة ١٣٤٤ هـ وأطلق عليها يوم ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ اسم المملكة العربية السعودية .

سكانها :

لا يوجد إحصاء رسمى لعدد السكان فى المملكة ولكن يقدر عددهم بما بين خمسة ملايين وستة ملايين نسمة على وجه التقريب غالبهم من الأصل العربى الصريح ، ويوجد فى بعض الأنحاء خليط من العناصر الأخرى كالجاوا والصين والتركستان فى مدن الحجاز والصقالبة والترك والأفغان والأحباش والزنوج والأرقاء .

ويوجد فى نجد بعض الشيعة ينزلون مقاطعة الإحساء ، ويتمذهب النجديون بمذهب الإمام أحمد بن حنبل وأهل الحجاز وعسير بمذهب الإمام الشافعى .

مساحتها :

يقدر مساحتها بأربعمائة وخمسين ألف ٤٥٠,٠٠٠ ميل مربع تقريباً ، ويبلغ طول ساحل المملكة من العقبة إلى ميدى ١,١٠٠ تقريباً ويبلغ طول الساحل من رأس معشاب إلى قطر ٣٥٠ ميلا كما أن خط الحدود من العقبة إلى رأس مشعاب يبلغ ٧٥ ميلا ومن ميدى إلى الخليج الفارسى ٨٠٠ ميل .

مناطقها :

تنقسم المملكة من الوجهة الطبيعية إلى مناطق جغرافية لكل منها صفات تميزها عن الأخرى مع اشتراكها معاً فى خواص أخرى عمومية شاملة لكل المملكة .

١ ــ المنطقة الساحلية الغربية وتمتد من أقصى الجنوب إلى منتهى خليج العقبه فى الشمال وتسمى تهامة وقد تضاف إلى القسم الذى تحاذيه فيقال تهامة

اليمن تهامة عسير تهامة الحجاز وتضيق هذه المنطقة وتتسع وأقصى اتساع لها ٤٠ ميلا وأكثر هذه المنطقة رملى شديد الحرارة قليل الإنبات وتقع فى هذه المنطقة جميع المدن الساحلية .

٢ — منطقة الهضاب والنجود وهى موازية للمنطقة الساحلية ومتصلة بها مباشرة ويبلغ معظم ارتفاع هذه الهضاب ٦٥٠ مترا وتقع مكة المكرمة فى هذه المنطقة .

٣ — المنطقة الجبلية المرتفعة وتمتد من شمال مدين إلى حدود اليمن ويتراوح ارتفاعها من خمسة آلاف قدم إلى ثمانية آلاف ومناخ هذه المنطقة فى شرقيها معتدل لطيف وتكثر فيها الأشجار وتقع تيماء وخيبر والطائف وغامد وزهران وبنى شهرو أبها فى هذه المنطقة .

٤ — المنطقة المترامية الأطراف وتمتد من سفوح المنطقة الجبلية الحجازية إلى الدهناء التى تفصل بينها وبين ساحل الخليج الفارسى ويبلغ عرضها مايقرب من خمسمائة ميل (٥٠٠) وفى هذه المنطقة يقع جبل شمر ونجد أو العارض والنفود والربع الخالى .

٥ — منطقة الدهناء وهى عبارة عن سلاسل رملية وآكام وكثبان متقطعة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر (١٢٠) إلى ١٥٠٠ قدم والدهناء بمجموعها تفصل بين مرتفعات العارض والقصيم والسدير وبين سواحل الحساء والكويت .

٦ — منطقة الصمان وتقع بين الدهناء غربا والمنطقة الساحلية السهلية شرقاً ويختلف عرضها من ٥٠ إلى ٩٠ ميلا ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٥٠ قدما ويغلب على هذه المنطقة الجفاف .

٧ — المنطقة الساحلية الشرقية ويبلغ عرضها ٥٠ ميلا وهى أرض رملية قليلة الإنبات تشبه فى تكوينها أرض التهائم فى الساحل الغربى وتقع فى هذه المنطقة الحسا والقطيف .

قبائلها :

فى المملكة قبائل متعددة ذات عصبية يتعادل بعضها فى الكفاءة والمجد والنسب وترجع بأنسابها إلى أصول عربية معروفة وهناك قبائل ذات عصبية أيضا ولكنها لا تستطيع رد أصولها إلى أرومات عربية معروفة مثل الظفير والشرارات والعوازم والرشائدة وتوجد قبائل لا يعترف لها العرب بالأصل فلا يصاهرونها ويسمونها صلبه مثل الصلبه وهتيم وهذه أسماء طائفة من القبائل المشهورة فى أنحاء المملكة .

بارق ، بقوم ، تميم ، ثقيف ، ثمالة ، جحادلة ، جعافره ، جعده ، جهينة ، حارث ، حرث ، حرب ، خالد ، خثعم ، خزاعة دواسر ، ذبيان ، ربيعه ، زهران ، شمر ، يشهر ، عبس ، عتيبه ، عجمان ، عسير ، عمرو ، عنزه ، غامد ، قحطان ، قريش ، مالك ، مره ، مطير ، مناصير ، نجران ، هلال ، هذيل ، يعلى . يام .

التاريخ الاسلامى

١٧ – المملكة

نجد والحجـــاز

تمهيد :

سبق القول فى التاريخ الجاهلى لهذا الجزء المهم من بلاد العرب كما ألمعنا فى فصول سابقة إلى الحوادث التاريخية الهامة فى حياة النبى عليه السلام وأيام حكم الخلفاء الراشدين وفى ما يلى معالم تاريخ المملكة مبتدئاً بالحكم الأموى فى هذه البلاد إلى العصر الحاضر (١).

معاوية :

فى سنة ٤١ هـ استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان الأموى أول خلفـاء بنى أمية ففى هذا العام المسمى بعام الجماعة سلم الحسن بن على وأعلن تنازله عن الخلافة وأصبح معاوية الخليفة الشرعى للبلاد العربيـة واتخذ من دمشق عاصمة للخلافة ووجه الجيوش لاحتلال المقاطعات الإسلامية ومنها سرية قدمت إلى جهات تيماء لاحتلالها وسرية أخرى بقيادة بسر بن أرطاه إلى المدينة فاحتلتها وتوجهت منها إلى مكة فاحتلتها أيضاً وبذلك أصبحت البلاد مقاطعة تابعة للخلافة بعد أن كانت مركزاً تتبعه المقاطعات .

وقد كان يتولى إدارة البلاد أثناء الحكم الأموى عمال من قبل الخلفاء فى دمشق وقد تجتمع لعامل واحد إمارة مكة والمدينة وقد يكون لكل منهما أمير وفى بعض الأحيان تـكون الجهات الأخرى فى المملـكة تابعة للحجاز وقد يكون القسم الشرقى منها تابعاً للعراق .

---

(١) اعتمد فى هذا الفصل على كتاب : قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

وفى أيام معاوية تولى إمارة المدينة ثلاثة وهم سعيد بن العاص . ومروان ابن الحكم . والوليد بن عتبة بن أبى سفيان وولى مكة فى أيامه عتبة بن أبى سفيان ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابنه عمرو بن سعيد وخالد بن العاص وعبد الله بن خالد بن أسيد .

وقد قدم معاوية أثناء حكمه إلى الحجاز مرتين إحداهما عند ما أخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد وقد بايعه أهل المدينة إلا الحسن بن على وابن الزبير وعبد الله بن عمر فقد انصرفوا إلى مكة ولحقهم معاوية إليها حيث اضطروا إلى البيعة أما المرة الثانية فقد كانت سنة ٥٠ ﻫ وفيها حج بالناس .

الخليفة الأموى الثانى

بعد وفاة الخليفة الأول تولى ابنه يزيد سنة ٦٠ ﻫ ٦٨٠ م وقد كتب عقب توليته إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أن يأخذ بيعة أهل الحجاز ففر الحسين بن على وابن الزبير إلى مكة دون أن يبايعا . ويقال إن ابن الزبير كان يشجع الحسين على الخروج من مكة إلى أنصار أبيـه فى العراق لأنه يرى أن أهل الحجاز لا يبايعونه مع وجود الحسين بن على .

وقد أشار أصـدقاء الحسين عليه بعدم الذهاب إلى العراق فلم يحفل برأيهم وسار إلى العراق فكان ما هو معروف من استشهاده فى كربلاء فى عشر محرم سنة ٦١ ﻫ .

وفى عام اثنين وستين ٦٢ ﻫ خلع أهل المدينة بيعة يزيد وحاصروا بنى أمية فى دار مروان بن الحكم وقد أنفذ يزيد القائد مسلم بن عقبه المرى لقتالهم فوقعت بينه وبين أهل المدينة الوقعة المعروفة بوقعة الحرة قرب المدينة حيث قتل عدداً كبيراً منهم وأباح المدينة للجيش ثلاثة أيام وقد أتى الجند أثناء احتلاله للمدينة ما يخجل التاريخ من ذكره .

وبعد اخضاع المدينة توجه القائد المرى إلى مكة لحرب ابن الزبير فمات قبل أن يبلغها وخلفه فى قيادة الجيش الحصين بن نمير الذى واصل زحفه حتى وصل مكة فى أواخر محرم سنة ٦٤ ﻫ .

وأعد ابن الزبير عدته للمقاومة وخرج لصد الجيش الهاجم فانهزم ولاذ بمكة حيث حاصره الحصين فيها ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس وقد احترقت الكعبة بفعل الرمى ولم يرفع الحصار عن مكة إلا بعد وفاة يزيد فى منتصف ربيع الأول سنة ٦٤ هـ .

معاوية الثانى ومروان

آلت الخلافة بعد يزيد إلى ابنه معاوية ولم تدم خلافته أكثر من بضعة أشهر توفى بعدها حيث خلفه فى الحكم . مروان بن الحكم وكان هذا بعيداً عن سياسة العنف والشدة وأخذ الأمور بالحزم الأمر الذى مكن لابن الزبير بالحجاز وبعض العراق ومصر وقد استفحل أمره حتى كاد ينضوى تحت لوائه أكثر البلدان الإسلامية فى ذلك العصر ولم يدم ملك مروان طويلا فقد توفى سنة ٦٥ هـ وقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك .

عبد الملك بن مروان

وقد عرف الخليفة الخامس عبد الملك بإصابة الرأى وحزمه فى الأمور ورغم مواجهته لمشكلات متعددة أهمها مشكلة ابن الزبير فقد استطاع بعد ثمانية أعوام أن يتغلب على ابن الزبير ويعيد الوحدة إلى البلاد الإسلامية .

وقد كان مصعب بن الزبير يلى أمر المدينة من قبل أخيه عبد الله ثم أرسله إلى العراق ، فتمكن من استخلاصه من أعداء أخيه وضمه إلى مملكته .

وفى عام ٧٢ هـ وبعد أن انتهى عبد الملك من أمر العراق وجه إليه قوة عظيمة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى فوصل الحجاج مكة فى جمادى الأولى سنة ٧٢ هـ وشدد الحصار على أهل مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق كما فعل الحصين سابقاً ولما يئس ابن الزبير من النجاح خرج للقتال فأبلى بلاء حسناً انتهى بقتله وصلبه سنة ٧٣ هـ وله من العمر ٧٣ سنة وبقتله عاد حكم البلاد العربية إلى يد الأمويين .

ومن الحوادث الجديرة بالذكر فى خلافة بن الزبير بناؤه للكعبة على أثر

التصدع الذى حدث من رمى المنجنيق سنة ٦٤ هـ وأدخل فيها حجر اسماعيل وفتح لها باباً آخر من جهة الغرب ولكن الحجاج أعاد بناءها فى خلافة عبد الملك على الشكل الذى كانت عليه قبل بناء ابن الزبير .

الادارة بعد عبد الملك

عادت إدارة البلاد إلى ما كانت عليه تابعة لحكم الخلفاء فى دمشق بعد أن قضى على سلطان ابن الزبير ، يعين الخلفاء أمراء من قبلهم لإدارتها ثم يعزلونه حين ما يبدو لهم ذلك وتاريخ نجد فى هذا الدور غامض لا توجد معلومات كافية يمكن الاعتماد عليها غير أن إدارة نجد كانت تتبع فى الغالب العراق أو البحرين وإدارة عسير كانت تابعة للحجاز أو اليمن .

وقد كان بعض الخلفاء يزور الحجاز فى خلافته كما حصل للوليد ابن عبد الملك ولعمر بن عبد العزيز فى حين أن بعض الخلفاء كان لا يعلم عن موطن آبائه وأجداده إلا ما يسمعه عن أمرائه أو مهذبيه وقد كان عمر ابن عبد العزيز والياً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك وجمع له إمارة مكة أيضاً سنة ٨٧ هـ فسار عمر فى الناس أحسن سيره واتخذ أشهر فقهاء المدينة بطانة له يستشيرهم ويسترشد بآرائهم .

ويعد عصر الوليد بن عبد الملك من أبهى الأدوار التاريخية فى الحجاز فقد أمر عمر بن عبد العزيز أمير المدينة ببناء المسجد النبوى سنة ٨٨ هـ وتوسيعه وأمر بأن تدخل فى المسجد بيوت أزواج النبي عليه السلام ماعدا مقصورة السيدة عائشة التى فيها القبور الثلاثة .

ومن اصلاحاته أمره ببناء الفواره التى يشرب منها أهل المدينة وتسهيل السبل ما بين الحرمين وتمهيد الثنايا الواقعة فيها . ولم يحدث فى أيام سليمان ابن عبد الملك وعمر ما يستحق الذكر فقد كانت الحجاز فى يسر ورخاء . وكانت نجد والبحرين بعيدة عن الفتن والقلاقل يتعاقب الأمراء على إدارتها دون أن يحصل فى أيامهم ما هو جدير بالتنويه .

وفى أواخر دولة بنى أمية فى عهد الخليفة مروان بن محمد حصلت ثورة عبد الله بن يحيى الكندى الحضرمى فى ١٢٩ ﻫ فقد استقل هذا الثائر بالأمر فى حضرموت وطرد عامل بنى أمية من اليمن وزحف على الحجاز حيث أنفذ أحد قواده المختار بن عوف الأزدى فاحتل مكة والمدينة ثم دحر الجيش الحضرمى بعد أن وصلت قوات مروان الحمار من الشام .

العهد العباسى

لا توجد لدينا المعلومات الكافية عن تاريخ هذه البلاد أثناء الحكم العباسى وما وصل إلينا منه قليل جداً لا يشفى غليلا ومما لا ريب فيه أن خلفاء بنى العباس لم يهتموا بهذه البلاد إلا بالمقدار الذى يحفظ لهم السيطرة على الحجاز ويمكنهم من الحيلولة دون تدخل أعدائهم فى البلاد المقدسة وليس لهم أى عذر فى هذا الإهمال . وإن علله بعض المؤرخين بكثرة مشاغلهم واتساع رقعة ممالكهم وكثرة المناوئين لهم وربما كان ذلك الإهمال مقصوداً عندما سيطر الفرس على شئون الدولة العباسية واستبدوا بالخلفاء واستأثروا بالأمر دونهم .

وإذا كان للعباسيين من مآثر فى هذه البلاد فإنها محصورة فى الحرمين الشريفين والأماكن الموصلة إليهما أما بقية المناطق فقد أهملت وتركت على حالتها البدوية فعادت القبائل إلى السلب والنهب والفتن والحروب .

ومن الحوادث التى تذكر للعباسيين ما أمر به أبو العباس السفاح من إنشاء بعض القلاع والخانات على طريق الحج الممتدة من الكوفة ووضع الأعلام التى يستدل بها الحاج على طول الطريق فى أبعاد معينة وأمر أبو جعفر المنصور بالزيادة فى الحرم المكى سنة ١٣٩ وكان الخلفاء يحسنون معاملة أهل الحرمين ويمدونهم بالأعطية والصدقات ، ويقال بأن المهدى أخذ خمسمائة نفر من أبناء الأنصار وأقطعهم الأملاك الواسعة فى العراق وجدد بناء الأعلام والخانات على درب الحج ووسع فى بناء المسجد الحرام فى مكة وأدخل فيه دوراً عديدة من جهة المسعى .

وعندما حجت الخيزران زوجة المهدى ابتاعت أماكن عديدة فى مكة وأنشأت فيها مساجد منها مولد الرسول فى سوق الليل ودار الأرقم فى الصفا ومدت زبيدة زوجة الرشيد المياه إلى مكة وعرفة من وادى حنين ووادى نعمان .

أهم الحوادث فى العهد العباسى

١ — فى أيام المنصور ثار محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية واستولى على المدينة ، وقد كاتبه المنصور ووعده بالعفو عنه إن هو عدل عن ثورته وأخلد إلى السكينة ، ولكن النفس الزكية أغلظ فى الجواب وأعد عدته للكفاح فأرسل المنصور عيسى بن أخيه لحربه فى المدينة .

٢ — وفى نفس السنة ثار السودان فى المدينة وآذوا الأمير ، وانتهى الأمر بقتل رؤسائهم .

٣ — حج المنصور سنة ١٤٧ ﻫ ثم عزم على الحج سنة ١٥٨ ﻫ فتوفى فى طريقه قبل دخوله مكة فى بئر ميمونة ودفن فى مكة .

٤ — فى أيام الهادى ثار الحسن بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المدينة وتغلب على مكة أيضاً فقتل يوم التروية سنة ١٦٩ ﻫ بعد معركة مع الجيش العباسى بالقرب من فخ .

٥ — فى خلافة المأمون ثار أتباع ابن السرايا سنة ١٩٩ ﻫ واستولوا على شؤون مكة والمدينة ، وأتلفوا وحرقوا ونهبوا ستائر الكعبة وما فى المسجد من ذهب وما فى الخزائن من ودائع .

٦ — فى أيام الواثق أسرف قبائل بنى سليم وأشجع وهلال فى النهب والسلب والاعتداء على الآمنين فى المدينة وأطرافها ، فوجه الواثق لقتالهم القائد بغا سنة ٢٢٠ فحاربهم وقضى على فتنتهم .

٧ — فى سنة ٢٣٢ سار القائد بغا بأمر الواثق إلى اليمامة لقتال بنى نمير وباهلة ، فأوقع بهم وأخذ منهم عدداً كبيراً من الأسرى .

٨ — فى خلافة المستعين بالله ثار أحد العلويين فى مكة سنة ٢٥٠ وثار

لثورته بعض العلويين فى المدينة ، وقد نهب ما فى خزائن الكعبة من الأموال ، وانتهى أمره بالقضاء عليه .

٩ — فى سنة ٢٧٩ هـ ثار أحد أدعياء العلويين بالمدينة فى خلافة المعتمد ، ونهب مافى المسجد الحرام ومنع الناس من الخروج فظلوا محصورين لايجسرون على الخروج مدة أربعة أسابيع .

القرامطة

القرامطة فرقة من الشيعة ينتسبون إلى شخص يمانى الأصل يدعى حمدان قرمط ، وكان مغالياً فى التشيع لأهل البيت ، وكانت دعوته دينية محضة انقلبت فيما بعد إلى دعوة سياسية بتأثير أبى سعيد الجنابى .

وقد تغلب أبو سعيد هذا فى أواخر المائة الثالثة للهجرة على شرقى الجزيرة واستولى على البحرين ، وهجر وخلع طاعة المعتمد العباسى ، وقد قام بالأمر بعد موته ابنه أبو طاهر فهاجم الحرمين من مقره بالقطيف ودخل مكة سنة ٣١٧ هـ ونهبها وانتزع الحجر الأسود ونقله إلى واحة القطيف ووضعه فى مسجد الضرار لكى يصرف الناس إليه عن مكة ، وقد ظل حكم أبى طاهر للحرمين مدة تزيد عن عشرين سنة كان الحجر الأسود خلالها فى هجر ، وكان القرمطى على صلة بالفاطميين فى أفريقيا الشمالية وينتسب إليهم ، فلما أمره الفاطمى بإعادة الحجر إلى البيت نقم القرمطى على الفاطمى وقطع صلته به ، ثم أعيد الحجر إلى مكة سنة ٣٣٩ هـ .

وبعد وفاة أبى طاهر تلاشت القوة السياسية للقرامطة وانحصرت سلطته فى الحسا والبحرين ما يقرب من مائة سنة ثم تلاشت نهائياً ، وتوجد الآن بقايا من القرامطة فى واحة القطيف .

ملوك الطوائف

عاد حكم مكة إلى العباسيين فى بغداد بعد أن زالت سيطرة القرامطة إلا أن سيطرتهم على الحرمين كانت ضئيلة ، نظراً لضعف الخلفاء واشتغالهم بدفع

المؤامرات فى بلاطهم ، وقد حاول الفاطميون السيطرة على الحرمين ، إلا أن أهل الحرمين فضلوا الحكم العباسى وامتنعوا عن قبول الحكم الفاطمى لما عرف من صلة الفاطميين بالقرامطة .

وفى سنة ٣٥٦ ﻫ ثار محمد بن جعفر الحسنى على سلطة أبناء عمومته الحسينيين فى المدينة ورحل عنها إلى مكة واستولى عليها ، وعندما فتح المعز الفاطمى مصر دعا له على المنبر فى الحرم المكى ، وبهذا الأمير تبتدىء سلطة الأشراف فى مكة التى يأتى الحديث عنها .

ومن أيام الفاطميين إلى حين فتح السلطان سليم العثمانى لمصر ظل الحجاز تحت حكم أمراء من الأشراف يتبعون خلفاء بغداد تارة ، وملوك الطوائف فى مصر تارة أخرى ، يتبعون الملك الذى يكثر لهم العطاء ويجزل لهم المنافع .

والسلطان نور الدين زنكى من أعظم ملوك الطوائف نفوذاً وأكثرهم إصلاحاً فى الحرمين ، فقد حصن المدينة ، وأمن السبل وحقق العدالة والمساواة وأنشأ فى أطراف البلاد قلاعاً وحصوناً لحمايتها من هجمات المغيرين .

وقد كان للأيوبيين نفوذ عظيم أيضاً ، فقد منعوا الأشراف ورؤساء القبائل وأمراءهم من الاعتداء على الحجاج وظلمهم ، وإذا كان الشريف الحسنى فى مكة والأمير الحسينى فى المدينة خاضعين لحكم الملك المصرى إلا أن تصرفاتهما فى الحجاز كانت على الشكل الذى يروق لهما .

وقد ترك المماليك آثار عمران عديدة فى الحرمين ، من بينها ما خلفه الملك الظاهر والسلطان قايتباى والغورى من المدارس والتكايا ودور الإحسان وبعض هذه الآثار لا يزال باقياً حتى الآن .

الحكم العثمانى :

خضعت هذه البلاد للخليفة الأول من آل عثمان السلطان سليم العثمانى فاتح مصر سنة ٩٢٢ ﻫ وظلت خاضعة للحكم العثمانى مدة أربعمائة سنة وكانت سلطة

العثمانيين خلالها فى صعود وهبوط إلى أن أزيلت تماماً سنة ١٩١٧ م فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

وقد قامت فى هذه البلاد إمارات محلية ، لكنها كانت تستمد قوتها من مقر السلطة العثمانية بالآستانة ، وكان نفوذ العثمانيين فى الحجاز أقوى منه فى أى قسم آخر ، ووجدت بعض مقاطعات اكتفى العثمانيون فيها بالسيطرة الاسمية ولم تطأها أقدام موظفيهم وجيوشهم ، وخرجت بعض المقاطعات من أيديهم بالكلية كما حصل فى الحجاز أيام حكومة آل سعود الأولى وأيام حكومة محمد على باشا .

ولكن العثمانيين استعادوا سلطتهم ونفوذهم فى أواسط القرن التاسع عشر بشكل أوضح ونشروا سيطرتهم الفعلية فى الحجاز والحسا وأداروا البلاد بشكل فعلى مباشر ، قضى على نفوذ الأمراء والحكام ، واستولى مدحت باشا على ساحل الحسا وبعض نجد سنة ١٨٧١ م أثناء ولايته للعراق ، وفى أوائل القرن العشرين استولت قواتهم على القصيم فى أواسط نجد ، ثم تقلصت سلطتهم بالتدريج إلى أن زالت تماماً عن جميع البلاد العربية فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ م إلى ١٩١٨ م .

سلاطين آل عثمان :

يبتدىء حكم العثمانيين فى هذه البلاد باستلام السلطان سليم الأول مفاتيح الحرمين من الشريف بركات وإقراره إياه فى الحكم أواخر عام ٩٢٢هـ — ١٥١٧م وقد خلفه ابنه السلطان سليمان القانونى سنة ٩٢٦ هـ ، وفى أيامه حاصر البرتغاليون جده فردهم عنها الشريف بو نمى .

وللسلطان سليمان مآثر كثيرة فى الحجاز كعمارة المسجد الحرام وبناء أسوار جده وإصلاح سقف الكعبة والشروع فى جلب مياه عين زبيدة من منى إلى مكة ، وقد سار خلفه ابنه السلطان سليم الثانى الذى تولى الحكم سنة ٩٧٤ هـ على خطة أبيه فى الإصلاح ، فأكمل القسم الأعظم من بناء المسجد الحرام وأتمه بعد وفاته ابنه السلطان مراد الثالث .

وكان حكم آل عثمان فى مدة حكم السلطان أحمد الأول من ألف واثنى عشر ١٠١٢ هـ — ١٠٢٦ هـ شاملا لكافة الحجاز حتى رأس على جنوبى القنفدة ، أما نجد وسائر الجهات الأخرى فلم يكن لهم فيها نفوذ فعلى .

وأعيد بناء الكعبة على الشكل الذى هى عليه فى عصرنا الحاضر فى زمن السلطان مراد الرابع فاتح بغداد ١٠٣٢ — ١٠٤٩ هـ ، وقد اشتغل آل عثمان بعد مراد هذا بالفتن الداخلية والحروب الخارجية وتركوا أمر البلاد إلى الحكام المحليين إلى أن حصل الانقلاب الفكرى والدينى العظيمين فى البلاد العربية بظهور الحركة الإصلاحية فى نجد وانتشارها إلى الحجاز وسائر الأقطار العربية وذلك فى عهد السلطان محمود من ١٢٢٣ — ١٢٥٥ هـ واستولى سعود الكبير على البلاد التى تتألف منها رقعة المملكة الحالية ، ولم يخرج منها إلا على يد محمد على باشا الذى يحسب استيلاؤه على هذه البلاد فترة تخللت الحكم العثمانى وقضت عليه ، ودامت الحال كذلك إلى أن استعادت الدولة العثمانية البلاد من محمد على وأعادتها إلى سلطانها حوالى ١٢٥٥ هـ — ١٨٤٠ م .

الحكم المصرى :

قامت فى مصر حكومة مصرية عربية تحت رئاسة محمد على باشا ، وقامت فى نجد حكومة عربية يرأسها آل سعود ، وكانتا ترميان إلى القضاء على سيطرة الدولة العثمانية التى بدأت تضعف وتتضعضع ، وإلى بعث الفكرة العربية ، فارتاعت الدولة من ذلك وأرادت أن تصيب هدفين بحجر واحد ، فرمت نجداً بمحمد على باشا فجر عليها الجيوش والحملات تحت قيادة نجليه طوسون وإبراهيم ثم تحت قيادته ، فتمكن من الاستيلاء على الحرمين وعلى البلاد النجدية وبلاد عسير وأخضعها لحكمه المباشر مدة تقرب من ربع قرن إلى أن أخرج منها سنة ١٨٤٠ م وظلت مقاطعتا الوجه والعقبة تحت إدارة والى مصر إلى أواخر أيام إسماعيل باشا ، فاسترجعتهما منه الحكومة العثمانية ، وكان من نتائج الحكم المصرى ازدياد العلاقات بين مصر والحجاز .

فقد أبدلت السلالة الشريفية الحاكمة ، بسلالة أخرى من العبادلة هى عائلة ذوى عون وأنشأت كثيراً من الآثار العامة مثل دار الحكم بمكة والتكية المصرية التى أنشأها محمد على باشا على أنقاض دار السعادة مقر الأشراف حكام مكة وكان من جراء ذلك أيضاً بعث روح جديدة فى البلاد وفتحها للإفرنج وتقريبها إلى علمائهم والسير فى الحكومة على نهج الحكومات الحديثة .

عودة الأتراك :

بعد انحلال قوة محمد عن العسكرية فى سوريا حوالى سنة ١٢٥٥ — ١٢٦٥ ﻫ ١٨٤٠ — ١٨٥٠ م شرع الأتراك فى استعادة ما فقدوه من الحرب المصرية فاستولوا على الحجاز ثم قضوا على سلطة أمير أبى عريش فتم لهم الاستيلاء على عسير واليمن خلال عشر سنوات .

أما فى الحجاز فقد نقل الحكم إلى الشريف محمد بن عون فاستمال القبائل إليه ووسع حدوده إلى الشرق حتى بلغ القصيم وفرض على آل سعود نوعاً من الجزية وشجع قيام إمارة آل رشيد فى حائل تأمينا لبقاء نفوذ فى نجد .

ثم نزعت السلطة من يده إلى الوالى العثمانى وجعل مكانه الشريف عبد المطلب من الأشراف ذوى زيد منافسى ذوى عون وفى زمن السلطان عبد المجيد لم تتعد قوات الدولة حدود الحجاز الشرقية وحصلت فى الحجاز عدة فتن ضد الدولة كان من نتيجتها عزل الشريف عبد المطلب وإعادة محمد بن عون واكتفى الأتراك من آل سعود وآل الرشيد بالانتساب إليها وإظهار التعلق بها اسماً .

وفى أيام السلطان عبد العزيز تغلب الأتراك على جميع البلاد العربية فاستولى القائد مختار باشا على صنعاء سنة ١٨٧٢ م واستولى مدحت باشا على الحسا عام ١٨٧١ م وانحصرت سلطة الشريف فى البدو وبعض الوظائف الإدارية .

وعن أهم أعمال السلطان عبد المجيد فى الحجاز إعادة الإصلاح فى الحرم المدنى وإنشاء العيون والمدارس فى مكة والمدينة .

سياسة عبد الحميد :

كانت سياسة عبد الحميد الذى أخذ دوره فى السلطنة من ١٢٩٣ — ١٣٢٦ هـ ١٨٧٧ — ١٩٠٩ م ترمى إلى جمع شمل المسلمين تحت لواء الخلافة إنقاذا لسيطرة الأتراك السائرة فى طريقها إلى الانهيار ومقاومة للاستعمار الأوربى الذى شرع فى مد نفوذه على البلدان المحاذية للبلاد العربية فلجأ عبد الحميد إلى استمالة العرب من جهة وتوطيد قدمه فى بلادهم من جهة أخرى لأن العرب هم العنصر الرئيسى فى الإسلام وبلادهم مهد الإسلام وموطن آثاره المقدسة فأرسل الجيش تلو الجيش والحملة إثر الحملة لدفنها فى مجاهل البلاد العربية وفيافيها .

فأرسل عدة حملات على اليمن وجرد عدة قوات لمحاربة ابن سعود مساعدة لابن رشيد وأرسل القائد فيضى باشا لنفس الغرض ولم يحصل فى الحجاز فى أيامه ثورات أو فتن تستحق الذكر ما خلا اعتداء العربان على قوافل الحجاج وسلبها .

ولم تعمر سياسة عبد الحميد هذه فقد قامت عقب إعلان الدستور العثمانى حركات فى اليمن وبلاد الأدارسة ونجد ترمى إلى التخلص من حكم العثمانيين وإنشاء حكومات عربية لا علاقة لها بالدولة .

أما فى عسير فكان الإدريسى وابن عائض يهيآن نفسيهما للقيام على الدولة غير أن عملهما جاء بعد خلع عبد الحميد وكان الشريف عون الرفيق فى الحجاز آلة مسخرة فى أيدى ولاة عبد الحميد ليس له من الحول والطول شىء .

ولعبد الحميد مآثر خالدة فى الحجاز منها إنشاء سكة حديد الحجاز الممتدة فى خط يزيد عن ألف وثلاثمائة كيلو متر ١٣٠٠ من دمشق إلى المدينه وقلما خلت مدينة كبيرة من آثار عبد الحميد فتجد فى أكثرها عمارات تسمى بالحميدية وفى مكة قلاع وثكنات ومستشفيات ودور حكومة بنيت فى أيامه .

أهم الأحداث بعد عبد الحميد :

بعد خلع عبد الحميد وإعلان الدستور العثمانى حصلت فى هذه البلاد أحداث جسام انتهت بزوال الحكم العثمانى عن البلاد العربية وتبتدىء هذه الفترة من ١٣٢٦ — ١٣٣٦ هـ ١٩٠٨ — ١٩١٨ م .

١ — حركات الإدريسى فى تهامة وعسير ومخلاف اليمن وحرب الإمام يحى ضد الدولة .

٢ — تعيين الشريف حسين بن على فى إمارة مكة عوضا عن الشريف على باشا وقد عرض الشريف حسين خدماته على الدولة التى عهدت إليه بقيادة حملة لقتال الإدريسى وفك الحصار عن مدينة أبهاء .

٣ — حركات وحروب بين الشريف حسين وابن سعود وقد وصلت قوات الشريف إلى قرب القصيم .

٤ — استيلاء الملك عبد العزيز بن سعود على الحسا وسواحل الخليج الفارسى العثمانية سنة ١٩١٣ م .

٥ — إعلان الحرب العالمية الأولى وتحالف الشريف حسين مع الحلفاء ورفعه علم الثورة العربية ووقوفه فى جانب الانكليز والفرنسيين ضد الأتراك والألمان طمعا فى تحقيق الأمانى القومية وإنشاء الدولة العربية التى يحلم بها .

٦ — ظل ابن رشيد على ولائه للدولة ووقف ابن سعود موقف المتفرج فى الظاهر وحالف الانكليز ضد ابن الرشيد طيلة الحرب وكذلك فعل الإدريسى .

٧ — انتهت الحرب العالمية بالقضاء على سيطرة آل عثمان نهائيا عن بلاد العرب وبقيام حكومات عربية مستقلة فى أنحاء هذه البلاد وهى : (١) المملكة الحجازية (٢) السلطنة النجدية (٣) الإمارة الرشيدية (٤) الإمارة الإدريسية (٥) إمارة آل عائض .

الأشراف :

فى أوائل القرن الرابع الهجرى تولى إمارة مكة أبو محمد جعفر الموسوى المنحدر من نسل الحسن بن على ويعتبر هذا مؤسس العائلة الشريفية الأولى وقد هجم على مكة واستولى عليها بعد ضعف أمر الإخشيديين فى مصر بوفاة كافور .

ويكاد يكون تاريخ الحرمين خلال الألف سنة الماضية عبارة عن تاريخ الأشراف وارتقائهم أو تداعيهم وهبوطهم فقد يكون الشريف كل شيء فى الحجاز وقد يكون ألعوبة فى أيدى الملوك والسلاطين والخلفاء .

وقد كان الأشراف على صلة بالفاطميين حتى اختلف أبو الفتوح الخليفة الثانى لمؤسس العائلة معهم حيث أرسل الحاكم بأمر الله سجلا أمره بقراءته فى المسجد الحرام بسب الصحابة وبعض أزواج النبى والانتقاص من كرامة غير الفاطميين فعصى أبو الفتوح الأمر وقطع صلته بمصر ودعا إلى نفسه ثم تحول هو ومن خلفه إلى الخلفاء العباسيين فى بغداد وخطبوا لهم فى مكة .

واشتبك أبو الفتوح فى حروب مع الفاتكى أحد الأشراف الحسينيين أيضاً وفر هارباً عن مكة حيث قام بالأمر فيها الأمير الفاتكى إلى أن استعاد الموسويون السلطة ثانية وقد انقرضت هذه العائلة بوفاة أميرها عن بنت له فقط فولى الأمر عبد من عبيده إلا أن الفاتكين تغلبوا عليه وانتزعوا الإمارة منه .

وهناك عائلة ثالثة تدعى بالهواشم من الأشراف الحسنيين تداولوا حكم مكة وقتا طويلا مليئا بالفتن والحروب إلى أن أزيلت دولة العبيديين من مصر على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٩٨هـ ١١٧٤م فزالت باستيلاء صلاح الدين على الحجاز سيطرة الهواشم عن مكة وولىها أمير حسنى من فرع آخر .

فى سنة ٥٩٨ هـ استولى الشريف قتادة على مكة وكان يسكن هو وقومه فى جهات ينبع ووادى الصفراء ويقال إنه كان ناقما على أمراء مكة لانهما كهم فى اللذات وإعراضهم عن شئون البلاد كما يقال بأنه استغاث به بعض المظلومين بمكة وقد أخضع قتادة لسلطانه كافة الأراضى الحجازية من خيبر شمالا حتى القنفذة جنوباً وأنشأ إمارة ظلت قائمة بالأمر إلى حين تأسيس الحكومة الحالية .

وكان على وفاق مع الأيوبين فى مصر وسوريا والعباسيين فى العراق ومع أمراء اليمن فمنع بذلك الشقاق والتنافس بين الملوك والأمراء وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وقد دانت له جميع البلاد بعد حروب أثارها ضده إخوته وبنو عمه .

وتوالى الأمراء من خلفاء الشريف قتادة على حكم الحجاز متبعين سياسته فى مصافاة الحكومات القائمة فى مصر وسوريا والعراق رغم التقلبات التى تطرأ عليها وقد يحدث تنازع بين أمراء الحجاز يؤدى إلى خلع هذا أو قتل ذلك وقيام واحد من أبناء عمه أو أقاربه مكانه كما حدث أيام نور الدين على بن عمر ابن رسول من استيلاء أمراء اليمن ونصبهم أميراً عليها من قبل الملك الكامل هو طغتكين التركى ثم عزل هذا وجعل الشريف راجح بن قتادة مكانه .

وفى زمن السلطان بيبرس تولى الأمارة الأمير أبو نمى الأول الذى حارب أعمامه وأبناءهم حتى نالها وهو من الأمراء المشهورين من نسل قتادة وقد كان لهذا الاختلاف بين العائلة أثره فى تدخل مصر وسوريا فى شئون أمراء الحجاز وإخضاع المماليك لهم عندما حادوا عن سياسة الشريف قتادة فى حفظ التوازن وعدم التحيز إلى فريق دون آخر .

والأمير بركات الثانى الذى كان معاصراً للسلطان قايتباى من سلاطين المماليك من الأشراف المشهورين وكذلك الأمير بركات الأول الذى كان عهده مليئاً بالفتن والقلاقل والحروب الداخلية ومن أشهر أمراء مكة قاطبة الشريف أبو نمى الثانى ابن بركات السابق ذكره الذى سافر إلى مصر مرتين مرة لمقابلة السلطان الغورى ومرة لإعلان تسليم الحرمين للسلطان سليم الخليفة العثمانى الأول سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٧ م .

الأشراف وآل عثمان :

استولى السلطان سليم على الحجاز وعهد بالإمارة إلى الشريف بركات وأقره عليها بالاشتراك مع ابنه أبو نمى إلى أن توفى بركات بعد الاستيلاء العثمانى بتسع سنوات ، فاستقل أبو نمى بأمر مكة وظل أميراً مدة تزيد على ستين عاماً وقد كان أبو نمى متمتعاً بعطف السلطان سليمان القانونى وخلفائه وبسلطة واسعة لإدارة الأمور فوضع قواعد عديدة للشرافة والأشراف يدعوها أهل الحجاز بقانون أبى نمى .

ويقال بأن القانون صارم جداً وبعيد عن جادة العدل والإنصاف ويقع

فى ست وثلاثين مادة أهمها جعل الإمارة إرثاً فى أسرة أبى نمى ومنع الأشراف عن الاشتغال ببعض المهن وحقوق الأشراف بالنسبة إلى العامة وجعل حق الشريف مقابل أربعة أمثال حق العامى .

وإذا كان الشريف يتمتع بسلطة مطلقة فى الحجاز فإن سلطته الحقيقية كانت مستمدة من الخليفة العثمانى وعمدته فى التولية على الفرمان السلطانى ويتلخص تاريخ الأشراف من عهد أبى نمى إلى أيام الشريف غالب الذى حصلت حروب آل سعود واستيلاؤهم على الحجاز فى أيامه فى القرن الماضى بأنه تاريخ مطرد ووصف متشابه للفتن والمعارك التى تجرى بين الأشراف وفيما يجرى بين الأشراف والموظفين العثمانيين وفيما يقع فى الحرمين وأطرافهما من غزو البدو واعتدائهم على السابلة وقطعهم الطريق وانتهابهم للحجاج وفيما يقوم به الأشراف من تجريد الحملات عليهم لكبح جماحهم وتأديبهم .

وعندما استولى سعود الكبير على الحجاز أقر الشريف غالباً على إمارة الحجاز ، فظل فيها إلى أن قضى على الحكم السعودى فى البلاد ، حيث أغرت الحكومة العثمانية محمد على باشا بأهل نجد وعهدت إليه بتجهيز الحملة ، فأرسل قوة بقيادة ابنه طوسون نزلت فى ينبع سنة ١٢٣٣ هـ — ١٨١١ م ، ثم أمدها بحملة قادها ابنه إبراهيم باشا فى العام الثانى ، ففتح المدينة ومكة ثم قدم محمد على إلى مكة وعزل الشريف غالباً ونفاه إلى مصر ومنها إلى سلانيك ونصب يحيى ابن سرور عوضاً عنه .

وبعد أن تقرر انسحاب محمد على باشا من البلاد التى احتلها من أملاك الدولة أرسل الأتراك والياً للحجاز سنة ١٢٥٦ هـ — ١٨٤٠ م غير أن السلطة كانت ثنائية بين الشريف محمد بن عون والوالى العثمانى .

وحصل تنافس شديد بين الأمير والوالى أدى إلى تدخل الباب العالى ، فنفى محمد بن عون ونصب الشريف عبد المطلب مكانه سنة ١٢٩٨ هـ — ١٨٥١ م ثم عزل عبد المطلب وأعيد محمد بن عون لحصول فتنة فى البلاد .

وبعد موت محمد بن عون سنة ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م أقرت الحكومة الإمارة فى ابنه عبد الله الذى حصل فى أيامه الاعتداء على قناصل الدول فى جدة

وأرسلت الدول لجنة لتنظيم البلاد وحددت وظائف الإمارة وضيقت عليها جداً وبعد وفاة عبد الله عينت الحكومة أخاه حسيناً ، فقتل فى جدة وأعيد عبد المطلب ثم عزل وعين عون الرفيق بن محمد بن عون سنة ١٢٩٩ ﻫ ، فساء الأمن وانتشرت الفتن وعم القلق وأنَّت الناس من الظلم والجور إلى أن توفى عون سنة ١٣٢٣ ﻫ - ١٩٠٥ م .

بعد وفاة الشريف عون عين الشريف على باشا ثم عزل عقب إعلان الدستور العثمانى ومات الشريف عبد الله الذى عين خلفاً له قبل أن ينصرف من الآستانة إلى مقر الأمارة ، فوقع الاختيار على الشريف حسين بن على بن محمد ابن عون .

الشريف حسين :

هو حسين بن على بن محمد بن عون ولد فى الآستانة سنة ١٢٧٠ ﻫ - ١٨٥٣ م وكان والده وجده فيها خلال أمارة عبد المطلب فى مكة وعين بعده للإمارة بعد ذلك بسنتين ، فقدم معه إلى الحجاز وأقام فى مكة إلى أن بلغ أشده وفى أيام عمه عون الرفيق أبعد إلى الآستانة وعين عضواً فى مجلس شورى الدولة وظل فى الآستانة إلى أن عين بعد وفاة عمه الثالث عبد الإله أميراً لمكة سنة ١٣٢٦ﻫ .

كان الحسين مشهوراً فى الآستانة بالزهد والتقوى والصلاح ، فعلقت عليه الآمال ، لأن الناس فى الحجاز خرجوا من حكم جور واستبداد ضاقوا به ذرعا فتقرب من البادية وظهر أمام أهل الحجاز بمظهر المحب لهم المريد لخيرهم وتحكك بالإنكليز بواسطة أعوانه فى الآستانة وبواسطة اللورد كتشنر فى مصر والمرغنى فى السودان وسعى لجعل مبعوثى العرب فى دار الخلافة يعتقدون فيه السعى لمصلحة العرب وجمع كلمتهم لنيل حقوقهم المغصوبة من الترك .

ثم عمل لبسط سلطانه على سائر الحجاز وتوسيع حدود الإمارة وحرض قبيلة عتيبة على الخروج على ابن سعود بحجة أنهم تابعون للحجاز فوفق فى خطته وتغلغل فى بلاد عتيبة حتى وصل إلى قرب الوشم والقصيم فى نجد وتمكن من أسر سعد بن عبد الرحمن شقيق الملك عبد العزيز سنة ١٣٢٨ ﻫ - ١٩١٠ م ،

ثم رجع الحسين عن نجد وفك أسر أخى الملك بعد توسط خالد بن لؤى بين الشريف والملك عبد العزيز .

وثار الإدريسى على حكم الدولة فى حبيا وأبى عريش ففرض الحسين خدمته على الباب العالى ، فولته الحكومة قيادة الحملة لفك الحصار عن القوة العثمانية فى ابها وتأديب القبائل العاصية ، فسافر من مكة فى ربيع الثانى عام ١٣٢٩ ﻫ وعاد بعد بضعة أشهر بعد أن وطد لنفسه بين البادية فى الحجاز وعسير وعهد إليه بتجريد حملة أخرى على الإدريسى ، فأنفذ على رأسها نجله الثالث فيصل إلى القنفذة ولكنه عاد من غير طائل .

ودخلت الحكومة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ، فاقتضت السياسة البريطانية القيام بتدابير عديدة منها إثارة العرب على دولة الخلافة والعمل لإنشاء خلافة عربية فى البقاع المقدسة تأميناً لسلامة المواصلات البريطانية ومقاومة لجهود الحكومة العثمانية ودعايتها لإعلان جهاد عام فى البلاد الإسلامية المختلفة .

واتفقت هذه الأغراض مع الأمانى الوطنية التى كانت تختمر فى رؤوس المتنورين من شبان العرب فلم يجدوا غضاضة فى التفاهم مع الإنكليز ورجحوا اتخاذ الشريف حسين واسطة لتحقيق أغراضهم لما يعلمون من مطامعه فى الحجاز ونقمته على الدولة ، فشرعوا فى مفاوضته .

دامت المفاوضات بين الجانبين وقتاً طويلا وطلب الشريف تحديد البلاد العربية التى تساعد بريطانيا على استقلالها ، فماطلته بريطانيا فى ذلك ثم اشترطت بعض استثناءات فات الحسين أن يتثبت من مراميها وما يمكن أن تؤول به ، أو ما يمكن أن تعنيه وتم الاتفاق نهائياً على أن يقوم بالثورة على الترك مقابل اعتراف بريطانيا وتعهدها باستقلال العرب بدون تعيين حدود البلاد التى يعضد فيها الاستقلال واستثنت بريطانيا خمسة مناطق :

١ — المنطقة الواقعة غرب الخط من حلب وحماة وحمص ودمشق حتى البحر

٢ — المناطق التى لاتستطيع أن تتصرف فيها مستقلة عن حليفتها فرنسا .

٣ — منطقة عدن .

٤ — ولاية البصرة .
٥ — المناطق العربية التى لا تقدر أن تتصرف بها من تلقاء نفسها .

وقد كان الإنكليز عند ما اتفقوا مع الشريف متفقين مع فرنسا على سوريا ومع الإدريسى على عسير ، ومع آل سعود على نجد والحسا ، ومع أمراء العرب المختلفين على المقاطعات الساحلية والكويت وفسروا وعودهم بأنها لا تشمل إلا الحجاز تقريباً .

وأعلن الشريف ثورته فى تسع شعبان ١٣٣٦ ﻫ والتحق به شبان العرب من أطراف السلطنة العثمانية ، ثم أعلن نفسه ملكا للعرب فمنعه الانكليز من ذلك ، فاكتفى بلقب ملك الحجاز .

وبعد انتهاء الحرب أراد الشريف حسين أن يمد سلطانه على واحتى تربة والخرمة ، وكان أهلهما من سبيع والبقوم وعتيبة منحازين إلى ابن سعود فنشبت فى تربه معركة هائلة بين الإخوان وقوات الشريف ، أسفرت عن فوز الإخوان وخسارة الحجاز أكبر قوة عسكرية ، وكان ذلك مقدمة للمشادة التى انتهت باستيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز سنة ١٣٤٣ ﻫ ، وفى ربيع الأول ١٣٤٣ ﻫ طلب منه التخلى عن العرش ، فسافر من جدة إلى العقبة ثم أخرج منها إلى قبرص ، واشتد به المرض فنقل إلى عمان حيث وافته منيته .

آل سعود :

مؤسس هذة العائلة هو « سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان » من قبيلة عنزة ، وإليه ينتسب آل سعود . وقد كان مقيما فى الدرعية ، وقد تمكن بدهائه وحنكته من تثبيت إمارته فى الدرعية وما جاورها ، ووضع بعمله هذا أساس مملكة آل سعود ، وتوفى سنة ١١٣٧ ﻫ ١٧٢٤ م ، عن أربعة أولاد « ثنيان ، وفرحان ، ومحمد ، ومشارى » ، وقد تعاقب على الإمارة من خلفه عشرة وهم على الترتيب :

(١) محمد بن سعود (٢) عبد العزيز بن محمد (٣) سعود بن عبد العزيز « الملقب بالكبير » (٤) عبد الله بن سعود (٥) تركى بن عبد الله (٦) فيصل

ابن تركى (٧) عبد الله بن فيصل (٨) عبد الرحمن بن فيصل (٩) محمد بن فيصل (١٠) الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن .

محمد بن سعود :

بعد وفاة سعود الأول تعاضد أبناؤه الأربعة على تثبيت دعائم الملك ، وتعاونوا فيما بينهم تعاوناً تاماً ، وفى عام ١١٥٣ هـ ١٧٤٠ م ، اتفق محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن سليمان بن عبد الوهاب المصلح الكبير وباعث روح النشاط الدينى والعقيدة السلفية الصحيحة على أن يكون محمد بن سعود حارساً للدين وناصراً للسنة وقامعاً للبدع . وبعد وفاة ثنيان ١١٦٠ هـ ١٧٤٧ م اعترف الجميع لمحمد أخيه بالإمامة الدينية والزعامة الزمنية المطلقة.

وقد أثمر هذا الاتفاق بين الزعيم السياسى والمصلح الدينى كل الخير للإسلام والعرب ، وقد توفى الإمام محمد سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م بعد أن شهد مملكة واسعة الأطراف تشمل أكثر نجد ورأى مبلغ انتشار الدعوة بين أهل نجد ولم يخلص من حكمه سوى بلدة الرياض ، التى كان أميرها ، وهام بن دواس ، وسوى الحسا والقصيم .

عبد العزيز بن محمد :

خلف أبيه فى الإمارة ، وكان مشهوراً بغيرته على الدين ، وبحماسته فى الإصلاح ، شرع فى نشر دعوة التوحيد فى المقاطعات الشمالية ، فتوجه إلى القصيم واستولى على بريدة والرس وتنومه ، وحاصر عنيزة فارتد عنها خائباً وقد كان نفوذه الأدبى والدينى فى بلاد القصيم عظيما لا يشاركه فيه أحد ، ثم عزم على سحق ابن دواس ، والاستيلاء على الرياض ، فتم له ذلك سنة ١١٨٧ هـ ١٧٧٣ م .

ثم شرع فى شن الغارة على أطراف الحسا وأدب القبائل الثائرة من شمر ومطير وعتيبة وقهر قوات بنى خالد وقوات أمير الحسا بقرب اللصافة وهاجم مركز ابن عريعر فى الهفوف فسلم بدون مقاومة ، ثم استولى على وادى السرحان ووصل ابنه سعود فى غزواته إلى عسير غرباً وإلى عمان جنوباً وأنفذ السرايا

إلى حدود العراق حتى خافت السلطات العثمانية فى البصرة وبغداد ، فجمع الوالى سليمان الجموع لصد قوات ابن سعود ، وتقابل الفريقان فى الحضر ، فتفرق الجيش العثمانى وتقدم ابن سعود إلى السماوه واستاق أموالا عظيمة .

وقد وقعت بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب فتنة سببها مسعى عبدالعزيز فى نشر الدعوة بين القبائل الخاضعة للأشراف فى مكة حتى إن الشريف غالب منع قدوم الحجاج بطريق نجد ثم تصالحا وتعاهدا وقدم ولده سعود للحج سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م .

وفى ١٢١٦ هـ ١٨٠١ م هاجم كافة الحواضر الواقعة بين النجف والزبير فى العراق ومنطقة الفرات السفلى ، واستولى على كربلاء . ولكنه قتل من قبل شيعى من أهل العراق بعد ذلك بسنتين فى مسجد الطريف بالدرعية بعد أن ترك ملكا يمتد من شواطىء الفرات ووادى السرحان إلى رأس الخيمة وعمان ومن الخليج الفارسى إلى أطراف الحجاز وعسير .

سعود الكبير بن عبد العزيز :

اكتسبت الدولة فى زمانه أكبر رقعة وأعظم موقع ، وقد كان عضد والده فى توسيع الملك ونشر الدعوة كما كان القائد الأكبر لجيوش أبيه ، وقد عهد إلى ابنه عبد الله عقب تولية الإمارة بالقيادة فأدّب بعض قبائل الحجاز واستولى على تيماء وخيبر ، وشن الغارة على أطراف عمان .

وعند ما اتفق أمير مسقط سلطان بن حمد بن سعيد مع الأتراك على حرب ابن سعود مقابل تعهده بالاعتراف بسلطتها على بلاده فى مسقط وعمان وشرق أفريقيا أرسلوا جيشاً من البصرة لمهاجمة ابن سعود ثم استعادوه إلى العراق بعد ما وصلهم خبر قتل سلطان .

وأهم أعمال سعود فتح الحجاز ووضع الحرمين تحت حمايته ونشر سلطته على الفرات الأوسط حتى الهيت وعانه ، وحتى حلب فى سوريا ، وقد كان احتلاله مكة سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠١ م ولكنه لم يعزل الشريف غالباً عن الإمارة .

وشرع سعود يمهد للاستيلاء على الديار الشامية ، فأدرك الأتراك الخطر

ورموه بمحمد على باشا ، فوصلت جيوشه إلى ينبع ، واحتلت المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ ١٨١٢ م

عبد الله بن سعود :

تولى الإمارة بعد وفاة أبيه ، وفى أيامه تقدمت الجيوش المصرية بقيادة الأمير طوسون بن محمد على باشا ، ثم بقيادة إبراهيم باشا فاحتلت البلاد النجدية الواحدة تلو الأخرى حتى سقطت الدرعية عاصمة آل سعود سنة ١٢٣٣ هـ فى جمادى ، أبريل ١٨١٨ ، وسلم عبد الله بن سعود وكبار عائلته فاستاقهم إبراهيم باشا إلى المدينة وأركبهم إلى مصر ثم إلى الآستانة حيث احتزت رءوسهم فيها .

ودمر إبراهيم باشا الدرعية وهدم مساجدها وقصورها وقطع نخيلها وشجرها ولم يترك فيها عامراً .

وفى هذه الآونة قام أحد أبناء آل معمر أمراء العيينة ، واستولى على بعض العارض والوشم والقصيم ، وحالف عسكر الحكومة العثمانية ، فقام مشارى ابن سعود الكبير لمقاومة ابن معمر . فطلب وسلم إلى المعسكر التركى وقتل .

تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود :

كان تركى فاراً فى مقاطعة الخرج فعاد إلى العارض ونازع ابن معمر وقتاً غير طويل وقتله بابن عمه مشارى وتولى الحكم مكانه .

وقد تمكن من دفع الترك والمصريين وإجلائهم عن داخلية البلاد العربية سنة ١٣٥٦ هـ ١٨٤٠ م فى خلال عشرين سنة قضاها فى الحرب والنزال بمعونة ولده فيصل .

أعاد سلطته على العارض وفتح الحسا والقطيف ، وعقد مع أمير حائل وزعيم شمر صلحاً اكتسب به نفوذاً تاماً على أكثر الجبل والقصيم ، وبعد حكم عشر سنين اغتاله أحد أبناء عمه المدعو مشارى بن عبد الرحمن بن سعود فاقتص منه الأمير فيصل بن تركى ، واستولى على كرسى الحكم سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م .

فيصل بن تركى :

بعد تسع سنين ناضل فيها فيصل وقاتل استسلم للقائد خورشيد باشا الذى أرسل من المدينة لإخضاع نجد لحكم الدولة فانتزع الإمارة من فيصل واستاقه معه إلى مصر أسيراً ، وولى الحكم بعده أحد أفراد عائلة آل سعود المدعو خالد ، وخلع بعد سنتين تقريباً من قبل أهل نجد ، وولى بعده عبد الله ابن ثنيان ، ولم يدم حكمه إلا بعض السنة .

فى خلال هذه المدة عاد فيصل من أسر محمد على واستعاد الحكم مرة ثانية وبقى فيه إلى عام ١٢٨٢ هـ ١٨٦٠ م وامتدت سلطته على الحسا والقصيم والعارض حتى أطراف الحجاز وعسير .

بعد وفاة فيصل وقع الاختلاف بين أبنائه الأربعة : سعود ، وعبد الله ، ومحمد ، وعبد الرحمن ، فأدى ذلك إلى إضعافهم جميعاً واستيلاء ابن رشيد على بلادهم .

عبد الله بن فيصل :

حين وفاة فيصل كان ابنه أميراً على المنطقة الشمالية وكان سعود أميراً على الخرج والأفلاج وكان عبد الله أميراً فى الرياض وكان ولده الصغير الإمام عبد الرحمن فى الرياض بجانب أخيه عبد الله .

تولى عبد الله الإمارة فعارضه أخوه سعود ونشبت بين الفريقين معارك خسر فيها الطرفان إلا أن خسارة عبد الله كانت أعظم ففر من بلاده إلى عنيزه ثم لجأ إلى حائل فرفض ابن رشيد قبوله واتجه أخيراً إلى بغداد فأرسل الوالى مدحت باشا معه جيشا إلى الحسا فاحتلها وجعلها تابعة للبصرة سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وبعمله هذا كان سبباً فى ضم الحسا إلى املاك الدولة .

وقد حاول سعود أن يستعيد الحسا ففشل ثم أراد الاستيلاء على ديار عتيبة فقابل ابن ربيعان فى معركة حامية جرح فيها جرحاً بليغاً نقل على أثره إلى الرياض فمات هناك عام ١٣٩١ هـ ١٨٧٤ م .

وبعد وفاة سعود رجع عبد الله إلى الرياض وظل أبناء سعود فى الخرج غير خاضعين له وقام بمحاولات لاسترجاع الحسا من الترك ففشل ولإظهار صولته فى القصيم فاستولى على عنيزه إلا أن بريدة قاومته مقاومة عنيفة واستنجد أهلها بمحمد بن رشيد من حائل تخلصها من نفوذ ابن سعود وحازها لنفسه ثم عمل للاستنصار بعتيبة وسبيع لغزو ابن رشيد فخبط مسعاه وأخيراً تمكن منه أولاد أخيه سعود فحاصروه فى الرياض وأسروه .

واضطر عبد الله للاستنجاد بابن رشيد فجاء إلى الرياض وفك عبد الله من الأسر وطرد أبناء سعود إلى الخرج وعرض على عبد الله أن يبقى فى ملكه فأبى إلا الذهاب إلى حائل مع ابن رشيد ١٣٠٦ﻫ وبعد سنة طلب الرجوع إلى الرياض فتوفى بها بعد وصوله بخمسة عشر يوماً ١٣٠٧ ﻫ .

الامام عبد الرحمن بن فيصل :

كان حكيما شجاعاً حسن الإدارة ويتلخص حكمه فى محاولته التخلص من سلطان ابن رشيد الذى أراد أن يخضع كافة البلاد السعودية لسلطانه .

فقد تحالف سنة ١٣٠٨ ﻫ ١٨٩١ م مع زامل آل سليم أمير عنيزه وحسن ابن مهنا أمير بريده على أن يقوم معه بحركة يقضون بها على ابن رشيد فاجتمعت الجموع غربى القصيم فدارت الدائرة عليهم وقدم بعدها الإمام عبد الرحمن إلى حائل فأقام فيها برهة قصيرة ثم عاد إلى الرياض ليعد معداته للرحيل إلى قطر ثم إلى الكويت حيث أقام فى ضيافة الحكومة العثمانية بضع سنوات بقرب آل صباح ولم يعد إلى الرياض إلا بعد قيام ولده عبد العزيز لاسترجاع ملك آبائه .

محمد بن فيصل بن تركى :

ولى ابن رشيد محمد بن فيصل على الرياض بعد انسحاب أخيه عبد الرحمن ولم يكن له سوى مظهر الإمارة والحكم الاسمى فقط فقد كان ابن رشيد هو السيد المطاع وصاحب الكلمة العليا ودامت الحال كذلك بضع سنين حتى توفى محمد

فى الرياض فلم يعين الرشيد أميراً من آل سعود بل أرسل أحد أتباعه أميراً على العارض وقضى على حكم آل سعود نهائياً .

الملك عبد العزيز :

ولد فى الرياض يوم ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٧ ﻫ ديسمبر ١٨٨٠ م وكان فى الحادية عشر عند ما غادر والده الرياض ونزل ضيفاً على مبارك الصباح شيخ الكويت ١٨٩٢ م

وكانت إمارة الرياض إبان نشأته فى حروب مستمرة مع آل الرشيد من حائل الذين ظهرت شوكتهم فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى على يد على بن رشيد الذى ينتمى إلى عشيرة الجعفر من قبيلة شمر .

ونشبت حروب ومعارك بين شيخ الكويت وبين عبد العزيز الرشيد أمير حائل فانضم عبد الرحمن وأولاده إلى مضيفهم لينتقم من عدوهم وقاد عبد العزيز جيشاً وهو لم يبلغ الخامسة عشر فانهزم كما انهزم الشيخ مبارك فى معركة العريف سنة ١٩٠٠ م .

وعلى أثر معركة العريف اختار نخبة من رجال نجد الأشداء فقصد بهم جبرين على حدود الربع الخالى وقرر اتخاذها قاعدة لأعماله الحربية وفى يوم خمس رمضان سنة ١٣١٩ ﻫ سار من جبرين على رأس جيشه الصغير قاصداً الرياض مصمماً على الموت أو الظفر فبلغها يوم ٤ شوال ونزل بجيشه الصغير على بعد عشرة كيلو مترات منها فى مكان لا ترمقه الأنظار .

وبعد ما استراح قليلا ترك عشرين فارساً أمرهم بأن يلزموا مكانهم كاحتياطى له يستعين بهم عند الحاجة وسار قاصداً الرياض ولما بلغ سورها أمر ثلاثين تحت رئاسة شقيقه محمد بالتوقف انتظاراً لتعليماته ثم تقدم مخترقا السور الخارجى مع عشرة فقط وكان بابه مغلقاً فاحتال فى فتح الباب وكان عجلان أمير الرياض من قبل الرشيد حذرا ينام فى الحصن ليلا ويأتى إلى بيته الخاص بعد صلاة الفجر فكمن له العشرة فى بيته الخاص منتظرين خروجه من الحصن فما كاد يخرج منه إلى منزله المقابل له حتى رماه عبد العزيز

برصاصة جرحته ولم تقتله وكان قد ارتد إلى الداخل يريد الفرار ، فأدركه عبد العزيز وكان نصفه داخل الباب ، فجذبه إلى الخارج فتماسكا وتصارعا وأفاق رجال الحصن على الجلبة ، فرموا برصاصهم عبد العزيز ومن معه فقتلوا اثنين وجرحوا أربعة واستمر المهاجمون فى هجومهم وكان عبد الله بن أجلوى أول داخل فعدا وراء عجلان وكان قد أفلت من يد عبد العزيز ، فرماه برصاصة خرّ على أثرها صريعاً ، وبذلك دان لهم الحصن واستسلم رجاله ونودى فى الأسواق بدخول المدينة فى طاعة ابن سعود ، فأقبل الناس يهنئون أميرهم القديم ويعلنون اغتباطهم بفوزه ، ومنذ ذلك اليوم أصبح سيد نجد وحاكمها .

وقد حاول ابن الرشيد عدة محاولات لإخراج ابن السعود من الرياض فلم يفلح ، وأثار من أجل ذلك حروباً كثيرة باءت بالفشل ، ولما وثق عبدالعزيز من قوته بدأ بمهاجمة مقاطعات نجد فاحتلها الواحدة بعد الأخرى تدريجاً وكانت مقاطعة الإحساء آخر ما احتله سنة ١٩١٣ م فى أبريل . وقد اعترفت بعدها الحكومة العثمانية به والياً لنجد ومتصرفاً للحسا ، وأهدته وساماً رفيع الشأن مع رتبة الوزارة .

نشبت الحرب العظمى وكان موقف ابن السعود غداة إعلانها موقف القلق الذى لا يعلم أى طريق يسلك ، وقد انتهت بجلاء الترك عن بلاد العرب وتفرد الإنكليز بالنفوذ فيها وهم أصدقاء بيت سعود القدماء ، فاغتنم الفرصة وهاجم حائل مقر إمارة آل الرشيد فتغلب عليها لزوال قوة الترك التى كانت تسندها ، وبعد حصار طويل استسلمت إليه سنة ١٩٢١ م فألحقها ببلاده وعين مديراً لها يديرها باسمه .

وسير الملك حسين بن على حملة كبيرة على شرقى الحجاز سنة ١٩١٩ م عقد لواءها لنجله الثانى الأمير عبد الله مهمتها الظاهرة إخضاع قبائل تربة والخرمة التى شقت عصا الطاعة بقيادة خالد بن لؤى أمير تربة وانضمت إلى الوهابيين ومهمتها المضمرة الزحف على الرياض وضرب ابن السعود ضربة قاضية ، وكان بعض الإخوان من عتيبة بقيادة سلطان بن بجاد كبير الغطغط متهيئين لنصرة

إخوانهم أهل تربة والخرمة فتجسسوا على الأمير عبد الله ومواقع جيشه وهاجموه فى الليل البهيم ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ هـ .

أصبح الصباح فإذا بالقوات الهاشمية ممزقة ، وإذا بالأمير القائد قد فر سالماً برأسه من المعركة ، وغنم الإخوان كل مافى العسكر من أسلحة ومعدات وذخائر .

وفى سنة ١٩٢١ م أرسل الحسين بن على الرسل والدعاة إلى عسير يدعون سكانها إلى الانتقاض على أميرهم الإدريسى ، فلقيت دعوته آذاناً صاغية ورفع الأمراء آل عائض راية العصيان ، وآل عائض هؤلاء هم رؤساء قبيلة عسير المنقسمة إلى أربع بطون ، ومركزها بلدة ابها وسط جبال السراة فى عسير وإمارتهم حديثة العهد ترجع إلى أيام حكومة آل سعود وفتحهم عسير ، وكانت الإمارة قبلهم فى رجال ألمع ووليها أيام سعود الكبير عبد الوهاب بن عامر أبو نقطة .

خاف السيد بن إدريس العاقبة وأدرك أنه لا قبل له بقمع هذه الفتنة فلجأ إلى ابن سعود عدو الحسين الألد فكاتبه وعقد معه معاهدة سير ابن سعود على أثرها القوات إلى عسير فقمعت الفتنة واستولت على البلاد الثائرة : ابها وحائل وبنى شهر وألحقتها بنجد وضربت العائضيين وقبيلتهم ضربة شديدة .

فتح الحجاز :

يمكن تلخيص العوامل الأساسية لفتح الحجاز فى الأسباب الآتية :

١ — محاولات الشريف حسين لجعل أمراء البلاد العربية ومنهم ابن سعود تحت سلطانه .

٢ — الخلاف بينه وبين نجد على الحدود الشرقية للحجاز عند تربة والخرمة ومسعى الحسين للأخذ بثارات واقعة تربة .

٣ — قلق الحسين من توسع ابن سعود فى عسير وفى بلاد ابن رشيد .

٤ — استيلاء ابن سعود على تيماء وخيبر والجوف ووادى السرحان .

٥ — تضييق الحسين على أهل نجد ومنعهم من القدوم إلى الحجاز .

٦ — تكامل حلقات التطويق حول ممالك ابن سعود فقد كانت علاقاته مع الحكومتين الهاشميتين فى العراق وشرق الأردن على غير ما يرام .

وطالبت نجد بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه فى مؤتمر العقير المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ م من إعادة قبائل شمر اللاجئين إلى العراق لنجد ، فتلكأت حكومة العراق ونهب قبائل شرق الأردن أموال القبائل النجدية المارة من شرق الأردن إلى سوريا وقتلوا رجالها ، فاقترحت بريطانيا عقد مؤتمر الكويت لتسوية المسائل المعلقة بين الحجاز والعراق وشرق الأردن ونجد ، فعقدت اجتماعات فى ديسمبر ١٩٢٣ م جمادى الأولى ١٣٤٢ ﻫ وانتهى المؤتمر بالفشل إزاء المطالب الشاذة التى قدمها الشريف حسين فى إعادة البلاد العربية إلى الأوضاع التى كانت عليها قبل الحرب وعدم اعترافه بالتطورات التى طرأت عليها .

فقد اشترط إعادة الجوف ووادى السرحان لشرق الأردن وإعادة تيماء وخيبر وتربة والخرمة إلى الحجاز وإعادة آل رشيد إلى حائل وإعادة آل عائض إلى عسير .

بعد فشل مؤتمر الكويت عقد اجتماع حافل فى الرياض تقرر فيه الالتجاء إلى السيف وجهزت عدة حملات لتسييرها إلى الأطراف .

وسارت حملة الحجاز من تربة ومرت بمخضر كلاخ فوصلت الأخيضر ومنها إلى الطائف فدخلتها بعد مقاومة يسيرة فى ٦ صفر ١٣٤٣ ﻫ ، وكانت قوات نجد بقيادة خالد بن لؤى وسلطان بن بجاد ، وقوات الحجاز بقيادة الشريف على ابن الحسين ، واشتبكت القوتان بعد الطائف فى معركة الهدى واندحرت قوات الشريف فى ٢٦ صفر ٢٦ سبتمبر ١٩٢٤ م .

وفى أوائل ربيع الأول تنازل الحسين عن العرش وانتخب ابنه على ملكا دستورياً على الحجاز ، وسافر بعد أسبوع إلى العقبة وانسحب الشريف على من مكة إلى جده حينما علم أن قوات الأخوان قد بلغت بلدة الزيمه ، وفى ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣ ﻫ ١٦ أكتوبر ١٩٢٤ م دخلت القوات النجدية إلى مكة المكرمة وفى اليوم السابع من جمادى الأولى ١٣٤٣ﻫ ٤ ديسمبر ١٩٢٤م وصل عبد العزيز

ابن السعود إلى مكة ودارت بينه وبين بعض الرسل مفاوضات لم تثمر إلا إطالة الوقت على الشريف على لكى يستعد فى جدة للحرب والكفاح .

واحتل جنود ابن السعود القنفذه والليث وفتحوا الطريق منها إلى مكة ثم احتل الأخوان رابغ وانفتحت طريق جديدة لتجارة مكة مع الخارج .

وفى أوائل يناير ١٩٢٥م تقدمت قوات ابن سعود إلى جدة وأقامت الحصار عليها ، وتقدمت قوات أخرى لحصار المدينة ، ودام حصار جدة ما يقرب من سنة حصلت فى خلالها وقائع عديدة واشتد العسر على المحصورين واستحكمت حلقات الضيق .

وفى ١٩ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ و ٥ ديسمبر ١٩٢٥م سلمت المدينة وبعدها ببضعة أيام طلب الشريف على من المعتمد البريطانى أن يتوسط بينه وبين ابن السعود فى وضع حد للحرب والحصار .

وعقدت بين الجانبين اتفاقيه تنازل الشريف على بموجبها عن الحجاز ، وسافر من جدة فى اليوم السادس من جمادى الثانية ، وخضعت البلاد لحكم ابن السعود ونودى به ملكا على الحجاز فى مكة المكرمة فى ٢٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ ٨ يناير ١٩٢٦ م .

وفى ٢٤ ربيع الثانى ١٣٤٥ هـ ٢١ أكتوبر ١٩٢٦ م بسط حمايته على تهامة عسير المعروفة باسم المقاطعة الإدريسية ، وفى ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١ هـ ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ م صدر مرسوم ملكى وحدت به أجزاء المملكة الحجازية والمملكة النجدية وملحقاتها وجعلت مملكة واحدة باسم « المملكة العربية السعودية »

ومنذ استقرت الحالة السياسية فى المملكة العربية السعودية والحكومة جادة فى تنفيذ بعض المشروعات تدريجياً لترقية شؤون البلاد العمرانية والاجتماعية وتعزيز استقلالها فأنشئت المطارات وبنيت المدارس والمستشفيات وبذلت عناية خاصة لتقوية الجيش وإعداده وتجهيزه بأحدث الآلات وأكمل المعدات وهناك مشروعات أخرى نفذ بعضها والبقية فى طريقها إلى التنفيذ .

وفى إمكان الحكومة السعودية أن تقوم بإصلاحات كثيرة واسعة النطاق فإن مواردها من الزيت والذهب واللؤلؤ ورسوم الحج وغيرها أصبحت تتضخم يوماً بعد يوم ، وقد أضحت بلادها بفضل شركة الزيت خامس مورد ضخم فى العالم للنفط .

ولقد بلغ انتاج الزيت فى عام ١٩٤٤ حوالى عشرين ألف برميل فى اليوم وما زالت ترتفع فى السنوات الأخيرة حتى زادت على خمسين ألف برميل فى اليوم ، وينتظر زيادتها فى الأعوام المقبلة .

١٨ — إمارات الخليج

[الكويت — البحرين — قطر — دبي — رأس الخيمة — أبو ظبى — الشارقة — أم الكراين — عمان .

الحدود الشرقية لجزيرة العرب :

تنتهى الحدود الشرقية لجزيرة العرب عند الساحل المشرف على خليج فارس من الغرب ، ويمتد هذا الساحل من الكويت فى الشمال إلى مسقط عاصمة عمان فى أقصى الجنوب . وتبلغ مساحة هذا الخليج نحو ٩٧٠٠٠ ميل مربع وتكتنفه الجبال من الشرق والغرب .

بحيرة عربية :

وقد كان الخليج بحيرة عربية فى العهدين الأموى والعباسى لاسلطان عليه إلا للعرب فلما دالت دولتهم تغلب الفرس والبرتغاليون والهولانديون على بعض أجزائه ثم جاء العثمانيون ثم الانكليز بعد استيلائهم على طريق الهند .

عرب الخليج :

يتألف الخليج من قسمين غربى وشرقى أو الضفة الشرقية والضفة الغربية وسكان الأولى فرس يتبعون حكومة طهران مباشرة ، أما سكان الضفة الغربية فهم من العرب ينتمون إلى ربيعة أحد فرعى عدنان العظيمين ربيعة ومضر .

وقد كانت منازل ربيعة فى نجد بين اليمامة والبحرين والعراق وانقسمت ربيعة إلى بنى كلب وبنى أسد وانقسم بنو أسد إلى بطنين جديلة وعنيزة ومن عنيزة يتحدر بكر بن وائل الذى تنتسب إليه البيوت الثلاثة الحاكمة اليوم فى نجد والبحرين والكويت إلى آل سعود وآل خليفة وآل صباح .

أمارات الخليج :

تقوم على الضفة الغربية لهذا الخليج عدة إمارات ومشيخات عربية وقد كان هذا الانقسام سبباً فى بسط النفوذ الأجنبى على هذه البلاد وهى بحسب وضعها الجغرافى من الشمال إلى الجنوب .

(١) الكويت . (٢) البحرين . (٣) قطـــر . (٤) أبو ظبى .
(٥) دبى . (٦) الشارقة . (٧) رأس الخيمة . (٨) مسـقط .

وأعظم هذه الحكومات شأناً حكومة مسقط وتتلوها البحرين ثم الكويت .

١٩ — الكويت

موقعها ـ حدودها ـ مساحتها :

تكون إمارة الكويت نصف دائرة على الساحل الغربى من رأس الخليج وتقع جنوب العراق وشمالى الحسا (نجد) وتمتد حدودها الشمالية من أم قصر إلى سفوان قرب جبل سنام إلى الباطن .

أما الحدود الغربية فتتبع الباطن إلى قرب الحفر حيث تتصل بالحدود العراقيـة النجدية ومن هنالك تتجه إلى الجنوب الغربى حيث تتصل أيضاً بالحدود النجدية .

ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ١٨٠ ميلا ومن الشرق إلى الغرب نحو ٢٥ ميلا ومساحتها العامة أربعة آلاف ميل مربع .

سكانها :

نحو مائة وخمسين ألفاً منهم ثمانون ألفاً فى مدينة الكويت والباقى من العشائر خارجها وهم عرب سنيون يتدينون على مذهب الإمام مالك وبينهم شيعة ووهابية وفرس وهندوس ومسيحيون ويهود .

أهم بلدانها :

ليس للكويت ملحقات من البلدان الكبيرة ولكن فى برها أماكن بأسماء معروفة كالوبرة عند الحدود الشمالية والصبيحية فى الجنوب وخبره وأم الروس وغيرها وكلها أماكن مياه يرتادها عرب العشائر .

أهميتها التجارية :

الكويت مدينة تجارية ومراكبها مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعها وهى على أنواع منها للعبور والتنزه ومنها للحمولة ومنها للغوص ولا يقل محمول أكبرها عن مائتى طن وتصل فى أسفارها حتى إلى جزائر مدغشقر وزنجبار

وأكثر السفن تستخدم لاستخراج اللؤلؤ فى موسم الغوص وللتجارة بين الهند والعراق ولكنها تخرج من الكويت غالباً فارغة وتعود إليها ملأى .

ذلك لأن الكويت مدينة من مدن اللؤلؤ فقط على الخليج وهى تضطر أن تجلب حتى التمر من البصرة أو القطيف إذ ليس فيها أو فى جوارها شىء يذكر من النخيل .

وتزيد قيمة اللؤلؤ على قيمة ما تحتاج البلاد من المأكول والملبوس فتشترى بالزيادة للاتجار وقلما يقرن اللؤلؤ بمصدر آخر من مصادر الثروة .

تاريخها :

تاريخ الكويت القديم غامض مجهول وقد لا يكون لها ما يهم من التاريخ قبل أن هاجر إليها آل صباح قادمين من خيبر منذ أكثر من مائتين وسبعين سنة فقد كانت عنيزة التى تنتسب إليها آل صباح تقطن أولا فى عين التمر فى بر العراق على مسيرة ثلاثة أيام من الانبار ثم انتقلت منها إلى نواحى خيبر فأقامت هناك ومعها أحياء من طى فصارت تنتجع وتشتى معهم فى نجد .

والكويت تصغير كوت وهو فى اصطلاحهم بيت محوط ببيوت صغيرة وقد كانت عبارة عن بيوت حقيرة لبنى خالد فجاء آل صباح وسكنوا هذه الناحية بإذن من بنى خالد .

ثم انتخب صباح حاكما على العشائر فيها فحكم وتوفى فى زمن يجهل تاريخه ولكنه لا يرجع إلى ما دون القرن الثانى عشر للهجرة لأن ابنه الشيخ عبد الله الذى خلفه توفى عام ١٢٢٩ هـ .

وكانت الكويت بحكم وضعها الجغرافى ووقوعها بين العراق ونجد الخاضعتين للحكم العثمانى عثمانية وكان شيوخها يتمتعون باستقلال داخلى كمعظم شيوخ العرب إذ أبقت لهم الدولة نظمهم وعاداتهم .

والشيخ عبد الله الصباح أول من حكم الكويت من هذا البيت سنة ١٧٥٦ م حكمها ٤٦ سنة فاتسعت فى عهده وشاع ذكرها فى الخليج ثم خلفه ابنه جابر عام ١٢٧٦ هـ وخلف جابرا ابنه صباح عام ١٢٨٣ هـ .

وبعد أن توفى صباح تولى الحكم بعده ابنه عبد الله الذى حكم ٤٦ سنة ثم بعد أن توفى عبد الله حكم أخوه محمد بن صباح وكان أخواه مبارك وجراح طامعين به ولكن جراحا والى محمدا وكان فعلا لا رسميا شريكه فى الحكم فاشتدت المنافسة بين مبارك وأخويه .

وقرر عزم مبارك على أن يتخلص من أخويه وينفرد بحكم البلاد فاتفق مع ولده ونهضا ذات ليلة للأمر وكل منهما مستل سيفه فذبح مبارك أخاه محمداً وذبح ابن مبارك عمه جراحا وكان ذلك فى شهر ذى القعدة عام ١٣١٣ هـ .

ضجت الكويت لهذه الفاجعة ثم أذعنت للشيخ مبارك صاحب الحكم فيها إلا أبناء القتيلين وأشياعهم فقد ذهبوا إلى البصرة طالبين من الدولة العثمانيه التدخل ومعاقبة عمهم وولده فأرسلت بارجة من البصرة إلى الكويت تحمل قوة عسكرية لإبلاغ مبارك أمر الدولة بالسفر إلى الاستانة فيدخل عضوا فى مجلس شورى الدولة أو يختار الإقامة فى مكان آخر فتجرى عليه الدولة راتبا .

وقبل وصول البارجة كاتب الشيخ مبارك المعتمد الانكليزى فى أبى شهر طالبا حمايته فأرسل بارجة حربية رست فى الكويت ومنعت البارجة العثمانية من القيام بأدنى عمل وبذلك دخلت الكويت فعلا تحت الحماية البريطانية وتعهدت فى قبيل الحماية بأن لا يكون للكويت علائق مع دولة أجنبيه غيرها مهما كانت .

وفى ٢٩ يوليو سنة ١٩١٣ عقد الباب العالى اتفاقا مع بريطانيا بواسطة السفير العثمانى فى لندن تنازلت فيه الدولة عن سيادتها على الكويت والبحرين وقطر ومسقط وعمان وبقية جزر الخليج .

وإذا كان الشيخ مبارك موفقا فى سياسته ونفوذه فإنه لم يهتم بالتعليم ولا ساعد فى بناء مدرسة واحدة وكان يرهق التجار والرعية بالضرائب وقد توفى فى محرم سنة ١٣٣٤ هـ عام ١٩١٥ م فخلفه ابنه جابر الذى لم يحكم غير سنة وشهرين .

وانتقلت الإمارة بعد وفاة جابر إلى أخيه سالم وكان يكره الوهابيين والإخوان مما أدى إلى خلاف بينه وبين سلطان نجد فكان ذلك سبب هجوم آلاف من الإخوان على الجهرة فذبحوا مئات من أهلها وقتل منهم مئات وحاصروا الشيخ سالم فى قصره فلم ينج إلا بحيلة احتال عليهم بها

وتدخل الانكليز فردوا الإخوان عن الكويت ثم تدخل الشيخ خزعل فأرسل أحد أنجاله مع الشيخ أحمد الجابر الذى انتدب ليفاوض سلطان نجد بالصلح وبينما كانوا فى الرياض فى شتاء سنة ١٣٣٩ ﻫ ١٩٢١ م توفى الشيخ سالم وانتخب الشيخ أحمد الجابر خلفا له .

وقد ازدهرت فى عهده حركة أدبية قوامها المكتبة الأهلية هناك والمدارس اليومية والليلية وفى أبناء الكويت ذكاء وجراءة وحسن استعداد .

وبعد وفاة الشيخ أحمد تولى الحكم ابن عمه الشيخ عبد الله سالم آل صباح الذى حدث فى عهده الانقلاب العظيم فى الكويت بسبب تدفق آبار البترول فى هذه الإمارة بكميات كبيرة لم يكن يتوقعها أحد فآبار بترول برجان التى تقع على بعد خمسة وستين ميلا جنوبى مدينة الكويت تقدر محتوياتها بما يتراوح بين ١٢ و ١٥ ألف مليون برميل أى ما يقرب من سدس مجموع كميات البترول التى يقدر وجودها فى الآبار المعروفة فى مختلف أنحاء العالم ويساوى هذا البترول إذا قدر بالأسعار الحالية ما يتراوح بين سبعة وثمانية آلاف مليون جنيه .

لقد كانت الكويت منذ سنوات فقط بلدا منسياً لا يكاد يسمع عنه أحد وكان سكانها يقيمون فى بيوت صغيرة تتخللها طرقات ضيقة ولم يكن بها من آبار الماء سوى عدد قليل لذلك كان أهل الكويت يحضرون الماء بالسفن من مكان يبعد عنها بأكثر من مائة ميل وكانوا جميعا باستثناء قلة من تجار اللآلىء يعيشون فى فقر مدقع .

وفى عام ١٩٣٤ م حصلت شركتان أجنبيتان على ترخيص من أمير الكويت بالبحث عن البترول فى بلاده وفى سنة ١٩٣٨ اكتشف البترول

ولكن نشوب الحرب حال دون استغلال الآبار ، فلما استؤنف العمل فى عام ١٩٤٧ فاضت الآبار بمقادير هائلة من البترول .

وكان طبيعيا أن تحدث آبار البترول انقلاباً عظيما فى الكويت ، فقد استحال البلد الهادىء الساكن إلى كتلة من النشاط والصخب والضوضاء وزخرت الصحراء القفراء بآلات الحفر وخزانات التعبئة وأنشئت على شاطىء الخليج أكبر ميناء فى العالم لشحن البترول ، وبنيت مدن جديدة فى الصحراء تتخللها شوارع طويلة تصطف على جانبيها منازل أنيقة ذات طابق واحد لتتخذ مكاتب أو دور ضيافة ومستشفيات وانفسح مجال العمل أمام الأهلين حتى أصبحت الوظائف بالآلاف وأنشئت المدارس لتدريبهم وسرعان ما أصبح الكثيرون من أبناء الكويت مساعدى مهندسين وميكانيكيين ونجارين وسائق سيارات .

وكانت مدارس الكويت لا تتجاوز أربع مدارس ابتدائية فبنى الأمير عشرين مدرسة جديدة تتسع لثمانية آلاف طالب وأنشأ مدرسة ثانويه وجامعة صغيرة بها معامل فسيحة ومكتبة وملعب كبير وجناح للنوم .

وقد بدأت مشكلة الماء تحل ، إذ أقامت شركة استغلال البترول آلات لتقطير ماء البحر تنتج نحو ستمائة ألف جالون فى اليوم ، وبدأ الأمير فى إنشاء مجموعة آلات أخرى سوف تنتج مليونا ومائتى ألف جالون يوميا كما بنى مستشفى فسيحا زوده بأحدث الآلات والعقاقير وأنشأ مصحة كبيرة للدرن .

وقد استعان الأمير بعدد من الخبراء الانجليز والأمريكيين فى تحسين مرافق بلده وإنشاء بلدان جديدة صحية وتنظيم شئونها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وقد قفز الدخل السنوى فجأة من عشرة ملايين من الجنيهات فى عام ١٩٥١ إلى خمسين مليونا من الجنيهات فى عام ١٩٥٢ .

٢٠ ــ البحرين

موقعها :

البحرين أو جزر أوال اسم لمجموعة جزر متجاورة تحاذى الشاطىء الغربى فى الخليج ، وتقع على مقربة من قطر والحسا ، وهى غير البحرين المعروفة فى التاريخ الإسلامى فتلك هى مقاطعة الحسا الواقعة بقربها .

وجزر البحرين هى : المنامة والمحرق والرقاع والحد والبديع ، والأولى أعظمها شأناً ، وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقى ، ويشطرها الخط السادس والعشرون من الطول الشمالى .

مساحتها :

تقدر مساحتها بأربعمائة وخمسين ميلا مربعاً ، وعدد سكانها مائتا ألف نفس تقريباً .

تاريخها (١) ــ الخليج مهد الحضارة :

يقول بعض المؤرخين : إن الخليج الفارسى هو مهد الحضارة ، بل مهد الجنس البشرى ، وأن سكان الأقدمين أى سكان الجزر فيه هم أول من رفعوا شراعاً فى البحار ومارسوا الملاحة وأتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب .

أصل الفينيقيين :

وقال آخرون : إن الفينيقيين هم من هذه الديار العربية نشأوا فى جوار الخليج أو فيه ، وكانت أسفارهم فى البداية بين الهند والشام ومصر ، ثم ظعنوا إلى سواحل سوريه وخاضوا البحر الأبيض ، فوصلوا إلى قادش وبلاد الغال ، وأصبحوا فى تلك الأيام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والمغرب الأقصى .

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على كتاب ملوك العرب للريحانى .

ولا عجب إذا كان الخليج وجواره منشأ الفينيقيين ومطلع أنوار المدنية الأولى ، فإن أبناء هذه الربوع هم الذين مصروا أرض الكلدانيين ، وشيدوا قصور بابل وأشور .

آثار فينيقية :

فى جزيرة المنامة بجوار قرية على : تلال وأطلال يظنها الرائى لأول وهلة آثار مدينة قديمة ، ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة فى سهل فسيح ، بل فى قفر سَبْسَبْ بين المنامة والرقاع يدعى المراقيب .

هى مقبرة فسيحة الأرجاء تمتد أميالا فى جهتى الشرق والجنوب ، وفيها من القبور ما يزيد على ستة آلاف قبر ، يتراوح علوها بين الخمسة والعشرة أقدام ، وهى من أكبر مدافن الشرق ولا يبعد أن تكون أقدمها عهداً .

وهناك بيت فيه غرفتان بنيتا بالحجارة الضخمة ، الواحدة فوق الأخرى ، وهى تختلف علواً ولكنها لا تنقص عن الثلاثين ولا تزيد على الخمسين قدماً ، ويظهر أن هذه القبور العالية لأمراء الجزيرة وأعيانها .

وقد عثر السواح فى بعض هذه المدافن على آثار صناعية أثبت البحث أنها فينيقية الأصل ، كما ثبت ضمناً أن هذه القبور قديمة جداً لأن هجرة الفينيقيين من هذه الجزائر إلى البحر المتوسط هى منذ خمسة آلاف سنة . وقد كتب أحد القواد المقدونيين عند ما جاء إلى خليج العجم من قبل الإسكندر قادماً عن طريق الهند : أنه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربى من الخليج ، ثم جزيرة تدعى نيرين ، وهى على مايظهر دارين المعروفة عند العرب بهذا الاسم .

البحرين القديمة :

كانت البحرين فى قديم الزمان تطلق على البلاد الواقعة فى الساحل العربى الشرقى كله من البصرة إلى عمان ، وقد أطلق العرب عليها هذا الاسم لأنها على ما يظهر واقعة على بحرى عمان وفارس ، وجعلوا عاصمتها هجر ، ثم اختص هذا الاسم بمقاطعة الإحساء ، ثم انحصرت التسمية فى الجزر المعروفة الآن بهذا الاسم .

الاسلام فى البحرين :

كانت البحرين بالاصطلاح القديم من البصرة إلى عمان مستعمرة فارسية قبل الإسلام ، ولـكن عمالها كانوا غالباً من أمراء العرب ، وكان سكانها من عرب نجد ، وأكثرهم من عبد قيس ووائل وتميم ، وبين السكان عدد من المجوس واليهود والنصارى وفى السنة الثانية من الهجرة أرسل النبى عليه السلام العلاء الحضرمى ليدعو أهل هذه البلاد إلى الإسلام ، فأسرع حاكمها يومئذ من قبل الفرس المنذر بن ساوى التميمى هو ومن معه إلى الإسلام حباً فى الدين الجديد ، ورغبة فى التخلص من ملوك الفرس .

وقد ارتد أهل البحرين بعد وفاة النبى عليه السلام فجاءهم العلاء مرة ثانية ومعه جيش من المسلمين ، فأدب أهل الردة وقتل كثيرين منهم ، وكتب إلى أبى بكر يستمده ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو يومئذ فى اليمامة ليتوجه إلى البحرين ، فجاء خالد وكان قد فر كثيرون من أهل الردة إلى الجزيرة وتحصنوا فيها ، فأمر العلاء رجاله بالزحف عليها وتقول الروايات : بأن العلاء عند ما وصل بجيشه إلى الساحل لم يجدوا سفناً فيه ، وكان المرتدون قد أحرقوها ، فصلى العلاء ركعتين ثم دعا الله ، وأخذ بعنان فرسه وهو يقول : جوزوا باسم الله ، فمشى ، ومشى وراءه جيش عدده أربعة آلاف ، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر .

وتقول رواية أخرى : إنهم اجتازوا إلى دارين لا إلى أوال . ودارين لا تبعد كثيراً عن بر القطيف ، حتى إنه يستطيع الناس ساعة الجزر أن يمشوا من البر إليها .

وبعد أن أدب العلاء أهل البحرين حمل على الزباره فى قطر وقتل المكعبر عامل كسرى فيها ، ثم خاض عباب الخليج ، فوصل إلى الشاطىء العجمى ودخل بلاد فارس فاتحاً . وبعد ذلك دعاه الخليفة عمر إلى المدينة وولاه على البصرة وولى على البحرين عثمان بن أبى العاص ، ثم الربيع بن زياد الحارثى .

ابو فديك الخارجى

خضعت البحرين لحكم الخلفاء الراشدين ، ثم لحكم بنى أمية إلى خلافة عبد الملك بن مروان حيث استولى فى أيامه على الجزيرة أبو فديك الخارجى سنة كاملة ، وكانت جنود ابن مروان قادمة إليها ، فدخلتها وقتلت أبا فديك وستة آلاف من رجاله الخوارج وعادت السيادة لبنى أمية فى الشاطئين العربى والعجمى .

مسعود العبدى :

فى سنة ١٠٥ ﻫ خرج على عامل بنى أمية فى البحرين مسعود بن أبى زبيبة العبدى فتغلب عليه ونصب الأشعث بن عبد الله الجارودى والياً مكانه فحكمها تسع عشرة سنة ثم أعاد الأمويين الكرة عليهم ولكنهم لم يستولوا على الجزيرة بعد ذلك زمناً طويلا لأن دولتهم كانت تلاشت واضمحلت فقام العباسيون مقامهم واحتل عقبة بن سليم البحرين من قبل أبى جعفر المنصور .

صاحب الزنج :

ظل عمال بنى العباس يحكمون الجزيرة والأحساء حتى سنة ٢٤٩ ﻫ عندما استولى عليها على بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس المعروف بصاحب الزنج وكان يرى رأى الخوارج وقد دعى بهذا الاسم لأنه فى بادى أمره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون فى نواحى البصرة فيعدهم بالعتق فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة .

وقد تبعه فى البحرين خلق كثير وطفق يشن الغارات وله فى أكثرها الغلبة والغنائم . وفى سنة ٢٥٥ ﻫ ادعى النبوة وراح وزنوجه يسلبون وينهبون وقد امتد حكمه نحو أربع عشرة سنة يحكم فى هجر اليوم وفى البصرة غدا وتارة فى الأحساء وطوراً فى البحرين ولم يتمكن بنو العباس من قتله حتى سنة ٢٧٠ ﻫ حيث قتل وانتهى أمره عند ذلك .

القرامطة :

فى سنة ٢٧٨ ﻫ ظهر أبو سعيد القرمطى جاء إلى العراق من خورستان فنزل فى الكوفة ودعا وهو فى العراق إلى إمام من أهل البيت قيل إنه محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق وقيل إنه محمد بن الحنفية وكان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطورا لذاك وفى تلك الدعوتين فتنة على العباسيين بل إن نهضة القرامطة أصلا وفعلا هى نهضة إيرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب وقد ساعد على نجاح القرامطة وغيرهم من الخارجين على الخلافة ما يرتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الخلل والضعف والفساد خصوصاً فى عهد المعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر .

وقد اجتمع على أبى سعيد خلق كثير وجلهم من البادية لأنه خفف عنهم أثقال العبادة فاختصر الصلاة فجعلها فرضين صباحا ومساء وعفاهم من صوم رمضان واشتدت حروب القرامطة على الخلفاء وتعددت فظائعهم وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين فى عمان والحساء والقطيف والبحرين أما شمالا فاجتازت جيوشهم البادية والحماد ووصلت إلى بعلبك ومنهم من غزا الحجاز واليمن .

ويقول بعض المؤرخين إن القرامطة هم إحدى الأسباب الأولى فى سقوط الدولة العباسية وقد استمرت فتنتهم ٦٠ سنة وتزيد وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء أشده فى السنوات الوسطى منها أى منذ سنة ٢٨٩ ﻫ إلى سنة ٩٠٢ م إلى أن دخلوا مكة بقيادة زعيمهم أبى طاهر سنة ٣١٧ ﻫ ٩٣٠ م فكان فى ذلك الفتح خاتمة الفظائع والهول .

دخل أبو طاهر سليمان بن حسن القرمطى الحجاز بجيوشه راكبين خيلهم وأعملوا السيف فى الناس فقتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألف رجل وألوفا من النساء .

وقد دخلت البحرين فى حوزة القرامطة فى عهد المكتفى بن المعتضد العباسى

وظلت فى حوزتهم إلى ضعف أمرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى فقام لقتالهم عندئذ ثلاثة من العرب وهم الأمير عبد الله بن على العيونى فى الأحساء ويحى بن العياش فى القطيف وأبو البهلول محمد بن يوسف الزجاج فى البحرين ثم اقتتل هؤلاء على ما غنموا .

الامارة العيونية :

الأمير عبد الله بن على العيونى هو مؤسس الإمارة العيونية فى الأحساء والقطيف والبحرين فقد عرفنا أنه أحد الثلاثة الذين قاتلوا القرامطة وقد حاربهم سبع سنوات حتى انتزع الملك والسيادة منهم فى الأحساء .

أما ابن العياش الذى انتزع القطيف من القرامطة فقد استولى أيضا على البحرين بعد أن كسر البهلول فى وقعة شديدة وكان البهلول قد استولى على البحرين وطرد عمال القرامطة منها واستقام له فيها الأمر بضع سنين .

وقد حاول ابن العياش بعد استيلائه على القطيف والبحرين أن يضم إليه ما بيد العيونى فى الأحساء فخرج إلى الأحساء طامعا فى تنفيذ خطته فلاقاه العيونى بجيش جرار فى الطريق فكسره فى الموقعة الأولى وقتله فى الثانية ثم استولى على القطيف والبحرين واستمر حكم آل العيونى فى البحرين نحو مائتين وخمسين عاما .

أبو بكر الزنجى :

ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب فقد استولى على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقية أبو بكر بن سعد الزنجى أحد ملوك فارس فحمل على العرب فى جزيرة قيس واحتلها ثم عبر البحر إلى البحرين فأخذها واستولى بعدها على الأحساء والقطيف وغيرها من بلدان واستمر حكم الزنجيين حتى بعد أن ظهر جنكيزخان المولود سنة ١١٦٢م والمتوفى سنة ١٢٢٧ فشابه القرامطة بمدة دولته (٦٠) سنة وبأهوالها .

وبعد مائة سنة من عهد المغول الأول جاء تيمورلنك المولود سنة ١٣٣٦م

والمتوفى سنة ١٤٠٥ فكمل أعمال جده جنكيز خان الفظيعة واستولى على البحرين فيما استولى عليه من البلاد قبل دخوله بغداد ثم خرجت الجزيرة بعد موته من حكم المغول .

البرتغال :

بينما كان المغول فى الشرق يفتحون البلدان ويدمرونها ويذبحون العباد ويزرعون الويل والأحزان فى كل مكان كان الفكر البشرى قد شرع فى أوروبا يجول فى سماء العلم والبحث والاكتشاف ، فقد أبحر الربان البرتغالى فسكودى غاما المولود سنة ١٤٥٠ حول الرجاء الصالح ومخر عباب الإقيانوس الهندى فوصل إلى سواحل تلك البلاد العجيبة وكان أول من أسس لدولته ملكا فى الشرق وجاء بعده زميله الفونسو البوكركة فرفع علم دولته فى مسقط ودخل مضيق هرمز فاستولى عليه وحصنه وتقدم فى الخليج متفقداً الجزر والأساكل فيه وهو يبغى الوصول إلى البصرة ليفتح طريقا لمستعمرة بلاده فى الهند .

والفونسو هذا كانت أولى سفراته إلى الهند سنة ١٥١٣ وهو الذى حاول أن يأخذ عدن سنة ١٥١٣ م فلم ينجح فتقدم بأسطوله إلى البحر الأحمر واحتل فيه جزيرة قمران .

ثم استولى البرتغاليون على جزيرة البحرين والقطيف وحصونهما ولكنهم لم يستولوا على الإحساء لأن العثمانيين كانوا قد سبقوهم إليها ، وبسطوا سيادتهم عليها فعدوها يومئذ جزءا من اليمن الذى كانوا قد احتلوا بعض نواحيها .

وقد دام حكم البرتغاليين فى البحرين نحو أربعين سنة حتى جاء السلطان سليمان القانونى العثمانى فجهز أسطولا إلى مسقط والبحرين وأخرج من كان فيهما من البرتغال .

عودة الحكم الفارسى :

لقد دخلت البحرين تحت سلطان فارس على أثر اختلاف شديد بين أمراء الجزيرة وكان أكثرهم من الشيعة فرفعوا شكواهم إلى الشاه عباس الأول أحد

(١٠)

ملوك فارس وطلبوا منه الحماية لقربهم منه موضعا ومذهبا فأجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة العربية ولكنه بسط عليهم حمايته فعادت البحرين مستعمرة فارسية كما كانت قبل الإسلام .

ولكن الحكم الفارسى فى البحرين قد تسرب إليه ما كان قد اعترى الملك فى بلاد فارس من الخلل والفساد وقد كان آخر عامل عربى من عمالهم هو الشيخ نصر آل مذكور استنجد حكومة إيران فى حملته على آل خليفة فى الزبارة فلم تنجده والزبارة هذه بلدة فى قطر على شاطىء البحر محاذية لجزيرة البحرين وقد دارت معركة بين الشيخ نصر وآل خليفة سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م فر الشيخ نصر على أثرها منهزما إلى أبى شهر ودخل آل خليفة منتصرين إلى البحرين .

آل خليفة :

آل خليفة هم من أكبر عشائر بنى عتبة يسكنون بأرض الهدار من بلاد الإفلاج ، بنجد وبنو عتبه فصيلة من جميلة وهؤلاء فخذ من عنيزة وقد نزح الشيخ خليفة الجد الأول لهذا البيت هو وأهله إلى الكويت فى أواخر القرن الحادى عشر للهجرة ، وأقاموا هناك عدة سنين وبعد وفاته رحل ابنه الشيخ محمد إلى الزبارة فنزلوا على أبناء عمهم الجلاهمة وآل ابن على .

وقد كان الشيخ محمد بن خليفة برا كريما ورعا أصيل الرأى فأحبه الناس ورغبوا إليه فى أن يكون أميراً عليهم فقضى مدة حياته أميراً فى الزبارة ثم خلفه ابنه خليفة المتوفى فى مكة أثناء حجه إليها سنة ١١٩٧ هـ وقد خلفه فى الحكم أخوه الشيخ أحمد الفاتح وهو الذى احترب ، وآخر عامل من عمال الفرس فى البحرين الشيخ نصر آل مذكور فغلبه واستولى على الجزيرة .

بعد أن استولى أحمد الفاتح على البحرين عاد إلى الزبارة فى قطر وأقام عنه عاملا فى البحرين وبعد بضع سنين توفى فخلفه ابنه الشيخ سلمان وكان ضعيف الرأى والإرادة وفى أيامه وصل الأمير عبد العزيز آل سعود إمام الوهابيين بجيوشه إلى الإحساء فخاف عرب الزبارة أن يستولى عليهم فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان إلى البحرين .

وبعد استقرارهم فى البحرين جاء السيد سلطان حاكم مسقط بأسطوله واحتل الجزيرة بناء على رغبة البحارنه كما يقول بعض المؤرخين فقد ذكروا أنهم كتبوا إلى حاكم مسقط يرغبونه فى الاستيلاء على بلادهم وقد أسرع الشيخ سلمان إلى موالاة السيد سلطان وعقد معه صلحاً قدم إليه بموجبه أحد إخوانه رهينة إليه وعاد السيد سلطان بالرهينة والغنائم إلى مسقط بعد أن ولى ابنه سعيد على البحرين .

ولكن آل خليفة نهضوا لاسترجاع البحرين بعد أن توفى أخو الشيخ سلمان الرهينة فى مسقط وطلبوا المساعدة من أمير نجد فأجابهم إلى ذلك وكان ابن سعود قد استولى يومئذ على الحرمين .

أقبل إبراهيم بن عفيصان أحد قواد ابن سعود البواسل بجيوشه واشترك مع جيش الزبارة فى الهجوم على البحرين فهزموا السيد سعيد وأخرجوه من الجزيرة ، ولكن القائد الوهابى احتلها باسم أمير نجد وأذن لآل خليفة بالرجوع إلى الزبارة فعادوا ثانياً مدحورين .

وبينما كانوا وعلى رأسهم الشيخ سلمان يفكرون فى رفع أمرهم إلى الإمام الوهابى فى الدرعية أقبلت عليهم سرية من نجد فاستولت على الزباره وأمرت آل خليفة بالسفر إلى نجد وكان الأمير مسعود قد خلص وقتئذ أباه عبد العزيز فقدم عليه ثلاثة من آل خليفة سنة ١٢٢٤ ﻫ فأنزلهم فى القصر ضيوفاً عليه وأسراء بين يديه .

ولكن آل خليفة عادوا إلى السيد سعيد بن سلطان الذى أخرجوه من البحرين يستنجدونه بواسطة ابن أختهم عبد الرحمن بن راشد آل فضل ليساعدهم فى إخراج ابن عفيصان منها فأمدهم بالمال فقط وسافر عبد الرحمن ابن راشد ليبحث عن نجدة لأخواله فظفر بها فى بلاد فارس وهى مستعمرة عربية من عرب النصور فألف منهم جيشاً وجاء آل خليفة برجالهم من الزبارة فهجموا على الجزيرة وكسروا ابن عفيصان وأخرجوه من الجزيرة ففر هارباً إلى قطر ونزل على رجل يدعى ارحمه بن جابر الجلاهمة .

وقد فكر الإمام الوهابى فى أن يستعيد سلطنته فى البحرين فشغل بحرب إبراهيم باشا المصرى الذى قدم لحرب أهل نجد وأطلق سراح آل خليفة المعتقلين لديه فعادوا إلى الجزيرة يتولون فيها زمام الحكم .

وقد رأى آل خليفة أنه لايصفو لهم الجو حتى يتخلصوا من ابن عفيصان المقيم فى قطر عند أرحمه الجلاهمة وكان أرحمه هذا يسعى فى انتزاع الإمارة من آل خليفة فجهزوا أسطولا من السفن الشراعية وأبحروا إلى قطر فخرج ابن عفيصان وأرحمه فى سفنهم إلى البحر حيث اشتبكت السفن فى معركة ودوت البنادق بالرصاص وأبرقت خلال الدخان السيوف وسالت الدماء وأسفرت المعركة عن هزيمة أرحمه وصاحبه وغرقت سفينتهما ولكنهما نجيا على لوحة من خشب وقد سافر أرحمه عقب هذه الهزيمة إلى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان ويستنجده على آل خليفة .

وجاء حاكم مسقط بأسطوله إلى البحرين يصحبه أرحمه فاشتبكوا مع آل خليفة فى معركة فى البحر أسفرت عن هزيمة أهل مسقط وفرارهم عائدين إلى بلادهم وعلى أثر هذه الهزيمة عاد السيد سعيد إلى البحرين فعقد معاهدة مع حاكمها الشيخ سلمان من شروطها أن يدفع أهل البحرين قسما من الخراج إلى حاكم مسقط فيطلق سراح المعتقلين عنده من تجار البحارنة الذين ألقى القبض عليهم أثناء اجتيازهم بمسقط فى طريقهم إلى الهند .

توفى الشيخ سلمان فتولى الحكم أخوه عبد الله وهو الحاكم الثالث من آل خليفة فى البحرين وقد قضى فى إمارته اثنتين وعشرين سنة جلها فى قمع الفتن والحروب فقد حارب أرحمه مرة أخرى وقضى عليه وفتح عدة بلدان وأدب الثائرين عليه من أبنائه وغيرهم من آل خليفة .

وقد تولى الحكم بعده ابنه الشيخ محمد سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٢ م فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه أثناءها أحد من أعدائه .

وفى عهد هذا دخلت البحرين فى حماية الإنكليز على أثر حروب وقعت بينه وبين خصومه من آل خليفة إذ قبل ماعرضه عليه المعتمد البريطانى

فى أبى شهر فعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده وترد عنها كل غارة مقابل تنازله عن حقه فى تجهيز الجنود والسفن البحرية .

وثار أهل قطر سنة ١٨٦٧ م على حكومة البحرين وكانوا يتبعونها فأرسل الشيخ محمد أخاه إلى أبى شهر يطلب النجدة من معتمد انكلترا السياسى عملا بالاتفاق المعقود بينهما كما أخذ يعد عدته للمقاومة فوقعت بينه وبين الثوار معركة دامية نقم عليه المعتمد بسببها وكان قد سافر إلى قطر حينما وصل هذا على مركب حربى إلى البحرين فعد سفره نكثاً للعهد وما نكثه العهد سوى قيامه بالدفاع عن بلاده فأطلق المدافع على القلعة فدمرها وطلب من الشيخ على شقيق الشيخ محمد أن يتولى الحكم مكان أخيه الذى سقطت حقوقه بسفره فتقبل الشيخ على ما عرض عليه وتولى الحكم فساء ذلك أخاه فبدأت الحرب بينهما وانتهت بانهزام الشيخ على وسقوطه قتيلا فعاد الشيخ محمد إلى الحكم ولم يلبث طويلا حتى قبض عليه بعض آل خليفة وسجنوه فأدى ذلك إلى نشوب فتنة جديدة جاء على أثرها معتمد الانكليز السياسى وتولى أمر البحرين بعد ما أطلق بضعة مدافع على المنامة ثم جمع مجلساً من الأهالى واستشارهم فى من يولى حاكما فاختاروا الشيخ عيسى بن الشيخ على فنودى به شيخاً على البحرين .

وفى شهر مايو سنة ١٩٢٣ م تولى الحكم الشيخ حمد بن عيسى وهو التاسع من آل خليفة فقد كان أولهم الشيخ محمد بن خليفة فابنه خليفة فابنه أحمد فالشيخ سلمان فعبد الله فمحمد فعلى فعيسى فحمد .

وقد تولى هذا الحكم بعد أبيه بأمر من المعتمد البريطانى وذلك أن خلافاً نشب بين نجديين وإيرانيين سكان المنامة بسبب ساعة اتهم الأول الآخر بسرقتها فتعصب لكل منهما أبناء قومه فتشاجروا وتضاربوا فلما اتصل ذلك بمعتمد انكلترا السياسى فى أبو شهر جاء ببارجتين حربيتين وطلب من الشيخ عيسى اعتزال الحكم بحجة ضعفه وبلوغه درجة الشيخوخة فأبى فجمع المعتمد

أعيان الجزيرة وأبلغهم أنه عين الشيخ حمد مكان أبيه وبعد وفاة الشيخ حمد ابن عيسى تولى ابنه الحاكم الحالى سلمان بن حمد .

وقد اكتشف الزيت فى جزيرة البحرين سنة ١٩٣٢ م ومنذ ذلك الحين استمرت أعمال الحفر وبدأ تصدير الزيت الخام إلى الخارج وأخذت البلاد فى إقامة المشاريع الكبيرة كتعبيد الطرق وإقامة خطوط التلغرافات وبناء المخازن وحظائر السيارات وورش التصليح والمكاتب والمستشفيات وما إلى ذلك .

٢١ - المشيخات الصغيرة

بين البحرين وعمان

قطر :

هى شبه جزيرة بين العبيد والعقير (الحسا) منفصلة عن البلدان المجاورة لها سياسياً ، ومستقلة برئاسة آل ثانى ، ولا يزيد عدد سكانها عن خمسين ألفاً ، وتقدر مساحتها باثنين وعشرين كيلومترا .

وقد كانت قطر تابعة لحكومة البحرين ، ثم سرى النفوذ البريطانى إليها فعقد الإنجليز مع شيخها أول معاهدة فى سنة ١٨٢٠ م ، ثم عقدوا معاهدة أخرى سنة ١٨٣٥ م تعهد فيها بما تعهد به جيرانه شيوخ السواحل .

ووقعت اختلافات بين الشيخ وجيرانه سكان أبو ظبى ، فاتخذ الانكليز ذلك ذريعة لعقد معاهدة جديدة وقع عليها سنة ١٨٦٧ م أخذوا عليه العهد فيها بأن لا يبنى سفينة حربية ، وأن يرجع إلى المعتمد البريطانى فى الخليج فى كل خلاف يحدث بينه وبين جيرانه ، وأن يعترف بسيادة البحرين .

واغتنم الشيخ فرصة رجوع الدولة العثمانية إلى التدخل فى شئون الخليج ووصول قواها إلى الحسا فى عهد مدحت باشا سنة ١٨٦٩ م فأعلن خضوعه لها وطاعته فعينه قائمقام على قطر ، وأنشئت فى الدوحة (من ثغور قطر) محطة للفحم ومرسى للسفن .

وأبى الانكليز الاعتراف بما وقع وأنكروه ، ونادوا بأن قطر مشمولة بحمايتهم وظل الحال على هذا المنوال ، حتى عقدت معاهدة لندن فى سنة ١٩١٣م ، بين إنكلترا وتركيا ، وقد تنازلت بموجبها الأخيرة عن جميع مالها من الحقوق فى قطر إلى سكانها .

دبى ، رأس الخيمة ، أبو ظبى ، الشارقة ، أم الكراين :

مقاطعات صغيرة تمتد من رأس الكلبى شمالا فى ساحل عمان إلى العبيد على حدود قطر جنوباً .

ويتصل تاريخها بتاريخ الخليج الذى سبق الحديث عنه ، وفى سنة ١٨٠٦ م عقد الانكليز اتفاقاً مع شيوخ هذه البلاد ، تعهدوا فيه باحترام راية شركة الهند الشرقية البريطانية وعدم التعرض لسفنهم ، أو الاعتداء على التابعين لها .

وفى سنة ١٨٢٠ م حصل خلاف بين الانكليز وبين رجال هذه السواحل على أثر مهاجمتهم لجزر البحرين ، فأرسلت حملة بحرية قاتلتهم وأخرجتهم منها وعقدت معهم اتفاقاً جديداً دخلوا بموجبه تحت حمايتها ، وعزز الإنكليز هذا الاتفاق باتفاق آخر عقدوه سنة ١٨٩٢م تعهد فيه ممثل هذه البلاد بأن لا يعقدوا أى اتفاق مع دولة غير بريطانيا ، وألا يأذنوا لأحد بالاستيلاء على جزء من أراضيهم إلا بعد موافقتها .

٢٢ – عمــــان

حدودها – مساحتها :

هى إمارة عربية، تمتد حدودها من ظفار غرباً فى حدود حضرموت الشرقية حتى رأس الخيمة والمشيخات الصغيرة الواقعة جنوب قطر شرقاً على الخليج الفارسى، وتمتد جنوباً من البحر العربى حتى الربع الخالى فى الشمال ومساحة مسقط وعمان تقدر بمائة وأربعين ألف كيلومتر مربع وطول ساحلها نحو أربعمائة كيلومتر مربع .

سكانها :

عرب مسلمون يقدر عددهم بمليون نسمة تقريباً، وينقسمون إلى قسمين : بدو ومتحضرون أما البدو، فهم سكان خيام، قوم رحل يتبعون المراعى . والمتحضرون يسكنون السواحل، وأكثر العمانيين أباضيون ينتسبون إلى عبد الله بن أبى محمد المرى الذى استولى على أفريقيا الشمالية وادعى فيها الخلافة سنة ١٥٣ هـ .

أقسامها :

تنقسم عمان إلى قسمين : التهايم ولا تمتد أكثر من أربعين كيلو مترا أكثرها مشغول بالنخيل المشهور بجودة بلحه، ثم إلى قسم الجبال وأعلاها الجبل الأخضر الذى يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف متر ويوجد بين هذه الجبال أودية خصبة كثيرة .

مدنها :

أهم مدنها مسقط على الساحل وهى عاصمة آل بوسعيد، ونظام الحكم فيها مدنى وللإنكليز عليها حماية، أما عاصمة عمان فى الداخل فهى نزوى وهى عاصمة أمام عمان ونظام الحكم فيها دينى، وهى مستقلة استقلالا تاماً لا شائبة فيه، ومن مدنهما المشهورة مطرح وسيناس ولواء وبرقة وسميل وصور ونخيل و (ظفار) .

حاصلاتها :

من حاصلات عمان الحنطة والذرة والشعير والنباتات الخضراء ، وكثير من صنوف الفواكه لاسيما الجوز الهندى ومن حاصلاتها الخشب والند والصندل والصمغ والصبر والتمباك ، وفيها كثير من المعادن كالحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلى ، وعلى سواحلها مغاصات اللؤلؤ أشهرها فى مدينة صحار ودمار ومسقط ، ويشتغل أهل سواحلها بصيد السمك يصدرون منه مقادير وافرة إلى الخارج ويجففون منه مقادير أخرى ، وهى مشهورة بجودة بقرها وغنمها .

تاريخها :

ذكر ابن خلدون أنها سميت باسم عمان بن قحطان أول من نزلها من العرب فى عهد أخيه يعرب بن قحطان ونقل صاحب تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان أن قبيلة الأزد اليمنية التى هاجرت إلى هذا القطر بعد حادثة سيل العرم وتهدم سدّ مأرب هى التى أطلقت عليه هذا الاسم باسم واد كانوا ينزلون حوله بالقرب من مأرب يدعى عمان .

كما تحدث عن وقوع حوادث حربية بين العرب من رجال الأزد المهاجرين من اليمن وبين الفرس الذين كانوا يحتلون هذا القطر العربى ، تغلب العرب فى نهايتها على الفرس وأجلوهم عن البلاد ، ثم لحقت بعمان قبائل عربية أخرى من بنى سعد وعبد القيس وتميم وغيرهم .

وقد خضع هذا الجزء من بلاد العرب قبل ذلك لحكومة التبابعة فى اليمن الذين امتد سلطانهم على كثير من أقطار الجزيرة العربية كما سبق فى موضعه .

فلما جاء الإسلام كان ملك عمان إلى عبد وجيفر ابنى الجلندى الأزدى ، فبعث إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص السهمى بكتاب يدعوهما فيه إلى الإسلام فأسلما وأسلم معهما وجوه العشائر وبقية الناس .

ثم بعث جيفر إلى مهرة ونواحيها فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، كما بعث

إلى دبي وما يليها إلى آخر عمان ، فما ورد رسول جيفر على أحد إلا وأسلم وأجاب دعوته إلا الفرس الذين كانوا فى ذلك العهد بعمان .

واجتمعت الأزد إلى جيفر بن الجلندى فقالوا له : لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم ، وأجمعوا على إخراجهم ، فدعا جيفر مرازبة الفرس وقال لهم : إما أن تسلموا وإما أن تخرجوا عنا ، فأبوا وعند ذلك اجتمعت الأزد فقاتلوهم قتالا شديداً حتى اضطروهم إلى طلب الصلح ، فصالحوهم على أن يخرجوا بأنفسهم وذراريهم فقط ، فأجابوهم إلى ذلك وخرجوا من عمان .

عمالها من قبل الخلافة :

أقام عمرو بن العاص عاملا على عمان من قبل النبى عليه السلام يجمع الصدقات ويوزعها ويحكم بين الناس حسب تعاليم النبى عليه السلام ، وكان عبد وجيفر ابنا الجلندى عوناً له على من خالفه .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد عمرو إلى المدينة وولى أبو بكر على عمان عكرمة بن أبى جهل ثم سيره إلى اليمن واستعمل عليها حذيفة بن الحصين الغلفانى خلفاً له ، فلما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب استعمل على عمان عثمان بن أبى العاص الثقفى سنة خمس عشرة من الهجرة ، فكان فيها حتى كتب إليه عمر بعد وقعة جلولا أن يقطع البحر إلى بلاد فارس .

وفى تحفة الأعيان : أن أبا بكر رضى الله عنه أقر جيفر وأخاه عبداً على ملكهما ، فلما ماتا ، قام بالأمر بعدهما عباد بن عبد الجلندى ، فى زمن عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ولما وقعت الفتنة وصار الملك إلى معاوية لم يكن لمعاوية سلطان فى عمان ولا لخلفائه ، حتى آل الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، واستعمل الحجاج على أرض العراق ، وكان القائم بالأمر فى عمان سليمان وسعيد ابنى عباد بن عبد الجلندى ، فغزاهما الحجاج بجيوش كثيفة فهزموه ، ثم أرسل عليهم جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفر الأخوان سليمان وسعيد إلى بلاد الزنج — زنجبار — فكانت إلى هذا اليوم منتدحاً لأهل عمان .

واستعمل الحجاج على عمان الخيار بن سبرة المجاشعى ، ثم وليها فى أيام الوليد بن عبد الملك سيف بن الهانى الهمدانى ، فلما مات الوليد استعمل أخوه سليمان عليها صالح بن عبد الرحمن بن قيس الليثى ، ثم زياد بن المهلب ، ووليها فى عهد عمر بن عبد العزيز عمر بن عبد الله الأنصارى فأحسن السيرة فيهم ، ولم يزل والياً على عمان مكرماً بين أهلها حتى توفى الخليفة عمر ، فقال عمر بن عبد الله الأنصارى لزياد بن المهلب : هذه البلاد بلاد قومك فشأنك بها ، فأقام زياد فى عمان ، حتى ظهر أبو العباس السفاح وصار ملك بنى أمية إليه ، فاستعمل على عمان جناح بن عباد بن قيس بن عمرو الهنائى ، وهو صاحب المسجد المعروف بمسجد جناح بصحار ، ثم عزله أبو جعفر المنصور ، وولى ابنه محمد ابن جناح ، فداهن أهل عمان كما يقول صاحب تحفة الأعيان : فثاروا وبايعوا بالإمامة الجلندى بن مسعود ، فأرسل السفاح جيشاً لقتالهم ، فانهزم العمانيون ، وهلك إمامهم .

ولكن لم تعد عساكر الخليفة إلى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الأهالى إلى عقد اجتماع وانتخاب إمام على حسب أصول المذهب الخارجى ، فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان فباشر الإمامة نحو سنتين فلم يحسن العمل ، فخلعوه وأقاموا مكانه الوارث بن كعب .

وفى زمان هذا أرسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئاً ، وخلف الوارث فى الإمامة غسان بن عبد الله حتى توفى سنة ٢٠٧ هـ ، فقام بالأمر بعده عبد الملك بن حميد ، ثم المهنا بن جعفر والصلت بن مالك الذى توفى سنة ٢٧٣ هـ فخلفه رشيد بن نضر ، وفى أيام هذا اختلت الأمور وانتثر النظام حتى اضطر الأهالى لمراجعة الخليفة المعتضد العباسى .

قدم عامل الخليفة على البحرين محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطى ففتح نزوة عاصمة عمان وقتل عزان الخروصى الذى حاول أن يحكم عمان بالقهر والعسف وفر كثير من الأهالى إلى البصرة وإلى شيراز ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل فترك مقره ولحق بالساحل إلى أن أدركته نجدة عظيمة تمكن بها

من قمع الثورة وأرهف الحد فى الأهالى وقطع الأيدى وصلم الآذان وعطل قنى المياه التى يشرب منها السكان وأحرق الكتب وفعل بالناس الأفاعيل وما كاد يرجع إلى البحرين حتى ثار الأهالى ثانية وقتلوا العامل الذى استخلفه على عمان .

وعاد العمانيون إلى انتخاب أئمتهم فتوالت عدة أئمة مثل محمد بن حسن الخروسى وعزان بن الحزر وعبد الله بن محمد الهدانى والصلت بن قاسم وحسن ابن سعيد الحوارى وعادت الفتن إلى البلاد بعد هؤلاء واستمرت إلى أن ظهر القرامطة فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها واختير للإمامة محمد ابن يزيد الكندى .

وفى عهد الكندى هذا جهزت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندى وانتخب العمانيون سيعد بن عبد الله ، وبعد وفاته سنة ٣٢٨ ﻫ انتدبوا رشيد ابن الوليد وأطاعه الجميع وحصل اضطراب فى آخر أيامه ومال جماعة إلى حكم الخليفة فانهزم الإمام وفارق أصحابه وبقيت عمان تحت حكم الخلافة إلى سنة أربعمائة هجرية حيث ضعفت الدولة فى بغداد عن إدارة هاتيك البلاد .

بنو نبهان :

عاد العمانيون إلى انتخاب أئمتهم بعد تقلص ظل الخلافة فتولى الخليل ابن شاذان وراشد بن سعيد اللذين استعان بهما أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمى إمام الأباضية فى حضرموت على الصليحى وغيره من معارضيه وكان ذلك فى أواسط القرن الخامس الهجرى .

وبعد وفاة راشد بن سعيد تولى ابنه حفص ثم رشيد بن على ثم أبو جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩ ﻫ ثم استولى على القطر بنو نبهان وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة (٢٦٠) .

وفى تحفة الأعيان : أن بنى نبهان قوم من العتيك صار الملك إليهم بعد الأئمة السابقين قال ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكراً إلا من ذكره أبو بكر أحمد بن سعيد الستالى فى ديوانه فقد ذكر منهم : أباعبد الله محمد

ابن عمر بن نبهان وأخاه أبا الحسين أحمد وأبا القاسم على بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان وغيرهم .

ومن شعر الستالى هذا فى ملوك بنى نبهان قوله :

حلى الملوك وتيجانها وبيت المعالى وإيوانها
وباس الكماة وإقدامها وحلم الكفاة وإحسانها
توارثها الأزد حتى انتهت إلى أن حوى الإرث نبهانها
أمير العتيك تسامى به كهول العتيك وشبانها
أنبهان إنك من عصبة نماها إلى المجد قحطانها
هم العين فى يعرب كلها وأنت من العين إنسانها
إذا طلبت مكرمات العلا بدا فى جبينك عنوانها
وأنت إذا صعبت حاجة أتى من يمينك إمكانها

وفى أيامهم حاول الإيرانيون أن يستولوا على عمان وجاء فخر الدين أحمد ابن الداية بجيش من شيراز فاجتاح سواحل عمان ثم إن أمير هرمز محمود ابن أحمد الكوسى وهو من أصل عربى اجتاح بلاد عمان أيضاً بمساعدة المغول الذين كان قد انضم إليهم ووصل بجيشه إلى ظفار ولكن العرب هاجموه فى رمال الصحراء وقضوا على جيشه .

وقد استمر ملك بنى نبهان إلى سنة ٨٣٩ ﻫ وكان الأهالى قد ضاقوا بحكمهم فقد أخذوا يظلمون الناس ويحكمونهم بالعسف والجبروت فانتخب العمانيون إماماً من قبيلة الأزد وينقل السالمى صاحب تحفة الأعيان أن بنى نبهان عادوا إلى حكم عمان مرة ثانية سنة ٩٦٤ تسعمائة وأربع وستين هجرية وكان أول ملوكهم فى هذه الفترة سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان .

الإمام ناصر والبرتغال :

الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان من أصل عربى صريح ومن أقدم الأرومات الأباضية تولى الإمامة سنة ١٠٣٤ ﻫ (١٦٢٤ م) وكانت بعض المدن المحصنة فى الداخل بأيدى زعماء يلقبون أنفسهم ملوكا وكانت مدن أخرى

يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها ولم يكن بقى من الثغور البحرية بيد الأهالى سوى فرضة لاوة أما البقية فقد دخل فى حكم أمير هرمز وهرمز هذه جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس .

وفى ذلك الوقت كان البرتغال قد استأسدوا وظهروا على بلاد الشرق وصارت لأساطيلهم الكلمة العليا واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوكرك كانت أولى غزواته إلى الهند بثلاث بوارج حربية سنة ١٥٠٣ م وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند وهو الذى منع الترك العثمانيين من الدخول إلى الهند ودمر عدن مرتين بالمدافع واستولى على جزيرة هرمز وبنى فى جزيرة سنطرى حصناً ليحافظ على أهلها الذين كانوا من النساطرة (نصارى) وعقد محالفة مع ملك الحبشة وحدثته نفسه بالاتفاق معه على تحويل مجرى النيل من السودان إلى البحر الأحمر ليتمكن من تدمير القطر المصرى وبالجملة فقد كان فى وقته الآفة العظمى على الإسلام(١) .

وكانت سواحل عمان من بين المناطق التى غزاها البوكرك فى الشرق العربى وكان البرتغاليون من قومه قد فتحوا قسما من مراسيها مثل مسقط وصحار وغيرها وكانت لهم فيها حاميات كبيرة فهاجمهم الإمام ناصر بن مرشد وانتزع من أيديهم أكثر المواقع التى كانوا يحتلونها كما طردهم من رأس الخيمة ، وأجبرهم على أداء الجزية وعدم التعرض لحرية التجارة .

استمر حكم الإمام ناصر بن مرشد ستا وعشرين سنة حرر البلاد أثناءها من السلطة الأجنبية إلا بقايا بقلعتى مسقط والمطرح وحصن صحار كان البرتغاليون يؤدون الجزية مقابل احتفاظهم بهذه المواقع الحربية وكان فاضلا حازماً تقياً محبوباً من الأهالى ، أدركته الوفاة سنة ١٠٥٩ هـ (١٦٤٩ م) فخلفه ابن عمه سلطان بن سيف .

وجه سلطان بن سيف معظم همته إلى ترويج التجارة وعمارة أسواق الأخذ والعطاء واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه وأنفق فى هذا السبيل أموالا طائلة وجدد قلعة نزوة وأجلى بقية البرتغاليين من أرض عمان وفتك

---

(١) شكيب أرسلان فى حاضر العالم الإسلامى ج ٤ .

بهم وأرسل بوارج حربية تغزو البرتغال فى ساحل كوجرات فى الهند فاجتاحت عساكره (ديو) ودامان وقفلت بغنائم وافرة وآنية كثيرة مما كان فى الكنائس وتوفى سلطان سنة ١٠٧٩ هـ ١٦٦٨ م وكان معروفا بحسن السيرة فى الرعية وسداد الرأى وجلال القدر .

سيف بن سلطان :

بعد وفاة سلطان بن سيف خلفه فى الحكم ابنه بلعرب وكان محبا للعلم والعلماء فثار عليه أخوه سيف وانقسم الناس إلى فريقين فريق يشايع سيفاً والآخر يتحزب لأخيه وطالت الفتنة حتى توفى بلعرب وصفا الوقت لسيف فوجه همته كأسلافه إلى مكافحة البرتغاليين فأجلاهم عن مومباسه أحد ثغور أفريقيا الشرقية التى آلت بعد ذلك إلى سلطان زنجبار ثم استولى عليها الانجليز سنة ١٨٩٠ م كما أجلاهم عن جزيرة بمبا وغيرهما من الجزر والسواحل التى كان العمانيون قد أحرزوها فى شرقى أفريقية فجاء البرتغاليون وأخذوها من أيديهم فى نحو سنة ١٥٠٣ م فكان استردادها على يد سيف بن سلطان سنة ١٦٩٤ م[1]

واجتاح أسطول سيف جزيرة سلزيت بقرب بمباى الهند وكذلك مدينتى بارسالور ومانغالور ولم يقدر راجا كارنانيك أن يذب عنهما .

وكان سيف حكيما مدبراً محباً للعمران بصيراً بالإصلاح فانتظم بإدارته جمهور المرافق والمصالح وهو الذى شرع فى بلاده بحفر قنى المياه تحت الأرض لأجل الرى ففاضت الخيرات وشرقت الزراعة كما اعتنى بغراسة النخيل واستجلب أصنافه حتى صار ذا ثروة واسعة وكانت حاضرة سيف مدينة رستاق وتوفى بها فى ٢ رمضان سنة ١١٢٣ هـ ١٧١١ م .

سلطان الثانى :

وقام بالأمر بعد وفاة سيف ابنه سلطان وكان يعرف سلطان الثانى فنقل كرسى المملكة إلى مدينة الحزم وانتزع البحرين من أيدى العجم الذين كانوا

(١) شكيب أرسلان فى حاضر العالم الإسلامى ج ٤ .

استولوا عليها سنة ١٦٢٢ م منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز وتوفى سلطان عن ولدين هما مهنا وسيف تنازعا الحكم فاضطرب الأمر وتفاقمت الفتنة وظهر طامعون فى السيطرة ادعوا الامامة ولم يعدموا أنصاراً من الأهالى فالتجأ سيف إلى نادرشاه صاحب فاس فأمده بجيش تقدم إلى الزاهرة وتغلب على منافسيه وأفحش فى القتل والنكاية وأخذ العجم يجتاحون البلاد ويوقعون بالأهالى وندم سيف على ما صنع من صداقة العجم .

آلبو سعيد :

كان سيف بن سلطان محتاجا إلى مشير يعتمد على رأيه فأشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه أحمد بن سعيد من عنزة يقال لها البو سعيد فتولى هذا مدينة صحار وأحسن إدارتها وحمد الناس طريقته فحسده سيف وأراد أن يقبض عليه إلا أن الناس أصلحوا بينهما فلما اتفقت كلمة العمانيين أخيراً وتمت المبايعة لسيف بدون منازعة بعد احتلال الأعاجم لبلادهم ثقل الأمر على الأعاجم فجلوا عن البلاد إلا الجيش الذى كان أمام صحار فإنه بقى يحاصرها .

وفى هاتيك الأثناء قام رجل فى مدينة النخل اسمه سلطان بن مرشد من بنى يعروبة ، فادعى الإمامة سنة ١٥٠ هـ — ١٧٣٨ م وانتزع أكثر البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جملتها مسقط فاستغاث سيف بالعجم مرة ثانية ووعدهم بالتخلى لهم عن صحار إن ضمنوا له الاستقلال بالإمامة . فسرّح العجم جيشاً إلى مسقط استولى على البلد والحصون ولكنهم لم يسلموها إلى سيف ، فذهب هذا إلى بلدة الحزم ومات بعد ذلك بقليل .

أما سلطان بن مرشد ، فمات على أثر جراحة أصابته فى قتال العجم على صحار ، فلم يبق من الزعماء إلا أحمد بن سعيد الذى كان له الفضل الأكبر فى امتناع صحار وإجلاء الإيرانيين عنها .

ثم إن أحمد هذا استولى أيضاً على برقة وحاصر مسقط ، فأرسل الإيرنيوان ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف إلى الشاه يلتمسون منه الأمر بتسليم حصون

مسقط إلى ماجد ، فأصدر الشاه الأمر اللازم إلى الحامية الفارسية بتسليم الحصون إليه ، فوقع الأمر باتفاق غريب فى يد أحمد بن سعيد ، فأبلغه إلى الحامية ، وخرج هؤلاء على أنهم سلموا الحصون إلى أحمد بن سعيد باسم ماجد .

وبعد ذلك أعد أحمد بن سعيد وليمة عظيمة دعا إليها الإيرانيين فى برقة كانت نهايتها أن هجم الأهالى عليهم وذبحوهم ونجا بقيتهم إلى السفن قاصدين ساحل فارس ولما كان ملاحة السفن هم من العرب فقد أحرقوا السفن لإهلاك الإيرانيين وقذفوا هم أنفسهم فى اليم ونجوا سباحة إلى الشاطىء وهكذا انتهى أمر الفرس ببلاد عمان .

واجتمع الرؤساء والأعيان عند ذلك ببلدة رستاق ونصبوا أحمد بن سعيد إماماً سنة ١١٥٤ هـ — ١٧٤١ م ، فأحسن التدبير وسن للمملكة قوانين مالية وتجارية واستبقى لنفسه إمارة الجيش البرى ، وعهد إلى رجل من خواصه بنظر الأسطول ونظم جيشاً دائماً .

وفى سنة ١١٧٠ هـ — ١٧٥٦ م استولى العجم على البصرة ، فذهب أحمد بعشر سفائن حربية تجر عدداً كبيراً من القوارب حمل عليها عشرة آلاف مقاتل وهزم الإيرانيين ونصر الدولة العثمانية نصراً مؤزراً فسرت الدولة منه وأجرت عليه راتبا سنوياً كان لا يزال جارياً على أئمة مسقط إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى .

وحدثت فى أيام أحمد بن سعيد ثورات داخلية لم يكن لها كبير أهمية كان آخرها ثورة ولديه سيف وسلطان فقد ثارا عليه واعتصما بقلعة برقة ثم تماديا فى الجرأة حتى أخذا الحصون التى بظاهر مسقط ولكن أحمد عالج هذه القضية بالحكمة وانتهت بينه وبين ابنيه بسلام .

وأدرك أحمد بن سعيد أجله فتوفى فى ذى القعدة سنة ١١٨٨ هـ — يناير سنة ١٧٧٥م بعد أن حكم أربعا وثلاثين سنة وخلص بلاده من سلطة الأعاجم .

آخر أئمة عمان :

أقرت أكثر البلاد بعد وفاة أحمد بن سعيد بإمامة ابنه سعيد ، ثم أرادوا خلعه لأسباب نقموها عليه فلم يتم لهم ذلك إلا أن حامد بن سعيد استولى على

مسقط وعجز أبوه عن إخضاعه ، فجعل حامد مسقط هى العاصمة بدلا عن رستاق وعظمت هذه المدينة فى أيامه وتولى الأمر عشر سنوات إلى أن مات فى رجب سنة ١٢٠٦ هـ .

وعاد الأمر إلى الإمام سعيد بعد وفاة ابنه حامد المتغلب عليه ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين إخوته وأولاده وصار بعضهم يقاتل بعضاً وأخذ أخوه سلطان مدينة مسقط واستبد بالأمور وعقد معاهدة تجارية بينه وبين شركة الهند الإنكليزية فى أغسطس ١٧٩٨ م ثم معاهدة أخرى بينه وبين الإنكليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ م يحق بموجبها لانكلترة إقامة معتمد بمسقط .

وطفق سلطان يوسع مناطق سلطته فانتزع السويق والمضع من يد أخيه سعيد وافتتح جزائر قشم وهرمز والبحرين فى خليج فارس وجعل ابنه سالما أميراً عليها إلا أن قبيلة العتوب التى كانت تلى أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها .

وفى أثناء حكم سلطان غزا الوهابيون عمان وأخذوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية وخاف أهل الجنوب من تقدمهم فعقد سلطان اجتماعا قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية عجل بالانصراف .

وقتل سلطان فى شعبان سنة ١٢١٩ — ٣٠ نوفمبر ١٨٠٤ م عندما كان عائداً من البصرة بواسطة البحر وكان أخوه سعيد لا يزال فى رستاق على امامته الاسمية والبلاد فى شبه فوضى بسبب تعدد الأمراء ولا يزال للوهابيين جنود فى البريمى وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان فى لَمّ الشعث وجمع الكلمة فأجمعا أخيرا على الاستنجاد بصاحب فارس فأمدهما بثلاثة آلاف فارس ركبت البحر من بندر عباس إلى برقة وهناك وقع القتال بينها وبين الوهابيين فلم يفز أحد بالآخر ولم تتخلص عمان من حكم الوهابيين إلا بعد أن حاربهم إبراهيم باشا بن محمد على خديوى مصر واحتل الدرعية سنة ١٨١٨ م .

وتوفى الإمام سعيد بن أحمد بن سعيد بعد ذلك بمدة وجيزة وهو آخر

من لقب من رؤساء عمان بالإمام ثم اصطلح أهل عمان على تلقيب الحاكم منهم بالسيد بدلا من الإمام وكان أول من لقب بالسيد هو سعيد بن سلطان الذى آل إليه أمر عمان فى أواخر أيام عمه سعيد بن أحمد وبعد وفاته .

السيد سعيد :

لم يحدث موت الإمام سعيد بن أحمد فراغا كبيرا لأن أمر عمان كان قد آل إلى ابن أخيه السيد سعيد بن سلطان مدة طويلة واتجه بعد ذلك إلى توسيع مستعمرات عمان فى شرقى أفريقية وبينما كان مقيما فى زنزيبار لهذا الغرض اغتنم بعض أعدائه فرصة غيابه الطويل فاستولوا على بعض المراسى والمدن وأخطر السيد سعيد إلى استمداد حلفائه الانكليز فأرسلوا أسطولا إلى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم وفى أكتوبر سنة ١٨٥٦ م توفى السيد سعيد على ظهر بارجة كانت ذاهبة به إلى زنزيبار وترك خمسة عشر ولدا .

كان توينى بن سعيد بكر أولاده والى عمان فى حياة أبيه فوقع الخلاف بينه وبين أخيه ماجد الرابع من أولاد السيد سعيد وانتهى الخلاف بأن يبقى ماجد سلطانا على زنجبار ويؤدى أتاوة سنوية إلى أخيه توينى فى مسقط ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز توينى أسطولا عظيما لغزو زنجبار فتوسطت الحكومة البريطانية على أن يكون كل منهما سلطانا فى محله ويودى ماجد الاتاوة السنوية إلى أخيه بدلا من حقوق عمان على زنجبار وأفريقية الشرقية وكان ذلك سنة ١٨٦٢ م .

وثار تركى بن سعيد على أخيه توينى وكان الأول واليا على صحار فاستصرخ توينى الوهابيين فأمدوه بجيش قمع به ثورة أخيه تركى وانفرد بالحكم حتى مات . فقد وجد ذات يوم مقتولا قيل اغتاله بعضهم وهو نائم بمؤامرة ابنه سالم وجلس سالم مكان أبيه وتودد إلى الانكليز واعترف هؤلاء به أميراً بحجة أنه لم تثبت عليه تهمة قتل أبيه وبأن أهالى البلاد قد بايعوه .

أما تركى أخو توينى فإنه أخذ بمناوأة ابن أخيه واستولى على صحار والمطرح

وكاد يدخل مسقط لولا أن الإنـكليز أرسلوا بارجة حربية أوقفته عند حده ثم أخذوه إلى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقا يقوم بأوده ، ثم ثار على سالم قريب له يدعى عزان بن قيس ودخل مسقط ففر سالم منها وبلغ ذلك تركيا فجاء من بمباى إلى مسقط وتسلم زمام الإماره وطرد عزان بن قيس وكان أخوه ماجد قد مات فى زنجبار فعين أخاه برغشا سلطاناً عليها فى أكتوبر سنة ١٨٧٠ م .

وفى سنة ١٨٨٨ م خلفه ابنه السيد فيصل بن تركى وذلك بموافقة انجلترا التى أصبحت بلاد عمان تحت حمايتها بموجب المعاهدة التى عقدتها مع سلطان البلاد اما زنجبار والسواحل الافريقية التى أسس ملوك عمان فيها مملكة عربية منفصلة عن مسقط سنة ١٨٥٦ م بعد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون فقد تقاسمتها انـكلترة مع ألمانيا وايطاليا ثم انتقلت إلى بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى وظلت سلطنة زنجبار عربية تدار بواسطة وزارة المستعمرات البريطانية .

وهكذا أصبحت عمان إمارة صغيرة لا تملك لنفسها نفعاً أو ضراً بعد أن كانت مملكة قوية قال عنها الأمير شكيب ارسلان[1] بأنها كانت أقوى دولة بحرية فى آسيه لا فى بلاد العرب وحدها ، وقال إنه قرأ فى بعض المولفات الأوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك مائة بارجة حربية .

بعد وفاة فيصل بن تركى تولى شئون البلاد ابنه تيمور الذى تنازل عن الملك سنة ١٣٥٠ هـ لابنه سعيد بن تيمور السلطان الحالى .

وفى عمان الآن حكومتان إحداهما مدنية عاصمتها مسقط وهى التى يتولى شورتها السلاطين من عائلة البوسعيد . ودينية عاصمتها نزوه تكونت سنة ١٣٣١ هـ عقب الثورة التى قام بها الأهالى احتجاجا على موافقة سلطان مسقط على وضع البلاد تحت حماية الانـكليز وحكومة نزوة كهذه مستقلة استقلالا

---

(١) فى حاضر العالم الإسلامى ج ٤ المطبوع فى القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

تاما ويحيط بالإمام نخبة من العلماء والكبراء يشاورهم فى الأمور ويشركهم فى إدارة البلاد وعند وفاة الإمام يجتمع أهل الحل والعقد من رجال البلاد فيختارون من تتوفر فيه الكفاءة والشروط المطلوبة عندهم .

ولم تحدد الحدود نهائيا بين الحكومتين وإنما هناك حدود وهمية ، فحكومة مسقط تملك السواحل ويبلغ طولها نحو أربعمائة كيلو متر ، وحكومة عمان تسيطر على الداخل ولا يتجاوز عرض أراضى الأولى أربعين كيلو مترا فى بعض الجهات .

٢٣ — اليمن

فى عهدها الإسلامى

حدودها السياسية — مساحتها سكانها — ألويتها مناطقها — أهم بلدانها أدوار التاريخ الإسلامى فى اليمن — عمال النبى وخلفائه — جهاد اليمنيين وهجرتهم — الحكم الأموى — الحكم العباسى — دولة آل زياد — الدولة النجاحية — الدولة اليعفرية — الصليحيون — داعى القرامطة — آل زريع آل حاتم — آل مهدى — الأيوبيون — بنو رسول — آل طاهر — دولة المماليك — حكم العثمانيين — الأدارسة فى عسير .

حدودها السياسية :

اليمن من الأقطار العربية التى انفصلت عن تركيا بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م ونالت استقلالها بموجب التصريح الذى أصدرته الحكومة التركية سنة ١٩٢٣م بتنازلها عن سيادتها على البلاد العربية التابعة لها إلى أهل البلاد أنفسهم .

ويحد المستقل منها الآن سياسياً تحت نفوذ الإمام الحالى من الغرب البحر الأحمر ومن الشرق حضرموت والربع الخالى ومن الجنوب المقاطعات الجنوبية ومن الشمال بلاد عسير ونجد .

مساحتها — سكانها :

تقدر مساحة اليمن بنحو أربعين ألف ميل مربع(١) يسكنها حوالى أربعة ملايين نسمة تقريباً ، وأهم القبائل فيها حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو سلام وبنو مطر والمكارمة .

ألويتها — مناطقها :

فى اليمن أربعة ألوية : لواء صنعاء . لواء الحديدة . لواء تعز . لواء صعدة وتنقسم إلى ثلاث مناطق :

---

(١) يقدر آخرون مساحة اليمن بـ ٧٥ ألف ميل مربع .

١ — منطقة تهامة وهى أرض رملية شديدة الحرارة محاطة من الغرب بالبحر الأحمر ومن الجنوب عدن والمقاطعات الجنوبية . ومن الشرق جبال السراه ومن الشمال تهامة الحجاز وهى أرض صالحة لغراسة النخيل وزراعة الحبوب والقطن والتبغ ومناخها رطب .

وتشتمل هذه المنطقة على مدن تاريخية قديمة ويذكر المؤرخون أن هناك آثار لمدن كانت لها شهرة كبيرة وهى الآن خربة ومعظمها فى وادى سردد والكدرا ووادى سهام ونشال ووادى يرمع والمحالب فى وادى مور .

ومن أشهر مدن تهامة : الحديدة وبيت الفقيه والمخا وزبيد وميدى واللحية والزيدية .

٢ — منطقة الجبال والسهول الشرقية والقسم الجبلى منها يشتمل على مدن عديدة منتشرة فى غير انتظام وتزيد فى الارتفاع على ٣٧٠٠ متر ويتلوه انحدار هائل كما تتخلله أودية عديدة ، أما السهول الشرقية فقريبة الشبه بمنطقة تهامة ولكنها جرداء قليلة المياه وتشتمل على عدة واحات تروى بالآبار ويسكنها القبائل الذين يعيشون على تربية المواشى والزراعة .

٣ — منطقة الهضبة وفيها يكثر العمران والزراعة والسكان وفيها مدن عظيمة لها تاريخها مثل صنعاء وعمران وصعده وإب وهى محاطة بالجبال شرقا وغربا وتروى بمياه الأمطار الغزيرة .

أهم بلدانها

١ ــ صنعاء :

مدينة تاريخية منذ أقدم العصور وقد كانت مسرحا لأهم الأدوار والتطورات فى تاريخ اليمن الإسلامى يبلغ عدد سكانها نحواً من ٦٠ ألف نسمة وتقع هذه العاصمة فى واد بين جبلى نقم وعصر وتبعد عن عدن شمالا بنحو ٥٥٠ كيلو متر يشقها طرق معدة للسيارات .

وتقع هذه المنطقة بالقرب من خط الاستواء وترتفع عن سطح البحر ٢٩٠٠ متر تقريبا ومناخها معتدل ويكاد الإنسان لا يحس بفارق تغير الأشهر

فى ما عدا شهرى يناير وفبراير فان درجة الحرارة قد تهبط إلى درجة الصفر .

وتنقسم صنعاء إلى ثلاث مجموعات من المدن فالأولى هى صنعاء القديمة وهى محاطة بسور من الطوب النيىء ويبلغ سمكه نحو أربعة أقدام وارتفاعه نحو عشرة أقدام وله أربعة أبواب .

والثانية بئر العزب وهى من المدن الحديثة ومعظم دورها تشرف على حدائق جميلة وفيها ساحات وشوارع وحدائق عامة وفيها المصالح الحكومية ودائرة البريد والتلغراف ويسكن فى هذه الدائرة الموظفون والطبقة الحاكمة .

والثالثة قاع اليهود أو مدينة اليهود وهى مدينة مستديرة لها ثلاثة أبواب وعلى كل باب جماعة من الحرس لا يسمح لغير اليهود بالمبيت فيها ويدخل فى هذه المجموعة سوق اليهود ومدارسهم وتجارتهم .

٢ ــ الحديدة :

هى أكبر مدن تهامة وأشهر موانيها على البحر الأحمر يقدر عدد سكانها بثلاثين ألفاً ٣٠٠٠٠ جميعهم عرب مسلمون بينهم قليل من البانيان والبهرة ومن اليونان المشتغلين بالتجارة وهى محاطة بسور بُنىَ سنة ١٢١٥ هجرية وله خمسة أبواب وعدة أبراج وفى داخل السور دود حجرية جميلة بيضاء وحركة التجارة فيها مزدهرة وفيها عدة مبانى حكومية وحرها شديد .

٣ ــ بيت الفقيه :

فى جنوب الحديدة على بعد ١٢ ساعة منها تقع بيت الفقيه وهى مبنية على تل مرتفع يسكنها حوالى خمسة عشر ألف نسمة وحولها نخل كثير واشتهرت بمنسوجاتها الجميلة المتينة من الحرير والقطن وفيها دار للحكومة تتألف من أربعة بروج للجند والإدارة ومدرسة علمية ومكتبة تحوى نحواً من ألف مجلد فى مختلف الفنون .

٤ ــ اللحية :

فرضة على البحر الأحمر تقع شمال الحديدة على بعد ٢٤ ساعة منها . محاطة بآكام مرتفعة عليها قلاع حربية وفى الجهة الغربية منها على بعد ميلين من البحر الأحمر عدة جزر صغيرة فيها ثكنات للجيش المرابط لخفر السواحل .

٥ ـ ميدى :

مدينة واسعة مبنية بالأحجار وهى مركز مهم للتجارة وتبلغ المسافة بينها وبين الحديدة نحو (٢٠٠) ميل وهى محاطة كسائر المدن الساحلية بنقط عسكرية وتبعد عن البحر بميلين .

٦ ـ الصليف :

جزيرة فى البحر تبعد عن ابن عباس بثمانية أميال يقابلها من الغرب جزيرة كمران وتبعد عنها بأربعة أميال وفى جزيرة صليف قرية تسمى باسمها وفى الجهة الغربية رصيف لنقل الملح ، وعمارات فيها آلات ميكانيكية لاستخراجه وسكك حديدية تجرى فيها العربات التى تحمل الملح إلى البواخر .

٧ ـ زبيد :

تقع جنوب بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات بنيت فى فم وادى زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل وأحيطت بسور من الآجر فيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وهى مشهورة بالعلم والفضل والدين والصلاح وتخرج منها علماء كبار لا يحصى عددهم وطار ذكرهم فى الآفاق وقد كانت قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والأمراء والتجار وبدور العلم والعلماء واللغويين أمثال ملوك بنى رسول أصحاب التآليف العديدة فى التاريخ والأدب والطب .

ويرجع عهد بنائها إلى تاريخ بنى رسول وما زالت أبنيتها تعظم وتتسع إلى اليوم .

٨ ـ المخا :

هى مدينة واسعة كبيرة كانت فى العصور المتوسطة تعد من أكبر موانى اليمن ، بل كل جزيرة العرب تصل إليها سفن الهند والحبشة والزنج وقوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتتبادل العطور والطيب والأصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق وكان فيها من ٧ إلى ٨ آلاف دار وعشرات الخانات والمستودعات لا تزال أطلالها قائمة وكان البن اليمانى الناتج من لواء تعز وأقضيته يصدر منها ويعرفه الإفرنج باسم « بن مخا » .

وظلت هذه المدينة معمورة حتى طمر البحر مرفأها بالرمال ، فاضطرت السفن إلى التحول إلى حديدة وعدن وفى سنة ١٢٥٠ هـ هاجمها العسيريون ونهبوها وخربوها وفى هذه الأيام بدأت تستعيد شيئاً من حياتها .

٩ ــ تعز :

هى مدينة كبيرة محاطة بسور فى واد منخفض عن سفح المنحدر الشمالى لجبل صبر الذى يبلغ ارتفاعه ٩٨٦٢ قدماً . وكانت مقر الملوك من بنى رسول ولهم فيها آثار لا تزال موجودة إلى الآن . وأكثر أبنيتهم بمدينة ثعبات وصينة والقاهرة وقد وصفها صاحب صبح الأعشى فى ج ٥ فقال :

تعز بلد كثير الماء بارد الهواء كثير الفاكهة ولسلطانهم بستان يعرف بالينعات فيه قبة ملوكية ومقعد سلطانى فرشهما وأزرهما من الرخام الملون بهما وفيهما عمد قليلةالمثل . يجرى فيهما الماء من نفثات تملأ العين حسناً والأذن طرباً بصفاء نميرها وطيب خريرها وترمى شبابيكهما على الأشجار قد نقلت من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعاً ولا أجمع منه حسناً ولا أتم صورة ولا معنى وفى هذه المدينة كثير من المساجد أشهرها جامع المظفر ثم الأشرفية فالمعتبية وفى الجميع فن معمارى قديم وأشكال هندسية لها روعتها وبهجتها كما أن فيها معاهد علمية ومكاتب قديمة وأوقافاً عظيمة فى سبيل التعلم والتعليم والسكان يتراوح عددهم بين ستة آلاف وسبعة آلاف نسمة .

١٠ ــ الحجرية :

فضاء واسع من أفضية لواء تعز وهو أهمها وفيه ناحيتان القبطة وجبل حبش يحده شمالا الصبر ومقبنة وجنوباً الصبيحة ولحج وشرقا الحواشب وماويه وغرباً موزع وباب المندب مركزه (تربة ذبحان) عذبة الماء عليلة النسيم طيبة الهواء وفيه جمرك المفاليس من أهم جمارك اليمن فى الجنوب وجمرك معبق ، وكانت الحجرية تسمى المعافر ومعافر حر من همدان وإليه تنسب الثياب المعافرية .

١١ ـ أب :

مدينة ذات سور مزدحمة بالسكان كانت تعرف بمدينة الثجة وتنحدر إليها المياه من جبل بعدان المطل عليها من جهة الشرق .

١٢ ـ الخوخة :

مدينة على الساحل طيبة الهواء جميلة المنظر كثيرة الأشجار وهى إحدى الموانىء اليمنية الواقعة على شاطىء البحر الأحمر وتكاد تكون تجارة زبيد وحيس مقصورة عليها وبينها وبين المخا نحو خمسة وعشرين ميلا .

١٣ ـ جزيرة الشيخ سعيد :

جبل له مكانته العسكرية يسمى جبل طارق الجديد وتوجد فيه قرية بنفس الاسم وقد شيدت الحكومة اليمنية فيه حصوناً وقلاعاً .

١٤ ـ باب المندب :

مضيق يوصل البحر الأحمر بالمحيط الهندى أنشئت حوله ثكنات ودار مؤلفة من ثلاث طبقات لكبار الموظفين وحول الدار مستشفى ومركز للبريد .

٢٤ - أدوار التاريخ الإسلامى

فى اليمن

فى فصول سابقة تحدثنا فى شىء من التفصيل عن تاريخ اليمن قبل الإسلام، ونستعرض الآن فى إيجاز أدوار التاريخ الإسلامى فى اليمن استعراضا سريعا يعطى القارئ فكرة عن أهم الحكومات التى تعاقبت على البلاد فى مختلف عهودها الإسلامية

تركنا اليمن تحت احتلال الفرس الذين استنجد بهم سيف بن ذى يزن الحميرى على الأحباش وكذلك جاء الإسلام واليمن خاضعة لفارس فى سياستها العليا مقسمة إلى مناطق تدين بالطاعة لرؤسائها المحليين .

فى العام السابع الهجرى أرسل النبى عليه السلام المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ليدعو قومه إلى الإسلام وذلك أول دخول الإسلام فى اليمن .

وأول بيت أسلم من أهل اليمن عمار بن ياسر العنسى ووالده ووالدته وأول وفد يمنى وفد نصارى نجران فى السنة العاشرة من البعثة ولما سمعوا القرآن آمنوا به وفيهم نزل قوله تعالى « والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به » .

ثم وفد بعدهم ضماد الأزدى والطفيل بن عمرو الدوسى أما أول وفد يمنى بعد الهجرة فوفد أبى موسى الأشعرى وأصحابه أهل وادى زبيد عام خيبر وقد أشركهم النبى فى غنائمها ثم وفد دوس رهط أبى هريرة .

وتتابعت وفود اليمن بعد ذلك كوفد تجيب من كندة والأشعث بن قيس الكندى ومن معه ووفد نجران بنى عبد المدان ووفد همدان وخولان ووفد قبائل مذحج النخع وصداء وزبيد ووفود جرير بن عبد الملك البجلى الأحمسى

ووائل بن حجر الحضرمى وفروة المرادى والأبيض بن جمال المار بى وغيرهم من وفود اليمن .

عمال النبى وخلفائه :

بعد أن أعلنت اليمن إسلامها أرسل النبى عليه السلام عماله على اليمن فجعل على صنعاء وأعمالها المهاجر بن أبى أمية المخزومى وعلى أعمال الجند معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعرى .

ولما توفى رسول الله (ص) كان عامله على صنعاء أبان بن سعيد بن العاص وقيل فيروز الديلمى وعلى الجند معاذ بن جبل أو يعلى بن أمية وعلى مأرب أبو موسى الأشعرى وكان معاذ بن جبل ينتقل إلى عمل كل واحد منهم يعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين .

وكان يحكم اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين عمال من قبلهم كيعلى بن أمية عامل صنعاء أيام أبى بكر وعمر وعثمان وكعبيد الله بن عباس عامل على فى صنعاء أيضا وفى آخر خلافة الإمام على أرسل معاوية جيشا إلى اليمن بقيادة بسْر ابن ارطاة لمحاربة شيعة على فاستولى على صنعاء وكان عبيد الله بن عباس قد غادرها تاركا فيها طفليه عبد الرحمن وقثم ومستخلفا عليها عمر بن أراكة الثقفى فظفر بهم ابن ارطأة وقتلهم جميعا مع خلق كثير .

ولما بلغ ذلك عليا جهز ألفى فارس من الكوفة ومثلها من البصرة وجعل على الجميع حارثة بن قدامة السعدى فوصل الجيش الى اليمن وهرب بسر وأتباعه وظفر حارثة ببعضهم فقتل منهم من يستحق القتل .

جهاد اليمنيين وهجرتهم :

كتب أبو بكر الصديق إلى قبائل اليمن يستنفرهم إلى الجهاد وما كاد رسول الخليفة يتلو كتابه حتى خف ذو الكلاع الحميرى إلى فرسه وسلاحه ونهض فى قومه ومن عسكر معه من جموع اليمن وخف قيس بن هبيرة المرادى فى مذحج وجندب بن عمرو الدوسى فى الأزد وحابس بن سعد الطائى فى طيء ويقال بأنه

وصل إلى الخليفة فى يوم واحد عشرون ألفاً أنفذ نصفهم إلى الشام وهم قبائل حمير وعك وأنفذ نصفهم إلى العراق وهم قبائل همدان ومذحج ومن إليهم .

ولم يعد أحد من الفاتحين إلى اليمن بل استوطنوا العراق والشام ومصر والأندلس والحجاز وقد نبغ من أعقابهم رجال بارزون فى العلم والقضاء والسياسة والقيادة وغيرها .

منهم عامر الشعبى الهمدانى ، ومسروق الهمدانى ، وإبراهيم النخعى المذحجى وعلقمة النخعى وعمر بن ميمون المذحجى وغيرهم من فقهاء العراق ، وفى الشام أبو عمر الأوزاعى الحميرى وأبو محمد عبد الله بن يوسف الكلاعى الدمشقى وعبد الرحمن الغافقى العكى أمير الأندلس وغيرهم .

ومن عقبهم أيضا القاضى عياض اليحصبى الحميرى مؤلف الشفاء والملك المنصور بن أبى عامر المعافرى الحميرى وهو الذى غزا الإفرنج ستا وخمسين غزوة ما كسرت له فيها راية كما وصفه صاحب نفح الطيب قال وقبره فى قرية سالم شرقى الأندلس وكالإمام مالك ابن أنس الأصبحى الحميرى صاحب الموطأ والمهلب بن أبى صفرة الأزدى والإمام أبى داود الأزدى صاحب السنن وأبى جعفر الطحاوى الأزدى وعبد الملك بن هشام المعافرى مصنف السيرة وأبى العلاء المعرى التنوخى القضاعى والمعتضد بن عباد اللخمى أحد ملوك الأندلس وأبى قاسم الطبرانى اللخمى وأمثال هؤلاء الأعلام كثير وكثير .

الحكم الأموى :

خضعت اليمن للحكم الأموى عقب وفاة الخليفة الرابع فقد استعمل معاوية عليها عثمان بن عثمان الثقفى وبعد وفاة معاوية امتد سلطان بن الزبير إلى اليمن فأصبحت ولاية تابعة له يليها عمال من قبله ولكن الأمر ما لبث أن عاد إلى سلطان بنى أمية بعد قتل ابن الزبير ويقول ابن خلدون بأن معاوية ولى على صنعاء فيروز الديلمى سنة ٥٣ ﻫ ثم جعل عبد الملك اليمن فى ولاية الحجاج

لما بعثه لحرب ابن الزبير سنة ٧٢ ﻫ فاستعمل الحجاج أخاه محمد بن يوسف الثقفي على صنعاء ولم يزل عاملا عليها حتى توفى سنة ٨٦ ﻫ .

وتوالى عمال بنى أمية على اليمن طيلة الحكم الأموى حتى آل الأمر إلى آخر خليفة منهم وهو مروان بن محمد فقد كان عامله فى صنعاء القاسم بن محمد وفى حضرموت إبراهيم بن جبلة الكندى وفى أيام مروان هذا ثار عبد الله بن يحيى الكندى الحضرمى مطالبا بسقوط مروان سنة ١٢٩ ﻫ وأجلى عامل حضرموت بعد ما حبسه يوما واحتل اليمن بأجمعه بعد قتال شديد وأنفذ جيشه إلى الحجاز فاحتله .

الحكم العباسى :

قال ابن خلدون لما جاءت دولة بنى العباس ولى السفاح على اليمن عمه داود ابن على حتى إذا توفى سنة ١٣٢ ﻫ ولى مكانه محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد الدار ثم تعاقبت الولاة على اليمن وكانوا ينزلون صنعاء حتى انتهت الخلافة إلى المأمون .

وفى أيام المأمون ظهرت باليمن دعاة الطالبيين وانتشرت الفتن وقامت الحروب فوفد وجوه أهل اليمن إلى المأمون وكان فيهم محمد بن زياد من ولد عبد الله بن زياد بن أبى سفيان فاستعطف المأمون وضمن له حياطة اليمن من العلويين كما يقول ابن خلدون فوصله وولاه اليمن فقدمها سنة ثلاث ومائتين وفتح تهامة اليمن بعد حروب وهى البلد التى على ساحل البحر الغربى واختط بها مدينة زبيد ونزلها وأصارها كرسيا لمملكته . وولى على الجبال مولاه جعفرا واستولى على اليمن أجمع ودخلت فى طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة وصار فى مرتبة التبابعة .

وفى أيام المأمون أيضا خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر فاستولى على اليمن سنة ٢٠٠ ﻫ وكان اسحق بن موسى بن عيسى والياً على اليمن من قبل المأمون وفى سنة ٢٠٧ ﻫ خرج باليمن أيضا عبد الرحمن بن أحمد من آل أبى طالب فوجه

إليه المأمون دينار بن عبد الله فى جيش كثيف وكتب معه بأمانه فقبل ذلك وخرج به دينار إلى المأمون .

دولة آل زياد :

الدولة الزيادية أول الدول استقلالا باليمن وهى نسبة إلى أول حاكم منهم وهو محمد بن إبراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ ﻫ حين اختل الأمن فى البلاد اليمنية وخيف رسوخ التشيع فيها .

وقد دانت البلاد لمحمد بن إبراهيم وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة ٢٤٥ ﻫ ثم انتقل إلى أبنائه على الترتيب الآتى .

من	إلى	
٢٠٤	٢٤٥	محمد بن إبراهيم بن زياد
٢٤٥	٢٨٩	إبراهيم بن محمد .
٢٨٩	٢٩١	زياد بن إبراهيم بن محمد .
٢٩١		أبو الجيش إسحق بن إبراهيم .
	٤٠٩	عبد الله بن اسحق .

وفى إمارة أبى الجيش إسحق بن ابراهيم قتل المتوكل العباسى ويقول بعض المؤرخين بأن أبا الجيش الزيادى اتسعت جبايته وعظم ملكه حتى بلغت جبايته ألف ألف وثلاثمائة وستة وستين ألف دينار ما عدا ضرائبه على مراكب السند وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن وابين وعلى مغائص اللؤلؤ وجزيرة دهلك

الدولة النجاحية :

فى عهد القادر العباسى ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على أطلال دولة آل زياد على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ﻫ ونجاح هذا من موالى الحسن ين سلامة مولى آل زياد وهو عبد حبشى سمت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن وما إليها وقد ضرب السكة باسمه وكاتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد له على اليمن ولم يزل

مالـكا تهامة قاهراً لأهل الجبال حتى انتزع الجبال كلها من مولاه الحسن بن سلامة وفى سنة ٤٥٢ هـ قتله الصليحى القائم بدعوة العبيد بين ملوك مصر فقام بالأمر بعده بزبيد مولاه كهلان .

وقد استمر الملك فى عقبه بعد وفاته إلى سنة ٤٥٤ هـ على الترتيب الآتى :

من	إلى	
٤١٢	٤٥٢	المؤيد نجاح
٤٥٢	٤٧٣	فترة على الداعى الصليحى
٤٧٣	٤٨٢	سعيد الأحول بن نجاح
٤٨٢	٤٩٨	جياش بن نجاح
٤٩٨	٥٠٣	فاتك بن جياش
٥٠٣	٥١٧	منصور بن فاتك
٥١٧	٥٣١	فاتك بن منصور
٥٣١	٥٥٤	فاتك بن محمد بن فاتك

الدولة اليعفرية(١) :

ابتدأت هذه الدولة فى آخر عهد المتوكل العباسى وقد كان جد هذه الأسرة عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى نائباً عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان والياً للمعتصم على نجد اليمن صنعاء وما إليها .

فلما توفى عبدالرحيم قام فى الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبدالرحيم فى صنعاء وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل إلى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم .

وكانت بداية استقلال يعفر بن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ هـ وقد استمر ملك صنعاء فى خلفائه إلى سنة ٣٨٧ هـ وهذه أسماء ملوكهم :

---

(١) هكذا تـكتب وتقرأ بالياء نسبة إلى مؤسسها يعفر بن عبد الرحيم .

من	إلى	
٢٤٧	٢٥٩	يعفر بن عبد الرحيم .
٢٥٩	٢٧٩	محمد بن يعفر
٢٧٩	٢٧٩	عبد القادر بن أحمد بن يعفر .
٢٧٩	٢٨٥	إبراهيم بن محمد
٢٨٥	٢٨٨	أسعد بن إبراهيم .
٢٨٨	٣٠٣	فترة الأئمة صنعاء والقرامطة .
٣٠٣	٣٣٢	أسعد بن إبراهيم (مرة ثانية) .
٣٣٢	٣٥٢	محمد بن إبراهيم .
٣٥٢	٣٨٧	عبد الله بن قحطان .

وفى الوقت الذى كان اليعافرة يحكمون فيه صنعاء وشبام وكوكبان كان نفوذ آل زياد ثم مولاهم الحسين بن سلامة محصورا آخر الأمر فى تهامة وعدن وكانت جبال اليمن يتولاها الأئمة من أولاد الهادى يحيى بن حسين الرسى مع مزاحمة بعض الرؤساء كآل المناخى فى مذيخرة وبلاد الجند والعدين وآل الضحاك فى بلاد حاشد وآل الكريدى فى بلاد المعافر .

الصليحيون :

مؤسس هذه الدولة أبو الحسن على بن محمد بن على الصليحى الحاشدى الهمدانى كان له أب معروف فى اليمن سنى المذهب وكان قاضيا مطاعا فى أهله وعشيرته وكان الداعى عامر بن عبد الملك الدواحى يلاطفه ويركب إليه لرئاسته وعلمه واستقامته وقد أعجب بذكاء ابنه على وهو دون البلوغ فقربه منه وأوصى له بكتبه بعد وفاته .

عكف أبو الحسن على بن أحمد الصليحى على الدرس حتى تضلع من المعارف وأصبح فقيها فى مذهب الإمامية وله نظر فى علم التأويل وصار يحج بالناس دليلا على طريق السراة بالطائف خمس عشرة سنة وكان الناس يقولون إنه سيملك اليمن بأسره ويكون له شأن فيكره ذلك وينكره .

وفى سنة ٤٢٩ هـ ثار أبو الحسن هذا فى رأس مشار وهو أعلى ذروة فى جبال اليمن وكان معه ستون رجلا قد حالفهم على الموت بمكة فى موسم سنة ٤٢٨ وكان هؤلاء فى عز ومنعة وعدد فى قومهم وعشائرهم .

فلما أعلن الثورة فى ذلك الجبل المنيع أحاط به فيما يقال عشرون ألف ضارب بالسيف وحصروه وسفهوا رأيه وقالوا له إما أن تنزل وإلا قتلناك جوعا فأقنعهم بأنه لم يكن فى ثورته إلا مدافعا عن حقوقهم وخائفا من أن يملكهم غيرهم فانصرفوا عنه .

ولم يمض عليه شهر حتى حصن هذا الجبل واستفحل أمره تدريجيا وكان يدعو للمستنصر الخليفة الفاطمي فى مصر سرا ويعمل الحيلة فى نفس الوقت لقتل المؤيد نجاح صاحب السلطة فى تهامة وقد استكان له أول الأمر ثم دس إليه سما مع جارية جميلة أهداها إليه فقتله سنة ٤٥٢ هـ .

وفى سنة ٤٥٣ هـ كتب الصليحى إلى المستنصر يستأذنه فى إظهار الدعوة فأذن له فطاف أرجاء اليمن يفتح الحصون والتهائم ولم تخرج سنة ٤٥٥ هـ حتى كان ملكه قد عم اليمن بأسرها وفى هذا العام استقر أمره فى صنعاء وأخذ إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه وولى غيرهم فى مناطق نفوذهم واختط عدة قصور بمدينة صنعاء وفى سنة ٤٥٦ هـ دخل عدن وخطب على منبر جامعها .

وفى سنة ٤٧٣ هـ عزم الصليحى على الحج واصطحب معه الأمراء الذين يخافهم ويقال بأن عددهم خمسون أميراً وذلك خوفاً من أن يحدثوا شيئاً فى غيبته ومن بينهم صاحب عدن ولحج من بنى معن واستخلف على اليمن ابنه أحمد ابن على وولى على تهامة أسعد بن شهاب أخا زوجته أسماء .

وخرج فى ألفى فارس وكان قد سمع بأن سعيد الأحول بن نجاح صاحب تهامة المقتول بالسم قد خرج هو وأخوه جياش فى جماعة من أصحابهما لقتاله ، فسير خمسة آلاف حربة من الحبشة للقائهم ، فاختلفوا فى الطريق وظفر الأحول بالصليحى فى ضيعة يقال لها الدهيم وبئر أم معبد فلم يبرح من مكانه حتى قتل الصليحى وقتل معه أخوه عبد الله فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٤٧٣ هـ .

وظفر الأحول بعد ذلك بجيش الصليحى الذى سيره لقتاله فقتل منهم وأسر ورجع إلى زبيد ظافراً فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٧٣ ﻫ وملك بلاد تهامة إلى أن قتل سنة ٤٨١ ﻫ .

وفى هذه الحادثة أسرت أسماء بنت شهاب زوجة على الصليحى وحبست فى زبيد إلى أن استنقذها ابنها المكرم أحمد بن على الصليحى زوج السيدة أروى بنت أحمد بن محمد الصليحى التى تولت اليمن بعد أن أصيب المكرم بالفالج .

وكان صاحب عدن ولحج من بنى معن فيمن نجا بعد قتل الصليحى أثناء الطريق ، فجاء إلى لحج وعدن وأظهر الاستقلال وترك طاعة الصليحيين وامتنع عن أداء خراج لحج وعدن الذى جعله الصليحى مهراً للسيدة أروى بنت أحمد عندما زوجها من ابنه أحمد .

فلما امتنع عن أداء الخراج بنو معن قصدهم المكرم أحمد إلى لحج وعدن وأخرجهم منها وولاها العباس ومسعوداً ابنى المكرم الحبشمى اليامى وكانت لها سابقة محمودة فى قيام الدعوة مع والده ثم معه يوم أنقذ أمه أسماء من أسر سعيد الأحول ، وجعلهما عمالا للحرة السيدة بنت أحمد التى يقال لها بلقيس الصغرى .

وكانت السيدة هذه كاملة عاقلة وانفردت بالأمر فى اليمن حين وسد الأمر إليها زوجها فى حياته عندما أصيب بمرض الفالج كما قامت بالأمر بعد وفاته خير قيام ولها مآثر فى اليمن مشهورة وهى التى عملت الحيلة لقتل سعيد الأحول والفتك بجيشه .

فإنه لما أصيب زوجها المكرم بمرض الفالج وأنابها عنه فى إدارة ملك اليمن أوعزت إلى عمالها فى جبلة واليمن الأسفل أن يستدعوا آل نجاح ويحسنوا لهم الاستيلاء على جبال اليمن ، فقدم سعيد الأحول بجيش نحو العشرين ألفاً ، ففرقهم العمال فى البلاد وتمالوا على الفتك بهم فى ليلة واحدة وقتل سعيد ابن نجاح وفر أخوه جياش إلى الهند واستولى الصليحيون على تهامة .

ولما وصل جياش إلى الهند أرسل وزيره إلى اليمن ليتعرف الأحوال وأشار

عليه بأن يعلن موت جياش فى اليمن ثم تبعه متستراً يدأب فى استعادة ملكه ، فتم له ما أراد وتملك زبيد وتهامة .

ولما توفى المكرم أحمد بن على الصليحى قام بالدعوة ابن عمه سبأ بن أحمد الصليحى وجعل قاعدة مملكته حصن الشيح من بلاد أنس إلا أن النفوذ لايزال للسيدة بنت أحمد وكانت تهامة بعد موت جياش بين آل نجاح والصليحيين ففى زمن الشتاء ينزل الصليح إلى تهامة ويفر آل نجاح إلى جزائر البحر الأحمر وفى الصيف يعود الصيلحى إلى الجبال ويرجع آل نجاح إلى تهامة .

وقد عاصر الصليحيين من الأئمة الإمام أبو الفتح الديلمى قتله الصيلحى فى نجد الجاح سنة ٤٤٠ هـ ثم الأمير حمزة بن أبى هاشم قتله الصيلحيون فى الملوى من بلاد أرحب .

داعى القرامطة :

هو على بن الفضل يمنى الأصل من ولد خنفر من سبأ الأصغر كان خاملا فى أول عمره لا شهرة له إلا أنه كان أديباً ذكياً شجاعا فصيحاً رحل إلى الكوفة وتعلم مذهب الإسماعيلية وكان قبل ذلك اثنى عشريا ثم عاد إلى اليمن ووصل إلى أبين ثم إلى يافع فوجدهم رعاعا فجعل يتعبد فى بطون الأودية ويأتونه بالطعام فلا يأكل شيئاً وإن أكل لا يأكل إلا يسيراً ويريهم أنه يديم الصيام والقيام .

فتن به أهالى يافع وجعلوا أمرهم بيده وسألوه أن ينزل من الجبل الذى كان يختلى فيه للعبادة بزعمه فشرط عليهم إن أرادوا ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتوبة من المعاصى والإقبال على الطاعة فأجابوه إلى ذلك وأخذ عليهم العهد بالسمع والطاعة ثم أمرهم بعمارة حصن فى ناحية الشرق ففعلوا وأنهبهم أطراف البلاد زاعما أنه جهاد فى سبيل الله للعاصين ليدخلوا فى دين الله طوعا وكرها .

وكان يومئذ بلحج بين رجل يعرف بابن أبى العلا فقصده ابن الفضل بمن معه من يافع وغيرهم فهزمهم ابن أبى العلا وقتل منهم خلقا كثير . فقال

ابن الفضل لأصحابه : الرأى أن نرجع إليهم فورا ونهجم عليهم فإنهم قد آمنوا فوافقوه .

وعلى حين غفلة هجموا عليه فقتل ابن أبى العلا فى طائفة من عسكره واستباح ابن الفضل ما كان لهم ويقال بأنه وجد فى خزانة ابن أبى العلا سبعين بدرة والبدرة عشرة آلاف درهم وعاد إلى بلاد يافع فعظم شأنه وشاع ذكره وكان ذلك حوالى سنة ٢٩٠ هـ .

اتسع نفوذ على بن الفضل بعد ذلك واستولى على بلاد اليمن ودخل زبيد واستولى على صنعاء وهناك أظهر مذهبه ويقول بعض المؤرخين بأنه ادعى النبوة وأباح المحرمات وأظهر التعطيل واستمر أمره ثلاث عشرة سنة ثم هلك بالسم سنة ٣٠٣ هـ .

دولة آل زريع :

لما استولى الصليحيون على اليمن ، وافتتحوا عدن ، كان فيها بنو معن قد تغلبوا عليها وعلى لحج وأبين والشحر وحضرموت فأبقاها الصليحى تحت أيديهم وجعلهم نوابا من قبله وكان بنو معن يرفعون خراجها إلى السيدة فى أيام الصليحى فلما قتل الصليحى تغلبت بنو معن على ما تحت أيديهم فقبضهم المكرم وأخرجهم منها كما تقدم وولاها العباس ومسعود ابنى المكرم الهمدانى .

وكان يحمل إلى السيدة كل سنة حوالى مائة ألف دينار من عدن إلى أن توفى العباس بن المكرم فخلفه ابنه زريع بن العباس على ما كان متوليا وأبقاه عمه مسعود على ما هو عليه فملك زريع الدملوه سنة ٤٨٠ هـ وكان ذلك بداية حكم آل زريع فلما بعثت السيدة المفضل بن أبى البركات إلى زبيد كتب الفضل إلى زريع عمه مسعود أن يلقياه بزبيد فلقياه وقاتلا معه حتى قتلا على باب زبيد .

انتقل أمر عدن بعد قتلهما إلى ولديهما أبى السعود بن زريع وإلى الفارات ابن مسعود فاستقلا بالأمر وتغلبا على الحرة فبعثت إليهما المفضل فى جيش

عظيم وبعد قتال شديد حصل الاتفاق على دفع نصف الخراج إلى السيدة وقدره خمسون ألف دينار فى كل عام .

بعد وفاة المفضل توقف آل زريع عن دفع الخراج فبعثت السيدة إليهم سعد بن أبي الفتوح ابن عم المفضل فقاتلهما ثم اتفقوا على أن يدفع آل زريع ربع الخراج ولكنهم عادوا مرة أخرى فتوقفوا عن دفعه .

توفى أبو السعود فخلفه فى منطقة نفوذه ابنه سبأ ثم ابنه محمد ثم أخوه على ابن أبي الفارات وهو صاحب حصن الخضراء والمستولى على باب البحر والمدينة

أما الداعى سبأ فكان له حصن التعكر وباب البر وما يدخل منه ومن البر الدملوه وسامع ومطران ويمين وذبحان وبعض المعافر وبعض الجند وكانت أعماله كبيرة واسعة وكان له من الأولاد على الأغر ومحمد الداعى وزياد ورواح

وقد توترت العلاقات بين الداعى سبأ بن أبي السعود وابن الفارات بسبب التصرفات السيئة التى حصلت من عمال على بن أبي الفارات واعتداءاتهم على عمال الداعى سبأ وإفسادهم وقد أدى الأمر بعد ذلك إلى قتال انتهى بتغلب الداعى سبأ .

وفى سنة ٥٦٩ هـ خرج الأيوبيون إلى اليمن فقضوا على دولة آل زريع فيما قضوا عليه من إمارات .

دولة آل حاتم :

فى سنة ٤٩٢ هـ ابتدأت دولة آل حاتم فى اليمن فقد تولى صنعاء هذا العام السلطان حاتم بن أحمد اليامى الهمدانى إلى سنة ٥٠٢ هـ ثم خلفه فى الحكم عبد الله ابن حاتم إلى سنة ٥٠٤ هـ ثم معن بن حاتم إلى سنة ٥١٠ هـ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص .

وقد كان السلطان حاتم يحكم صنعاء ومهرة ، وهو الذى قصده من مصر القاضى الرشيد الغسانى الأسوانى وقال فيه من أبيات :

إذا أجدبت أرض الصعيد وأقحطت   فلست أخاف القحط فى أرض قحطان

وقد كفلت لى مأرب بمآربى   فلست على أسوان يوما بأسوان

وقد دامت هذه الدولة حوالى ثمانى عشرة سنة أى من أربعمائة واثنين وتسعين ٤٩٢هـ إلى خمسمائة وعشرة ٥١٠ هـ حيث قضى عليها بواسطة الأيوبيين .

آل مهدى :

فى سنة ٥٥٤ هـ تغلب على ابن مهدى الرعينى الحميرى على زبيـــد وتهامة واستمر حكم آل مهدى إلى سنة ٥٦٩ هـ حيث خرج توران شاه بن أيوب وقضى على دولة آل مهدى وآل زريع وآل حاتم اليامى .

ويقال بأن على بن مهدى هذا ويدعى عبد النبى أيضا استولى على اليمن أجمع وبها يومئذ نحو ٢٥ إمارة أخضعها جميعها لحكمه وفرض الجزية على عدن .

الأيوبيون :

عند ما بلغ السلطان صلاح الدين الأيوبى أن ابن مهدى قد استولى على كثير من بلدان اليمن وخطب لنفسه جهز أخاه توران شاه بن أيوب إلى اليمن رجب سنة ٥٦٩ هـ .

قدم توران شاه من مصر والياً على اليمن من قبل أخيه وقائداً لجيشه وعبثاً حاول ابن مهدى المقاومة فقد انهزم أثر معركة لم تدم طويلا ونصب المصريون السلالم على سور زبيد وصعدوا ودخلوا البلد عنوة وأسروا عبد النبى وزوجته التى تسمى حرة .

وبسقوط زبيد انتهى أمر عبد النبى فى اليمن واستقر الأمر فيها لبنى أيوب وعادت الدعوة للعباسيين فى الخطب ثم استأنفت الحملة سيرها إلى عدن لقتال ياسر صاحب السلطة فيها فدخلتها بعد قتال يسير ووقع ياسر أسيراً ثم عاد توران إلى اليمن فاستولى على قلعة تعز وغيرها من المعاقل والحصون وأناب عنه فى عدن عز الدين عثمان الزنجيلى واستخلف على زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل فى كل قلعة نائباً من عسكره .

وذكر المؤرخون أنه لما نزل زبيد استوخمها فسار فى الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء يتخذ فيه سكناه فوقع اختيارهم على مكان تعز فاختط به المدينة ونزلها وبقيت له كرسياً « عاصمة » ثم لبنيه ومن بعدهم من بنى رسول ويقال بأنه لم تطب له الإقامة فى اليمن فاستأذن أخاه فى العودة فأذن له فتوجه إلى دمشق وكان أخوه صلاح الدين إذ ذاك محاصراً حلب ولم يعد إلى اليمن بعد ذلك .

وفى سنة ٥٧٦ هـ نشب خلاف بين عمال الأيوبيين فى اليمن أدى إلى إثارة فتن وحروب بين الزنجيلي والى عدن وابن منقذ والى زبيد وغيرهما من الولاة فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين لقمع دابر الفتنة فتلطف أولا بوالى زبيد حتى قبضه وأخذ أمواله وبلغ الأمر والى عدن ففر إلى الشام وأخذ معه الأموال عن طريق البحر ودخل طغتكين عدن بدون قتال ثم استولى على جميع اليمن واختط المنصورة فى جبال المعافر وهو أول من سور زبيد وصنعاء وإليه ينسب بستان السلطان فى صنعاء .

بعد وفاة طغتكين تولى ابنه إسماعيل فأعلن استقلاله عن حكومة بغداد وكان ضعيف الرأى فاستفحل فى أيامه أمر الإمام عبد الله بن حمزة واستولى على صنعاء وذمار وأكثر جبال اليمن وقتل إسماعيل فى زبيد بواسطة غلمانه سنة ٥٩٨ هـ فخلفه أخوه أيوب المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ثم قامت بالأمر أمه مدة من الزمن ثم استدعت السلطان سليمان بن سعد الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فولته حكم اليمن وظل كذلك حتى عزل سنة ٦١٢ هـ .

وفى هذا العام خرج الملك المسعود بن الملك الكامل أبى بكر بن أيوب والياً على اليمن من قبل والده فاستولى عليها إلى سنة ٦٢٠ هـ حيث رجع إلى مصر وأناب على اليمن عمر بن على بن رسول الغسانى وكان هذا يقظا حازما فضبط البلاد كما ينبغى وأعلن استقلاله وتغلب على ملك اليمن وبذلك انقضت دولة بنى أيوب وانتقلت مخاليف لحج وعدن وحضرموت وغيرها من المخاليف التابعة لليمن إلى الرسوليين .

وفيما يلى بيان سلاطين الأيوبيين الذين تولوا اليمن ومن بينها لحج وعدن وحضرموت .

تولى	عاد أو عزل	توفى	
٥٦٩	٥٧١	٥٧٦	توران شاه
٥٧٧		٥٩٣	طغتكين
٥٩٣		٥٩٨	إسماعيل بن طغتكين

تولى	عاد أو عزل	توفى	
٥٩٨		٥٩٩	أيوب بن طغتكين
	٦١٢	٦٤٧	سليمان بن سعد الدين
٦١٢	٦٢٠	٦٢٢	الملك المسعود

بنو رسول :

علمنا مما سبق إن بداية دولة بنى رسول كانت سنة ٦٢٠ه . عند ماتغلب على اليمن عمر بن على بن رسول وأعلن نفسه حاكما عليها وبنو رسول هؤلاء ينتسبون إلى بنى غسان ملوك الشام وقد خضعت جميع البلاد اليمنية لعمر بن على الذى تسمى الملك المنصور وظل حاكما على اليمن إلى أن قتله غلمانه فى الجند سنة ٦٤٧ ه نخلفه ابنه المظفر يوسف بن المنصور عمر واستولى على صنعاء وجعل قاعدة مملكته تعز وكذلك خلفاؤه من بنى رسول ، وفى أيام المظفر هذا كان سقوط الدولة العباسية فى بغداد .

كان الملك المظفر عالماً أخذ من كل فن بنصيب قرأ الفقه والحديث والنحو واللغة وكان له فى الطب يد طولى وكان يقرب العلماء وينشىء المدارس ، فنشأ ابنه الأشرف فى بيئة فيها العلم والعلماء فاتخذ له أبوه الفقيه سعيد بن أسعد الحرارى سنة ٦٧٨ ه معلما فأدبه وعلمه وكان كثيراً ما يصده عن أمور غير لائقة . وقد قرأ الأشرف الفقه والحديث والنحو إلا أنه برع فى الأنساب وفى الطب وألف فى علم الفلك ، وله فى الأنساب كتاب طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب فى التواريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان وله فى الطب كتاب الجامع وألف كتابا فى الاسطرلاب بعدأن زاول عمله وأتقنه

وتظهر براعته فى الطب من كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ ه يطلب منه طبيباً يقول فيه :

« ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا وقد اشتغلنا فيه من أيام الشبيبة وولدنا عمر الأشرف من العلماء بالطب وله كتاب جامع ليس لأحد مثله » .

وكان الملك المظفر معجباً بابنه الأشرف لشجاعته وقد ندبه وهو أمير إلى مهمات شاقة لإخضاع بعض الثائرين أو القيام بالصلح مع بعض الأشراف فنجح فيما ندبه إليه فلما كانت سنة ٦٩٤ هـ اختصه والده بالملك وملكه أزمة الأمور وصدر مرسوم بذلك بمشهد من الملوك والعظماء جاء فيه :

« أما بعد فقد ملكنا عليكم من لا نؤثر فيه — والله — داعى التقريب على باعث التجريب ولا عاجل التخصيص على آجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختيار ، وهو سليلنا الخطير وشهابنا المنير وبصيرنا الذى نرجو به صلاح البلاد والعباد ، فإنصاف الأمر والنهى والحل والعقد والبسط والقبض فى البر والبحر والأقاليم والسواحل والأمصار والحصون والثغور وتدبير الحرب والسلم وتجهيز العساكر والجنود إلى السلطان الملك الأشرف . . . وكان ذلك فى جمادى الأول سنة ٦٩٤ هـ » ولم يلبث أبوه أن توفى بعد ذلك .

وكان الأشرف محبوبا عند الناس على اختلاف حالاتهم وتباين طبقاتهم وامتلأ اليمن فى أيامه هيبة منه وكان ملكا صالحاً براً بالناس وبقرابته رؤوفا بالرعية محباً لهم عطوفا عليهم وقد أدركه أجله لسبع بقين من محرم سنة ٦٩٦ هـ وترك ستة أولاد ولكن الملك انتقل بعده إلى أخيه المؤيد .

والملك المظفر والد الأشرف هذا هو الذى أرسل جيشاً كبيراً سنة ٦٧٨ إلى ظفار لقتال سالم بن ادريس الحبوظى وقد قتل الحبوظى فى المعركة ودخلت ظفار وحضرموت تحت طاعة بنى رسول بعد ذلك وقد تعرضنا لهذه الحادثة بشىء من التفصيل فى كتابنا تاريخ حضرموت فى شخصيات .

ونشط الأئمة الزيود فى أيام المظفر وخلفائه فقاموا بعدة حركات للاستيلاء على مواضع نفوذ الرسوليين .

ففى سنة ٦٧٠ هـ ثار الإمام إبراهيم بن تاج الدين فأسره جيش بنى رسول فى حرب بينه وبينهم فى بلاد ذمار وسجن فى تعز إلى أن توفى سنة ٦٨٣ هـ وقبل ذلك خرج الإمام يحيى بن محمد السراجى فأسره الأمير سنجر الشعبى عامل بنى

رسول على صنعاء سنة ٦٦٠ ه وثار المطهر بن يحى سنة ٦٧٦ ه واستمر فى حروب معهم إلى أن توفى سنة ٦٩٧ ه فقام ابنه المهدى واستولى على صفاء وتوفى سنة ٧٢٨ .

وفى سنة ٧٥٠ قام المهدى على بن محمد واستولى على صنعاء ومتعلقاتها إلى أن توفى سنة ٧٧٢ وفى أواخر القرن الثامن هذا استفحل شأن الأئمة وخصوصاً فى جبال اليمن وانحصر نفوذ الرسوليين فى تهامه وبلاد تعز إلى نقيل صيد المعروف الآن بنقيل سماره إلى أن ضعف أمرهم ثم تلاشى فى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان آخر ملوكهم فيما يروى بعض المؤرخين الحسن بن الظاهر سنة ٨٥٨ ه .

ويذكر القاضى محمد الحجرى اليمنى نقلا عن القلقشندى أن ملوك الدولة الرسولية كانت أوقاتهم مقصورة على لذاتهم والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين فلا يكاد السلطان يصل إليه خبر من أهل اليمن وهو يذهب فى أموره مذهب صاحب مصر يتسمع أخباره ويحاول اقتفاء أثره فى أحواله وأوضاع دولته .

وفيما يلى بيان بملوك الرسوليين مرتبين حسب ولايتهم :

الولاية	الوفاة	
٦٢٠	٦٤٧	عمر بن على بن رسول
٦٤٧	٦٩٤	الملك المظفر يوسف بن عمر
٦٩٤	٦٩٦	الأشرف عمر بن يوسف
٦٩٦	٧٢١	هزبز الدين داود المؤيد
٧٢١	٧٦٤	على المجاهد
٧٦٤	٧٧٨	الأفضل العباس بن على
٧٧٨	٨٠٤	الأشرف إسماعيل بن العباس
٨٠٤	٨٢٧	أحمد الناصر بن إسماعيل
٨٢٧	٨٣٠	عبد الله المنصور

الولاية	الوفاة	
٨٣٠	٨٣١	الأشرف بن الناصر
٨٣١	٨٤٢	يحيي بن اسماعيل
٨٤٢	٨٤٥	الأشرف اسماعيل بن يحيي الظاهر
٨٤٦	...	الملك المسعود
٨٥٨	...	الحسن بن الظاهر

ويذكر القاضي الحجرى من ملوكهم بعد الأشرف اسماعيل بن يحيي الملك المظفر ثم الأفضل ثم المسعود الذى يكنيه أبا القاسم بن الأشرف .

آل طاهر :

لما ضعف نفوذ الرسوليين فى تهامة وبلاد تعز وعدن فى أواخر القرن التاسع وتلاشى أمرهم قام بالأمر المشائخ آل طاهر بن معوضه بن تاج الدين من بلاد رداع واستولوا على عدن وتهامه وبلاد تعز فى سنة ٨٥٨ ﻫ .

وفى سنة ٩٠٦ ﻫ قام الإمام محمد بن على الوشلى من ذرية الإمام يحيي السراجى وجرت حروب بينه وبين آل طاهر إلى سنة ٩١٠ ﻫ فأسره السلطان عامر بن عبد الوهاب من آل طاهر فى حروب بينهما بصنعاء ومات الإمام محبوساً فى هذه السنة .

وفى سنة ٩١١ ﻫ قام الإمام شرف الدين يحيي بن شمس الدين بن المهدى أحمد بن يحيي بن المرتضى ، وكان عامر عبد الوهاب قد استولى على صنعاء وأكثر جبال اليمن .

وفى سنة ٩٢١ ﻫ خرجت طائفة من الشراكسة المصريين لمطاردة سفن الإفرنج فى البحر الأحمر ونزلوا جزيرة كمران ثم خرجوا إلى تهامه وجرت بينهم وبين قوات عامر بن عبد الوهاب معارك انهزم فيها أصحاب السلطان عامر نظراً لاستعمال الشراكسة البنادق التى لم تكن تعرف فى اليمن قبل ذلك .

استمر تقدم الشراكسة وتقهقر السلطان عامر إلى أن كانت المعركة الفاصلة

بصنعاء قتل فيها السلطان سنة ٩٢٣ ﻫ واستولى الشراكسة على صنعاء ويقول بعض المؤرخين بأنه ملك بعد عامر عبد الوهاب عامر بن داءود إلى سنة ٩٤٥ﻫ وهو آخر ملوكهم .

وهذا جدول ببيان ملوك آل طاهر

تولى	مات أو قتل	
٨٥٨	٨٧٠	الظافر عامر بن طاهر
٨٧٠	٨٨٣	المجاهد على بن طاهر
٨٨٣	٨٩٤	المنصور عبد الوهاب بن داءود بن طاهر
٨٩٤	٩٢٣	عامر عبد الوهاب
٩٢٣	٩٤٥	عامر بن داءود

٢٥ – دولة الشراكسة
أو المماليك

فى سنة ٩٢٣ ﻫ استولى الشراكسة على صنعاء بعد قتل السلطان عامر عبد الوهاب ومن هذا التاريخ يبتدىء حكم الشراكسه أو المماليك فى اليمن .

وكان ذلك فى عهد الملك قانصوه الغورى ملك مصر وهو الخامس والعشرين من ملوك الجراكسه المماليك فى مصر من ٩٠٦ إلى ٩٢٢ ﻫ وهو الذى حاربه السلطان سليمان العثمانى وقتله وأخذ أكثر بلاده .

وقد نشبت حروب بين الشراكسة وبين الإمام شرف الدين يحى بن المهدى انتهت باستيلائه على صنعاء وهزيمتهم إلى زبيد حيث عادوا إلى قتال الإمام وتقدموا من زبيد إلى جهة تعز .

وظلت اليمن خاضعة لسلطان المماليك حتى دخلت فى حكم العثمانيين حوالى سنة ٩٤٥ ﻫ .

حكم العثمانيين :

فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ١٥١٧ م ٩٤٥ ﻫ استولى السلطان سليمان القانونى العثمانى على بعض الأقطار العربية ومن بينها عدن وقسم من اليمن .

وفى سنة ٩٥٥ ﻫ تقدم الوزير ازدمر باشا بجند عظيم واستولى على صنعاء وقتل من أهلها نحو اثنى عشر مائة ثم خرج لحرب الإمام شرف الدين فى بلاد حاشد وما إليها فأسر الأمير عز الدين بن الإمام وأرسل إلى السلطان فمات فى الطريق .

بعد وفاة الإمام شرف الدين قام ابنه المطهر بحرب الأتراك حتى توفى سنة ٩٨٠ ﻫ وقام بعده الإمام الناصر الحسن بن على سنة ٩٨٦ ﻫ إلى أن أسره الباشا سنان سنة ٩٩٣ ﻫ وأرسله إلى استانبول فتوفى هناك سنة ١٠٢٤ ﻫ ثم أسر أيضاً أولاد المطهر بن شرف الدين وأرسلهم إلى استانبول .

وجرت حروب بين القاسم بن محمد الذى تولى سنة ١٠٢٦ ﻫ وبين الأتراك انتهت بالصلح وعاد ابنه المؤيد بن القاسم بعد وفاة أبيه إلى حرب الأتراك

وتغلب على صنعاء وانحاز الأتراك إلى تعز ثم زبيد واستمرت الحرب إلى أن اضطر الأتراك إلى الجلاء عن اليمن على السفن البحرية من ميناء المخا سنة ١٠٤٨ ﻫ واستقل الإمام بجميع بلاد اليمن .

وكما ظهر الأئمة الزيود كمحاربين للاحتلال العثمانى كانت طوائف أخرى فى اليمن تعارض هذا الاحتلال وإن كانت على خلاف مع الزيود فقد اتفق مشائخ تهامه الشوافع السنيون وفيهم شريف أبو عريش على القيام ضد الوالى حسن باشا الذى تولى من ٩٨٨ — ١١٠٣ ﻫ ومن هـذا التاريخ تبدأ شرافة أبو عريش .

وفى عام ١٢٢٤ ﻫ كان صاحب أبو عريش الشريف حمود بن محمد من أشراف صبيا ومن ولد الحسن بن على بن أبى طالب وقد جرت بينه وبين آل سعود حرب فر الشريف حمود على أثرها إلى تهامه ولجأ إلى حصنه أبو عريش واحتلت العساكر بلاد صبيا وجيزان .

وبعد وفاة حمود تولى ابنه أحمد وفى أيامه جاءت القوات العثمانية والمصرية إلى أبو عريش يقودها خليل أغا فألقت القبض على أحمد بن حمود وأرسلته إلى مصر ولكن احتلالها لم يدم طويلا فاضطرت القوات إلى الانسحاب وتسليمها إلى إمام صنعاء .

وحينما انسحب المصريون من البلاد العربية سنة ١٢٥٥ ﻫ بسط الشريف حسين شريف أبو عريش نفوذه على سائر تهامه وألحقها بأبو عريش فوصلت قواته إلى مخا واستولت عليها إلى أن جرد الأتراك قوة عسكرية سنة ١٢٦٥ ﻫ ١٨٤٩ م أنزلت فى الحديدة وتمكنت من فتح تهامه ودخول أبو عريش .

وقد ظل حكم أشراف أبو عريش فى تهامة عسير واليمن ضعيفاً إلى أن أزيل تماماً على يد السيد محمد على الأدريسى .

وفى سنة ١٢٨٥ ﻫ وصل الوزير أحمد مختار باشا بجند من الأتراك واستولى على صنعاء فانحاز الإمام محسن بن أحمد إلى شهاره وبلاد حاشد وبكيل وصعده .

وفى سنة ١٣٠٧ قام المنصور محمد بن يحى حميد الدين لحارب الأتراك وحصرهم بصنعاء ١٣٠٨ واستولى على أكثر جبال اليمن فخرج الحاج أحمد فيضى باشا من قبل السلطان عبد الحميد واستعاد ما أخذه الإمام من بلاد صنعاء وتقهقر أصحاب

الإمام إلى قفلة عذر وشهاره وبلاد حاشد واستمرت الحال كذلك إلى أن توفى المنصور سنة ١٣٢٢ هـ .

بعد وفاة المنصور تولى ابنه الإمام يحيى فعاد إلى حرب الأتراك واستولى على صنعاء وأكثر جبال اليمن سنة ١٣٢٣ هـ فخرج أحمد فيضى مرة ثانية واستنقذ ماأخذه الإمام وانسحب الإمام وأصحابه إلى قفلة عذر وشهاره وبلاد حاشد فتبعهم فيضى وحاصر شهاره ثم أراد مهاجمتها فكانت الدائرة على جيشه وانهزم الباشا بعد خسارة عظيمة فى الأرواح والمعدات .

ومازال الإمام يحيى يبعث السرايا إلى كثير من البلاد التى يتولاها الأتراك حتى وصل أحمد عزت باشا سنة ١٣٢٩ هـ وعقد الصلح مع الإمام فاستقرت الأحوال فى اليمن إلى نهاية الحرب العظمى .

وقد أقام الإمام يحيى على الولاء للدولة محافظا على عهوده ولم ينضم إلى أعدائها الذين كاتبوه وأرادوا أن يستميلوه بل ظل على ولائه حتى انتهت الحرب سنة ١٩١٨ م ١٣٣٦ هـ وعقدت الهدنة بين الحلفاء والترك وقد تعهد فيها الأتراك بالجلاء عن جميع البلاد العربية واليمن من جملتها .

وقد كان الأتراك قبل ذلك يحتفظون بجيش فى اليمن يرابط هناك لحفظ الأمن والتأمين على مصالحهم وقد أصدرت وزارة الحرب العثمانية الأوامر إلى قائد جيشها فى اليمن بالتسليم للحلفاء فسلم نفسه ونقله الإنجليز إلى مصر ثم أطلقوا سراحه فقصد الآستانة .

وغادر الإمام يحيى صعدا على الأثر فدخل صنعاء وشرع فى الإصلاح واستنقاذ تهامة الشمالية من يد الادارسة وإخضاع القبائل العاتية كحاشد وبكيل والزرانيق وغيرهم وتنظيم الجيش وتدريبه وبذلك انتهى الحكم العثمانى فى اليمن .

الأدارسة فى عسير :

عندما قررت الدولة العثمانية أن تسحب جنودها من تهامه وعسير سنة ١٨٤٠ م كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من أمراء العرب وهم الشريف محمد بن عون فى مكة الذى كان مساعدا إبراهيم باشا فى حملاته على تلك البلاد والشريف حسين بن على بن حيدر من أشراف أبى عريش الذين كانوا يحكمونها والإمام

الزيدى فى صنعاء الذى كانت تهامة سابقا فى حوزته وجزءاً من بلاده فاتفق إبراهيم باشا يومئذ مع أقدر الثلاثة وأدهاهم وهو الشريف حسين فسلمه زمام الحكم فى تهامة على أن يدفع سنويا إلى الدولة مبلغا من المال .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير فنزلت جيوشها فى الحديدة بقيادة توفيق باشا واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذى عاد إلى مقره فى أبى عريش ثم تقدم توفيق بجيوشه إلى صنعاء فعادت تهامة إلى ماكانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلا لا الأتراك ولا أشراف أبى عريش فجاء ابن إدريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكمه الروحى والسياسى .

ففى أواسط سنة ١٩٠٨ م غادر القاهرة السيد محمد بن على الإدريسى إلى السودان فأقام مدة فى دنقلة ضيفا على آله وذويه وبعد ماتزوج هنالك سافر مع زوجته إلى صبيا فى تهامة ونزل ضيفا فى جوار جده السيد أحمد بن إدريس المدفون فى ثراها حيث للادارسة هناك نفوذ روحى بين القبائل ومنزلة خاصة فى نفوسهم .

وقد استغل الإدريسى هذا النفوذ فشيد سيادته تدريجيا على أنقاض حكم الترك المتداعى والذى سئمه الناس ودارت بينه وبين قوات الترك معارك انتهت بانهزامهم واعتصامهم بمدينة ابها قاعدة عسير فطاردهم وحاصرهم ولكن الباب العالى استعان بشريف مكة الذى جهز حملة شتتت قوى الإدريسى وفكت الحصار عن المدينة .

وتوفى السيد محمد سنة ١٩٢٣ م وخلفه ابنه على وكان دونه كفاءة ومزايا فكثرت الاضطرابات الداخلية واغتنم الزيود الفرصة فحملوا على هذه الإمارة سنة ١٩٢٤ م انتزعوا منها الحديدة والمناطق المحيطة بها وتقدموا حتى ميدى فذهب الادارسة إلى ابن سعود وعقدوا معه سنة ١٩٢٦ معاهدة دخلوا بموجبها تحت حمايته ثم عاد ابن سعود فى سنة ١٩٣٣ م فضم هذه الإمارة كلها إلى دولته وبذلك انتهى أمرهم .

٢٦ – دولة الأئمة الزيود

الزيدية — تعاليم الزيدية – الإمام الأول فى اليمن   تتابع الأئمة —
سيرة الأئمة — الفتن والحروب   ترتيب الأئمة حسب حكمهم

الزيدية :

فرقة كبيرة من فرق الشيعة تتبع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، مثل هو وهشام بن عبد الملك ثانية دور الحسين ويزيد بن معاوية فقد كان زيد طموحا إلى الخلافة ناقما على الأمويين فألح عليه أهل الكوفة أن يخرج على الأمويين ووعدوه بالنصرة وكان هشام يخشى جانبه فأمر عامله على العراق يوسف بن عمر الثقفى الا يدعه طويلا فى العراق فأمره يوسف بالرحيل فخرج ثم عاد وبث دعاته لتحريض الناس على الخروج على بنى أمية .

ونصحه كثيرون ألا يفعل وذكروه بما فعل أهل العراق مع جده قائلين له أتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدروا بجدك فلم تفده تلك النصائح شيئا ولما جد الجد تفرق عنه أكثر من بايعه ولم يبق معه إلا ثلاثمائة أو أقل وكانت بينهم وبين يوسف بن عمر ملحمة ثبت فيها زيد ومن معه حتى إذا جنح الليل رمى زيد بسهم فقضى عليه وأخذ رأسه وبعث به إلى هشام فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق ثم أرسل إلى المدينة ومكث البدن مصلوبا حتى مات هشام ثم أمر به الوليد فأنزل وأحرق وكان قتل زيد سنة ١٢٢ هـ وعمره سبع وأربعون سنة .

كان زيد واسع العلم بالدين قوى الحجة وصفه خصمه هشام بن عبد الملك فقال : رأيته رجلا جدلا لسنا خليقا بتمويه الكلام وصوغه واجترار الرجال بحلاوة لسانه .

بعد قتل زيد هرب ابنه يحيى إلى خراسان وأقام هناك متهيأ للثورة ثم خرج على الوليد بن زيد فأصيب بنشابة أصابت جبهته وصلب وحرق وذر رفاته فى الفرات وكان ذلك سنة ١٢٥ هـ وعمره ٢٨ سنة .

ثم خرج محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم بالمدينة والبصرة واجتمع عليهما الناس فقتل محمد بالمدينة وقتل إبراهيم بالبصرة أمر بقتلهما المنصور سنة ١٤٥هـ ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الاطروش سنة ٢٨٤ وله حروب ووقائع هناك إلى أن توفى سنة ٣٠٤ أما فى اليمن فقد كان مبدأ ظهور الزيدية سنة ٢٨٠ هـ على يد الإمام يحيى بن الحسين الرسى .

تعاليم الزيدية :

هم فى تعاليمهم أقرب إلى أهل السنة فلا يقولون بالتقية ولا يتبرءون من أبى بكر وعمر ولا يقولون بعصمة الأئمة ولا يقولون باختفائهم ومن مذهبهم جواز خلافة المفضول مع قيام الأفضل فكان زيد بن على يقول على بن أبى طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، واقتبس زيد مذهب الاعتزال من أستاذه واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصار أصحابه كلهم معتزلة .

والزيدية تحصر الإمامة فى أولاد فاطمة عليها السلام ويجوزون خروج إمامين فى قطرين يستجمعان الشروط ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة وهم يشترطون فى الإمام أن يكون ذكرا مكلفا حرا مجتهدا علويا فاطميا عدلا سخيا ورعا سليم العقل والحواس والأطراف صاحب رأى وتدبير فارسا مقداما .

وهم ينقسمون إلى عدة فرق تجتمع كلها فى القول بإمامة زيد بن على وتختلف فى أمور جوهرية ليس هنا موضع الحديث عنها ومن فرقهم الجارودية التى تقول بالنص من النبى عليه السلام على إمامة على وصفا لا تسمية ومنها السليمانية نسبة إلى سليمان بن جرير .

الامام الأول فى اليمن :

فى سنة ٢٨٠ هـ جاء إلى اليمن السيد يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ويقول المؤرخ اليمنى القاضى محمد أحمد الحجرى بأن طائفة من رؤساء خولان أهل صعدة لما اضطربت الأحوال فى اليمن فى أواخر القرن الثالث الهجرى ذهبت

إلى جبل الرش شرقى مدينة الرسول عليه السلام وأخرجوا السيد يحي بن الحسين فوصل إلى صعدة سنة ٢٨٠ هـ وبايعوه بالإمامة واستولى على بلاد همدان وصنعاء وما إليها ووصل إلى منكث قرية فى بلاد يريم وعمر فيها مسجده المشهور ثم عاد إلى صعدة وبها توفى سنة ٢٩٨ هـ .

وقد جرت بينه وبين عمال بنى العباس حروب ووقائع وهو الإمام الأول فى اليمن وتسمى الإمام الهادى إلى الحق وكانت وفاته فيما يروى بعض المؤرخين بالسم ليلة الأحد لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٢٩٨ هـ ودفن بمشهده المعروف بصعدة .

تتابع الأئمة :

ثم تتابع الأئمة الزيود على حكم اليمن ولم يكونوا دائماً من سلالة واحدة ، بل كانت لمن تتوفر لديه القوة حسنياً كان أو حسينياً على أن الإمامة فى اليمن كانت دائماً فى جزر ومد فتارة يعم نفوذ الأئمة جميع البلاد اليمنية وتنحصر تارة سلطتهم فى الجبال وأخرى فى صعده ويضعف أحياناً نفوذهم ويتقلص وقد يؤول أمر بعضهم إلى القتل أو الأسر وقد تتعارض سلطة إمامين فى وقت واحد فيحكم السيف بينهما وهم مع كل هذا واثقون من حقهم فى الإمامة دائبون فى الحصول عليها جادون فى محاربة كل من نازعهم فيها من ملوك اليمن المتغلبين .

ولم تستقر الأحوال فى اليمن نهائياً إلا بعد جلاء الأتراك عنها بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م — ١٣٣٦ هـ حيث دانت جميع البلاد اليمنية للامام يحي بن حميد الدين ما عدا المقاطعات الجنوبية وأصبحت اليمن ذات كيان سياسى معترف به لدى دول العالم .

سيرة الأئمة :

ذكر القاضى محمد الحجرى نقلا عن الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على بعضا من سيرة الأئمة فى اليمن كما وضعها ابن فضل الله فقال :

« وهذا الإمام وكل من كان قبله على طريقة ما عدوها لا كبر فى صدورها ولا شمم فى عرانينها وهم على مسكة من التقوى وتردٍ بشعار الزهد يجلس فى ندى

قومه كواحد منهم ويتحدث إليهم ويحكم بينهم سواء عنده القوى والضعيف وربما اشترى سلعته بيده ومشى بها فى أسواق المدينة لا يغلظ الحجاب ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر مع عدل شامل وفضل كامل يعود المرضى ويصلى بالناس ويشيع الجنائز وهو كواحد من شيعته فى مأكله ومشربه وملبسه وركوبه وعامة أموره » .

الفتن والحروب :

كانت اليمن فى تاريخها الإسلامى ميداناً للفتن والحروب الداخلية لا يسكن فيه غبار ولا تخمد له نار ، وقد تطرأ حالات نادرة يسود فيها السلم والسكينة ولكن الفتن والحروب تكاد تكون حالة مستمرة فى البلاد الجميلة التى دعاها الرومانيون « البلاد السعيدة » .

وكيف يثبت فيها ملك أو يدوم نظام وكيف تضمن سبل الفلاح والعمران إذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طموحاً وكانت له بعض السيادة فى عشيرته أن يخرج شاهراً سيفه داعياً إلى مذهبه طالباً الملك .

فكلما ضعف موقف أحد الأئمة أو بدا وهن فى حكم أحد الملوك اتسع المجال لغيره من الملوك الطامحين ، فتشب نار الفتنة وتدق طبول الحرب ويخنق دخان الفوضى روح الأمن والعدل والنظام .

ومن المعلوم أن هذه الفوضى وعدم الاستقرار السياسى إذا منيت به أمة يكون حائلا دون ازدهارها الاقتصادى والاجتماعى فلم يفكر أحد من ذوى السلطة فى هذا التاريخ الطويل أن يحارب الجهل فى البلاد أو يقر الأمن والعدل والنظام أو ينعش الحياة الاقتصادية أو يأخذ فى أسباب العمران بل كان همهم جمع الأموال وتحصيل الزكوات وجباية الخراج وتجنيد الجنود والتفكير فى أسباب التغلب والسيطرة .

على أن التاريخ تحدث عن عدد من علماء الدين واللغة والأدب فى فترات متقطعة من عهود التاريخ اليمنية وكان لبعض الملوك آثار عمرانية كالتى تنسب لبنى رسول من بناية المساجد والقلاع والحصون فى تعز وغيرها ولكن هذا

لا يصح أن يؤخذ مقياساً للحالة الثقافية والعمرانية فى تلك العصور فهناك أسباب أوحت بتلك الحالات التى تكاد تكون خاصة .

ترتيب الأئمة حسب حكمهم :

فيما يلى بيان عن الأئمة الزيود الذين حكموا اليمن مرتبين حسب الزمن الذى حكموا فيه إلى عهد الإمام الحاضر :

١ — الإمام الأول يحيى بن الحسين الرسى سنة ٢٨٠ ﻫ

٢ — ابنه الناصر أحمد .

٣ — أبناء الناصر وهم يحيى المنصور والمختار القاسم ثم الداعى يوسف ابن المنصور بن الناصر وهذا توفى سنة ٤٠٤ ﻫ .

٤ — القاسم بن على العيانى من ولد محمد بن القاسم الرسى الذى عارض الداعى يوسف وقام بالأمر بعده ابنه الحسين .

٥ — فى أول القرن الخامس كانت جبال اليمن بيد أبناء القاسم العيانى .

٦ — الإمام أبو الفتح الديلمى قتله الصليحى سنة ٤٤٠ .

٧ — الأمير حمزة بن أبى الهاشم من ولد عبد الله بن الحسين الرسى قتله الصليحيون فى الملوى من بلاد أرحب .

٨ — الإمام أحمد بن سليمان فى صعدة أيام حكم آل زريع .

٩ — المنصور بالله عبد الله بن حمزة من سنة ٥٧٦ فى أيام الأيوبيين توفى سنة ٦١٤ ﻫ .

١٠ — الداعى ابن المحسن من سنة ٦١٤ إلى أن توفى سنة ٦٣٦ ﻫ .

١١ — المهدى أحمد بن الحسين إلى أن قتله الأشراف أولاد الإمام عبد الله ابن حمزة سنة ٦٥٦ ﻫ .

١٢ — يحيى بن محمد السراجى من ولد زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب من سنة ٦٥٧ إلى سنة ٦٦٦ ﻫ .

١٣ — إبراهيم بن تاج الدين من سنة ٦٧٠ إلى سنة ٦٧٣ أسره بنو رسول وبقى فى حبسهم إلى أن توفى سنة ٦٨٣ ﻫ .

١٤ — المطهر بن يحيى من سنة ٦٧٦ إلى أن توفى سنة ٦٩٧ هـ .

١٥ — ابنه الهدى محمد بن المطهر توفى سنة ٧٢٨ وتملك صنعاء .

١٦ — يحيى بن حمزة الحسينى عارضه المطهر بن محمد بن المطهر والإمام أحمد بن على بن أبى الفتح الديلمى .

١٧ — المهدى على بن محمد استولى على صنعاء وبلادها من ٧٥٠ إلى أن توفى سنة ٧٧٢ هـ .

١٨ — ابنه صلاح الدين محمد إلى أن توفى سنة ٧٩٣ هـ .

١٩ — ابنه المنصور على بن صلاح الدين فى جبال اليمن عارضه المهدى أحمد بن يحيى والهادى على بن المؤيد وبعد وفاة المنصور تولى ابنه محمد بن على .

٢٠ — المطهر محمد بن سليمان من ولد عبد الله بن الحسين الرسى إلى أن توفى سنة ٨٧٩ هـ .

٢١ — محمد بن الناصر بن محمد بن الناصر فى غالب جبال اليمن وقد عارضه فى بلاد صعدة الإمام عز الدين بن الحسن أما صنعاء وأكثر الجبال فالنفوذ فيها لابن الناصر .

٢٢ — الإمام محمد بن على الوشلى من ذرية الإمام يحيى السراجى جرت حروب بينه وبين آل طاهر إلى سنة ٩١٠ أسره السلطان عامر بن عبد الوهاب من آل طاهر فى حروب بينهما بصنعاء ومات محبوساً فى هذه السنة .

٢٣ — الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن المهدى أحمد سنة ٩١١ إلى أن توفى سنة ٩٦٥ وهو الذى حارب الجراكسة سنة ٩٢٣ فى صنعاء ومدحه موسى بن بهران وتوفى وعمره ٨٨ سنة .

٢٤ — ابنه المطهر ومازال مع الأتراك فى حرب وسكون حتى توفى سنة ٩٨٠ هـ

٢٥ — الإمام الناصر الحسن بن على بن داود سنة ٩٨٦ وبقى إلى أن أسره الباشا سنان سنة ٩٩٣ وأرسله إلى استامبول وبقى هنالك إلى أن توفى سنة ١٠٢٤ هـ

٢٦ — المنصور بالله القاسم بن محمد من ولد يحيى الرسى حارب الأتراك إلى توفى سنة ١٠٢٩ هـ .

٢٧ — المؤيد بن القاسم المذكور وكان والده قد صالح الأتراك فاستمر

الصلح إلى سنة ١٠٣٦ ثم أعيدت الحرب وتغلب الإمام على صنعاء واستولى بعد ذلك على جميع بلاد اليمن بعد أن جلا الأتراك سنة ١٠٤٨ وتوفى المؤيد سنة ١٠٥٤

٢٨ — المتوكل اسماعيل بن القاسم وقد استولى على عدن وحضرموت وتوفى سنة ١٠٨٧ .

٢٩ — ابن أخيه المهدى أحمد بن الحسن بن القاسم توفى سنة ١٠٩٢ هـ .

٣٠ — المؤيد الأصغر محمد بن المتوكل اسماعيل توفى سنة ١٠٩٤ هـ .

٣١ — المهدى صاحب المواهب محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم عارضه المنصور حسين بن القاسم .

٣٢ — المتوكل قاسم بن الحسين توفى سنة ١١٣٩ هـ .

٣٣ — ابنه المنصور حسين إلى أن توفى سنة ١١٦١ هـ

٣٤ — المهدى عباس بن المنصور من سنة ١١٦١ إلى أن توفى سنة ١١٨٩

٣٥ — ابنه المنصور على بن العباسى إلى أن توفى سنة ١٢٢٤ هـ وقد زاحمه فى تهامه الشريف حمود من أشراف صبيا ثم الشريف حسين بن على بن حيدر من أشراف أبى عريش وصبيا .

٣٦ — ابنه المتوكل أحمد بن المنصور إلى أن توفى سنة ١٢٣١ هـ

٣٧ — ابنه المهدى عبد الله بن المتوكل توفى سنة ١٢٥١ وبعد وفاة المهدى عبدالله ضعف نفوذ الإئمة وظهرت الفوضى وتسلط القوى على الضعيف وفى هذه الأيام نزل الإنكليز عدن .

٣٨ — على بن المهدى .

٣٩ — الهادى محمد بن المتوكل أحمد .

٤٠ — الناصر عبد الله بن الحسن بن أحمد بن المهدى عباس

٤١ — المتوكل محمد بن يحيى بن المنصور على .

٤٢ — ابنه غالب بن محمد .

٤٣ — الإمام عباس بن عبد الرحمن من ولد المتوكل اسماعيل .

٤٤ — الإمام أحمد بن هاشم الويسى .

٤٥ — الإمام محمد بن عبد الله الوزير .

٤٦ — الإمام حسين الراوى .

٤٧ — المتوكل الحسن بن أحمد الشهارى وفى أيامه وصل أحمد المختار باشا بجند من الأتراك واستولى على صنعاء سنة ١٢٨٥ هـ فانحاز الإمام إلى شهاره وبلاد حاشد وبكيل وصعده إلى أن توفى سنة ١٢٩٥ هـ .

٤٨ — الهادى شرف الدين بن محمد الحسينى توفى سنة ١٣٠٦ .

٤٩ — المنصور بالله محمد بن يحى حميد الدين من ولد القاسم بن محمد ابن على حارب الأتراك وحصرهم بصنعاء سنة ١٣٠٨ وتوفى سنة ١٣٢٢ هـ .

٥٠ — ابنه المتوكل يحى بن محمد حميد الدين ولد فى صنعاء فى ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ حارب الأتراك واستولى على صنعاء وجبال اليمن سنة ١٣٢٣ هـ ثم انسحب منها إلى شهاره وبلاد حاشد ، وفى سنة ١٣٢٩ عقد الصلح مع عزة باشا واستقرت الأحوال فى اليمن بعد ذلك إلى نهاية الحرب العظمى سنة ١٣٣٦ حيث خرج الأتراك من اليمن ، وفى سنة ١٣٦٧ فى ربيع الثانى قتل الإمام يحى على أثر مؤامرة دبرت من بعض الوطنيين الناقمين على الحكم فى اليمن .

٥١ — ابنه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحى بعد فترة وجيزة جداً ادعى الإمامة فيها عبد الله بن الوزير فى صنعاء فقبضت عليه جنود الإمام الناصر ثم قتل بعد محاكمته بتهمة اشتراكه فى مؤامرة قتل الإمام يحى .

ويرجع الفضل فى استقلال البلاد اليمنية وتمتعها بالحرية من أى تدخل والمحافظة عليها من غدر المستعمرين إلى الإمام يحى وخليفته الإمام أحمد الناصر لدين الله فقد بذلا كل مجهود لحماية هذا الاستقلال والمحافظة عليه .

واليمن بعد ذلك غنية بأراضيها الزراعية وثروتها المعدنية الأمر الذى يكفل لها ما تصبو إليه نفوس المصلحين من أبنائها المخلصين إذا استخدموا الوسائل المشروعة وسلكوا الطرق الصحيحة .

٢٧ ــ عدن
والمقاطعات الجنوبية

موقع عدن ومساحتها — أقسامها — أهميتها — تاريخها — المقاطعات الجنوبية — لحج — الصبيحة — الضالع — الحواشب — العقارب — بلاد الفضلى — يافع — العواذل — العوالق — الواحدى — بيحان — بلاد المهرة .

موقع عدن ومساحتها :

عدن شبه جزيرة واقعة على البحر العربى يحدها من الجنوب بحر العرب ، ومن الشمال الغربى مقاطعة لحج ويصلها ببلاد العرب برزخ خور مكسر الضيق المنخفض الرملى وتبعد عنها نحو خمسة أميال وتبلغ مساحتها نحو ثمانين ميلا مربعاً .

اقسامها :

تشتمل عدن على شبه الجزيرة موقع عدن الأصلية ، وعلى المعلا والتواهى والبرزخ الموجود فيه خور مكسر وبقعة من الأرض شمال الميناء والبرزخ حيث تقع قرى الشيخ عثمان والحسوة وبئر جابر والعماد والغدير كما تشتمل على جزر ميون أوبريم وكمران فى البحر الأحمر ، ويقدر سكان عدن بثمانين ألف نسمة تقريبا .

اهميتها :

أهمية عدن فى موقعها الجغرافى والحربى وفى كونها مركز تجارى عظيم فى وسط الطريق بين أوروبا والهند بل هى حلقة اتصال بين الشرق والغرب وبعد ذلك فهى سلسلة تلال محرقة وتربتها قاحلة لا توجد بها مناظر طبيعية ولا الماء الذى هو أكسير الحياة .

وقد تحولت عدن بعد الاحتلال البريطانى سنة ١٨٣٩ فى خلال قرن واحد من قرية صغيرة مهجورة يسكنها بضعة آلاف من صيادى الأسماك إلى أكبر

مدائن شبه الجزيرة وأرقاها اقتصاديا وصحيا فقد أصبحت عدن تبسط نفوذها الاقتصادي وتتحكم فى حركة التصدير والتوريد على مساحة واسعة من العالم تمتد من مضيق موزمبيق جنوبا إلى السويس والبصرة شمالا ومن الهند شرقا إلى قرب أواسط أفريقية غربا .

وأخذت عدن تتقدم تدريجيا من ناحية العمران والتعليم وغير ذلك من شئون الاجتماع الممكنة وتصدر بها الآن عدة صحف عربية كما يوجد بها بعض النوداى والجمعيات .

تاريخها :

خضعت عدن للحكومات اليمنية الكبرى قبل الإسلام فحكمها المعينيون ثم السبئيون والحميريون ومن المحتمل أن الحميريين هم الذين بنوا الصهاريج بعدن — خزانات الماء — بعد انفجار سد مأرب فقد كان الحميريون فى ذلك الوقت مهندسين عظماء ولهم مشروعات عمرانية عظيمة .

وقد زارت عدن الملكة بلقيس ومعها حاشيتها والهدايا الثمينة التى أعدتها كهدية لسليمان عليه السلام من الذهب والجواهر والبخور كما دخلها الملك بختنصر البابلى عندما غزا الحجاز سنة ٥٧٤ ق م .

وكانت عدن فى زمن الحميريين ميناء هاما وكان ملك عدن والبلدان المجاورة لها شرحبيل صديقا للرومان وقد استرعت عدن انتباه الرومان وانضمامهم فاحتلوها وجعلوها مركز تجارة لهم ولما عجزوا عن حمايتها وتعضدها خربوها ثم عادت لمركزها بعد مدة قصيرة فى زمن قسطنطين العظيم ملك الرومان الذى أعاد صداقته مع ملك الحميريين وبنى فى عدن كنيسة لأجل التجار الرومانيين بإذن من الملك الحميرى .

واحتل الأحباش عدن عندما غزوا بلاد اليمن فى أوائل القرن السادس الميلادى بقيادة أرياط الذى جاء إلى عدن فى سفن الرومان وأخضعها وقد سبق تفصيل ذلك فى الفصل الخاص باحتلال الأحباش والفرس لليمن قبل الإسلام فليرجع إليه من أراد .

ولما ضاق الحميريون بسلطة الأحباش واستبدادهم استنجد سيف ابن ذى يزن أحد أمراء حمير بكسرى ملك فارس سنة ٥٧٣ م فأمده بجيش حارب الأحباش واحتل به عدن واليمن وظل حكم الفارسيين لهذه البلاد إلى أن جاء الإسلام فخضعت لسلطانه ثم ظلت خاضعة لحكم الخلفاء الراشدين وبنى أمية والعباس .

ولما استقلت اليمن تحت سلطة حكامها المحليين امتد نفوذ هؤلاء الحكام إلى عدن فحكمها عدا الأئمة الزيود آل زياد وآل نجاح والصليحيون والقرامطة وآل زريع وآل حاتم والأيوبيون وبنو رسول وآل طاهر ثم حكمها الأتراك والعبادلة سلاطين لحج حيث انتزعها منهم الانكليز سنة ١٨٣٩ وفى الفصل الخاص باليمن من هذا الكتاب بعض التفاصيل للسلطات التى حكمت عدن .

وذكروا أنه فى أواخر أيام بنى رسول أرسل امبراطور الصين سنة ١٤١٢ م رسولا إلى عدن يحمل خطابا وهدايا إلى ملكها يسمح للصينيين بالمعاملة التجارية مع عرب عدن وأتى هؤلاء الصينيون ببضائع ثمينة مثل الياقوت والكهرمان وغيرها .

والسلطان عامر بن عبد الوهاب أحد ملوك آل طاهر هو الذى بنى الصهريج المستدير المعروف الآن بصهريج بليفر الواقع خارج دائرة الصهاريج الأخرى ومد قناة تحمل المياه من بئر ماحطا إلى عدن سنة ١٥٠٠ م وكانت عدن أثناء هذه المدة مستودعاً للتجارة الثمينة مثل اللبان والرخام والطيب والبخور التى كانت تمر بين الهند والصين ومصر وأفريقيا وسوريا .

وفى سنة ١٥١٣ م حاول البرتغاليون احتلال عدن بواسطة قائدهم الفونس البوكرك ففشل بعد أن أحرق وسلب كل السفن الراسية فى الميناء ، ودمر ما استطاع تدميره بالمدافع ، وزار عدن أسطول حربى دنمركى تحت رئاسة فان دى بروك فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى لعقد اتفاق تجارى ولكن مفاوضته مع الحاكم التركى بعدن لم تفلح . وكانت الباخرة استشن

أول باخرة بريطانية زارت عدن سنة ١٦٠٩ م أما الأمريكان فقد وصلت أول سفينة لهم إلى عدن سنة ١٨٠٤ للبحث عن مكان مناسب لتجارتهم .

وقدمت إلى عدن بعثة فرنسية تجارية يصحبها رجل اسمه لاروك سنة ١٧٠٩ م كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة قال عنها أمين الريحانى فى كتابه ملوك العرب ما ملخصه :

« عرفنا هذا الأجنبى بعدن العربية فى ذلك الزمان وبحاكمها الكريم الأخلاق الذى أرسل عندما أبصر مراكب الأجانب رجالا من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم وخدماً يحملون إليهم الزاد والحلوى والمرطبات أقام الفرنسيون فى عدن بضعة أسابيع وشاهدوا فيها مالا يشاهده السائح اليوم لقد كانت عدن فى تلك الأيام عدن العرب والتوحيد بل عدن الشرق الصميم الرقيق الجانب الكريم الخلق العزيز الشان ولا أريد بالتوحيد الدين فقط بل اللغة أيضاً والجنس أما الوحدة الجنسية فكان قد تخللها شىء من خليط الهنود الذين هاجروا إلى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل أن احتلها الانجليز » .

« وعدن اليوم مدينة عمومية لا أوربية ولا شرقية ولا عربية مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية فهى من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ومن الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهم فى البحر العربى ومن الوجهة البحرية العمومية مستودع فحم لبواخر العالم التى تجرى بين الشرق والغرب » .

والريحانى يقسم عدن إلى قسمين : عدن الفحم والحصون والسياسة التى هى التواهى وعدن التجارة وهى وراء الجبل على مسافة خمسة أميال فى فم البركان أو ما كان بركانا فى قديم الزمان وفيها — حين زارها — أربعون ألفا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان وأشهر ما فيها أثر تبقى من آثار مجدها الغابر وهى خزانات الماء المبنية فى مضيق منحدر بين جبلين بناء متيناً محكما .

وهذه الخزانات من أجمل الأعمال الهندسية فى العالم ولكنها لا تمتلئ إلا مرة أو مرتين فى كل بضع سنين لقلة الأمطار وتاريخ هذه الأسداد مجهول فمن المؤرخين من يقول إنها بنيت فى القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها

إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح ومما لا يختلف فى أمرها أنها كانت مردومة عند الاحتلال الانجليزى فحفرت ورتمت سنة ١٨٥٦ م وأنها تسع ثمانين مليون جالون من الماء .

وللاحتلال الانجليزى لعدن قصة هى أنه فى سنة ١٨٣٧ م غرقت بجانب عدن سفينة اسمها (درياد ولت) رافعة العلم البريطانى فسلبها رعايا سلطان عدن العبدلى ووجدت بضائعها كما يقال معروضة للبيع فى سوق عدن وادعى السلطان الجهل بمعرفة أى شىء يتصل بالحادث فبعثت إدارة الشركة القبطان هينس على مركب حربى فى ثلثمائة من الجنود يطلب التعويض فجاء إلى عدن وفاوض السلطان سلطان لحج الذى كان مقيما فيها فأبى سموه .

واحتج القبطان هينس وهدد بإطلاق النار إذا لم يتنازل السلطان عن عدن فلم يحفل السلطان بذلك فضرب القبطان هينس عدن فى ١٩ كانون الثانى سنة ١٨٣٩ م وأمر السلطان الحامية بالدفاع فحدث بينها وبين الانكليز قتال لم يدم طويلا سلم العرب البلاد فى نهايته .

وأعلنت عدن ميناء مستقلة سنة ١٨٥٠ م ووضعت الضرائب الجمركية على الملح والخمور والكحول ثم ابتدأ التحسين فى عمارات المدينة وشوارعها وموارد المياه ومصلحة الصحة والطب وغير ذلك .

واستولت بريطانيا على الشيخ عثمان سنة ١٨٥٨ م ثم استولى عليها الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ولكنهم طردوا منها إلى حدود لحج بعد مدة قصيرة وعادت إلى الانكليز .

المقاطعات الجنوبية

هى عدة مقاطعات تقع جنوب وشرق اليمن بحدوده السياسية الحاضرة وتمتد على شاطىء البحر العربى من حصن مراد عند باب المندب غربا حتى حدود مسقط شرقا ويبلغ طول هذا الشاطىء نحو سبعمائة وخمسين ميلا .

ومساحة هذه المقاطعات تقدر بمائة ألف واثنى عشر ألف ميل مربع ويقدر البعض سكانها بستمائة ألف نسمة . بينما يرفعهم البعض الآخر إلى مايقرب من مليون نسمة .

وتشمل هذه المقاطعات سلطنة لحج وإمارة الضالع وبلاد الصبيحة والحواشب والعقارب (بير أحمد) ويافع وبلاد أهل الفضل والعوالق وبلاد العواذل والواحدى ومشيخة عرقه وحوره وسلطنة قشن وسقطرى وبيجان وأهم هذه المقاطعات وأكبرها حضرموت .

وهذا القسم الجنوبى من البلاد العربية يرتبط رؤساؤه بمعاهدات حماية مع بريطانيا ويخضع شئونه الخارجية لحكومة عدن ومن أجل ذلك دعيت هذه المقاطعات بالمحميات وإذا استثنينا حضرموت أمكننا القول بأن تاريخ هذه المقاطعات جزء من تاريخ اليمن الأكبر حتى استقلت فى الزمن القريب تحت سلطة رؤسائها وارتبطت أخيراً بمعاهدات الحماية مع بريطانيا .

وقد مر بهذه المحميات زمن طويل كان حبل الأمن فيها مضطرباً فكانت القبائل تشن الغارات وتقطع الطرق على بعضها بصورة مستمرة وظل سلاطين المحميات عاجزين عن إخضاع العناصر القبلية المسلحة ، بل خاضعين لها بحكم القوة فأفضى ذلك إلى موت الحياة الاقتصادية وتحكم البدو فى الحضر تحكما ظالماً واكتفى حكام المحميات بالنفوذ الاسمى فقط على القبائل .

واستمرت على هذا المنوال حتى شبت نيران الحرب العالمية الثانية التى رافقها تغيير كثير من النظريات والأوضاع فى الحياة فكان من نتائج ذلك أن تغيرت خطة بريطانيا نحو المحميات ووجهت لها نصيباً من اهتمامها والعناية

بها ، فعملت على إقرار الأمن فى ربوعها وشرعت فى مساعدتها على تحسين الحالة الاقتصادية والصحية والثقافية والاجتماعية .

وأول من عقد مع الانكليز معاهدة صداقة وولاء تطورت بعد ذلك إلى حماية . هم عشيرة العزيبى التى هى اليوم من عشائر لحج ثم عقد الإنكليز فى سنة ١٨٣٩ مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ومما هو جدير بالذكر أن يافع لم تعقد معاهدة الحماية إلا بعد خمس وستين سنة من معاهدة الولاء والصداقة أما حضرموت فقد عقدت معاهدة الحماية سنة ١٨٨٨ م وأمضيت فى الشحر من قبل السلطان عوض ابن عمر العقيطى وأخيه عبد الله بحضور المستر هنتر معاون والى عدن ثم أمضاها حاكم عدن جنرال هوج .

لحج :

تقع مقاطعة لحج فى الشمال الغربى للشيخ عثمان والمسافة بينها وبين عدن لا تزيد عن ٢٤ ميلا ويبلغ طول المقاطعة نحو خمسة وثلاثين ميلا وعرضها نحو ثمانية أميال ويحدها غرباً مقاطعة الصبيحى وشرقا مقاطعة الفضلى وعاصمتها تدعى الحوطه .

وتقع حول الحوطه الحقول والبساتين ولا سيما فى الناحية الشمالية حيث بساتين الحسينى وبالقرب من الحسينى يمر وادى تبن بعد أن يتفرع إلى فرعين الوادى الكبير وهو يسير بمحاذاة البساتين متجهاً نحو الجنوب والوادى الصغير وهو يتجه نحو الشرق ماراً بقرية الثعلب .

ومياه وادى تبن تنحدر من جبال اليمن الشاهقة فى أواخر فصل الأمطار والمياه التى تنحدر من هذه الجبال تجرى سيولا عظيمة فى أودية كثيرة ولكنها لا تلبث أن تتلاشى وتشربها الأرض فلا يبقى إلا الماء الذى يسيل من العيون كماء الغيل الذى يجرى فى وادى تبن والماء الذى يجرى فى وادى بنا من بلاد الفضلى .

وقد ظهر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى أول سلطان من سلاطين لحج وكان قائداً من قواد الزيود طامعاً بالسيادة والمجد ، أقامه إمام صنعاء عاملا على اليمن الأسفل فتوسع بالإجازة الإمامية وأقام نفسه حاكما مطلقاً مستقلا بل أقام نفسه سلطاناً(١) .

ثم خلفه فى الحكم أمراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة وبحبهم الزراعة التى هى حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة وموضوع اهتمام سلاطينها .

ومنذ ذلك الحين أى حوالى سنة ١٧٣٥ كان العبادلة أيضاً حكام عدن وسلاطينها إلى أن احتلها الإنكليز كما سبق سنة ١٨٣٩ م حيث انحصر حكمهم فى مقاطعة لحج وعقدوا مع الإنكليز معاهدة الحماية .

ومن أشهر سلاطين لحج محسن بن فضل الذى احتل الإنكليز عدن فى عهده وكان غيوراً على استقلاله تواقاً إلى السيادة الواسعة النطاق محسناً إلى العشائر محباً للعلم والعلماء .

ومن أشهرهم أيضاً السلطان أحمد بن محسن عدو الترك والذى دعا أمراء العرب إلى مؤتمر عام يعقد فى إحدى عواصم الجزيرة للنظر فى مصير الأمة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها والسلطان محسن فضل الذى كان الساعد الأيمن للسلطان على بن محسن فضل فقد كان أديباً ذكى الفؤاد عصرياً فى آرائه وأعماله محباً للاصلاح والعمران عالى الهمة بعيد النظر شديد البأس ثابت العزم والإرادة فباشر فى أيامه القصيرة إصلاحات كثيرة فى المالية والجندية والمعارف وتوفى فى عدن عقب الحرب العالمية الأولى عن اثنين وثلاثين سنة .

وفى السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى أى فى صيف سنة ١٩١٥ م كان للدولة العثمانية نحو خمسة عشر ألف جندى فى اليمن تحت قيادة على سعيد باشا الجركسى فأراد هذا أن يهاجم عدن لغرض مشاغبة الإنكليز هناك ولما كانت لحج فى طريقه بعث إلى سلطانها على بن محسن فضل يستأذنه بالمرور ويعده

---

(١) ملوك العرب : للريحانى .

بالمحافظة عليه وعلى ملكه فأبى السلطان على لأنه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها واصطدم بالجيش التركى الزاحف فانهزم ودخل الأتراك لحج . بينما كان هارباً مع أفراد أسرته تحت جنح الظلام متجهين إلى الشيخ عثمان إذا بنجدة من الجنود البريطانية ظنتهم من كشافة العدو فأطلقوا عليهم النار فقتلوا عدداً منهم وأصيب السلطان على برصاصة فى رجله فنقل إلى عدن وتوفى من أثر الجرح هناك .

وبقى الأتراك فى لحج إلى أن أعلنت الهدنة سنة ١٩١٨ م حيث عادت لحج إلى سلاطينها العبادله وكان السلطان عبد الكريم فضل هو خلف السلطان على بن محسن وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير فضل الذى فر إلى اليمن أثر حادثة داخلية واختير أخوه على بن عبد الكريم سلطاناً للبلاد بعده سنة ١٩٥٢ م .

الصبيحة :

بطن من حمير يعيشون فى الصحراء وعلى سفوح الجبال والتلال الواقعة بين إمارة العبادلة ومقاطعة باب المندب غربى عدن وتمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب .

وهم عشائر متعددة يحمل بعضهم السلاح ويبلغ عدد السكان حوالى عشرين ألف نسمة وقد ضمت هذه المقاطعة أخيراً إلى لحج وأصبحت خاضعة لسلطانها

وفى بلاد الصبيحة عدة قرى أهمها طور الباحة والرجاع ودار القديمى ويهتم الأهالى بالزراعة التى يعتمدون فيها على مياه الأمطار والغيول ولديهم نخيل كثير كما يهتمون بتربية الجمال التى تساعدهم على السفر ونقل البضائع والأمتعة .

الضالع :

تقع على بعد ٩٦ ميلا شمال عدن وهى قرية تقع على هضبة خصبة وبقربها يقع جبل جحاف الذى يبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية آلاف قدم .

والضالع عاصمة الأميريين وكانت تمر ببلادهم طريق القوافل القديمة التى تسير من عدن إلى صنعاء وهم يشتغلون بزراعة الذرة والقات وقليل من الفواكه

الحواشب :

تقع مقاطعتهم شمال مقاطعة لحج وعاصمتها المسيمير الواقعة على هضبة صغيرة تشرف على الجانب الأيسر لوادى تبن على بعد اثنى عشر ميلا من حدود اليمن وتجرى فى هذه البلدة مياه الوادى الكبير وتزرع الأراضى على جانبى هذا الوادى بأنواع الذره .

ولا يزيد عدد الحواشب عن عشرة آلاف نسمة ويحكمهم أحد رؤسائهم وهم يخضعون له خضوعا تاما .

العقارب :

تمتد مقاطعة العقربى من بئر أحمد إلى رأس عمران على بعد نحو خمسة أميال غرب الشيخ عثمان والعقارب فخذ من العبادلة أعلنوا استقلالهم فى العقد السابع من القرن الثامن عشر الميلادى أى حين أعلنت الولايات المتحدة الامريكية استقلالها . . .

ومقاطعة العقربى ذات القبيلة الواحدة والبلدة الواحدة (بئر أحمد) أقدم السلطنات المستقلة وأصغرها وهى الآن تحت حكم العبادلة فى لحج .

بلاد الفضلى :

يمتد ساحلها من شرق مقاطعة العبادلة إلى مسافة مائة ميل تنتهى إلى جهة الحدود الغربية لمقاطعة العوالق وهى تنقسم إلى مقاطعتين كبيرتين ، أراضى أبين المنخفضة الساحلية والأراضى المرتفعة التى تقع فى الشمال .

وشقرة هى عاصمة المقاطعة ومقر سلاطين آل الفضلى وتقع على الساحل وأهم قرية فى أراضى أبين هى زنجبار وتحيط بها مزارع واسعة يهتم أصحابها بزراعة الذرة والسمسم والبطيخ والشمام والخضروات على اختلاف أنواعها وجميع فواكههم وخضرواتهم تقريباً تباع فى عدن .

وقد نجحت زراعة القطن فى المزارع القريبة من زنجبار وفى منطقة يقال لها جعار تقع على الحدود بين بلاد الفضلى وبلاد يافع نجاحا هائلا وأصبح يصدر بمقادير كبيرة إلى الخارج .

ويمر بأراضى أبين وادى بنا الذى يأتى من الجبـال الواقعـة فى الشمال فإذا نزلت الأمطار سال الوادى ماءً غزيرا ويروى أراضى أبين الخصبة .

وإلى الشمال من شقرة توجد جبال سوداء كالفحم على سفوحها بعض المبانى العتيقة والآثار التى يقال إنها حميرية ، ويقول الأهالى ان بعض هذه الجبال رآها أجدادهم تحترق فى الزمان القديم .

ويقال بأن فى بلاد الفضلى من عشرين إلى ثلاثين ألف يحملون السلاح

يافع :

تقع بلاد يافع فى الشمال الشرقى لعدن بين الضالع الواقعة فى الغرب وبلاد العواذل فى الشرق وبلاد الفضلى فى الجنوب وتنقسم إلى ولايتين يقال لإحداهما يافع العليا وللأخرى يافع السفلى .

وتشمل يافع العليا قبائل الموسطة والظبى والمفلحى وعشائرهم وهم أقرب إلى الحضر منهم إلى البداوة ويدينون بالطاعة لآل الشيخ على .

ويمتازسطح يافع العليا بسعة الأراضى الزراعية وقلة الجبال وأهم حاصلاتها الحبوب والورس وبعض الفواكه والتوابل والسمن والزيت ولهم خبرة بالزراعة وتربية المواشى والدواجن ويعتمدون فى رى الأراضى على الأمطار .

أما يافع السفلى فبها قبائل آل سـعد وآل كلد والناخبى واليزيدى وغـيرهم وتحيط بيافع السفلى جبال شاهقة جرداء تخترقها أودية عميقة والتربة هناك خصبة ومعظمها خضراء بأشجار البن وهو ثروة الأهالى وتصدر منه كميات كبيرة إلى عدن وحضرموت ولحج وظفار وشرق افريقيا وتزرع فى هـذه المقاطعة بعض الحبوب والفواكه .

ويقيم سلطان يافع السفلى فى مدينـة القارة وتقـع فى ساحة من الأرض منبسطة أما مقر سلطان يافع العليا فالمحجبة وتقع فى منطقة الموسطة ويقال بأن فى بلاد اليوافع مالا يقل عن سبعين ألف مقاتل ويقدر عدد السكان بمائة وأربعين ألفاً .

والنساء فى بلاد يافع سافرات الوجه مع حياء وعفاف وهن يشاركـن

الرجال فى فلاحة الأرض وزراعتها وتربية المواشى وقد يشاركنهم فى الحروب ، والجهل ضارب أطنابه فى طول البلاد وعرضها فلا أثر هناك للثقافة .

العواذل :

أما بلاد العواذل فتقع بين الفضلى فى الجنوب والعولقى فى الشرق ويافع فى الغرب ومن بلدانها مكيراس التى تقع على جبل شاهق يعرف بالظاهر وقرية لودر التى تبعد حوالى خمسة أميال عن سفح الجبل الذى يبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية آلاف قدم عن سطح البحر وقرية عريب التى يقيم فيها سلطان العواذل أثناء فصل الصيف أما الشتاء فإنه يقضيه فى قصره بقرية ذادا التى تبعد حوالى ميل واحد من لودر .

ويشتغل الأهالى بزراعة الفواكه والقمح والبطاطس والطماطم والبصل ويعتمدون فى زراعتهم على ماء الآبار والعيون وعلى الماء الذى يجرى فى وادى العجمة من بعض العيون .

والعواذل متمسكون بعوايد عرب الجنوب وتقاليدهم من ضيافة وشجاعة وهم كسائر عرب المقاطعات الجنوبية من البدو يلبسون الإذار القصير ويتمنطقون بالخناجر المعقوفة الإغماد ويعصبون رءوسهم بعمائم مصبوغة بالنيل ويدهنون أجسامهم بالنيل اعتقاداً منهم بأن ذلك يقيهم البرد وتلبس النساء أثواباً فضفاضة يتمنطق فوقها بأحزمة من الجلد ويطلين أجسامهن ووجوههن بمساحيق صفراء وحمراء .

وبالقرب من مكيراس تقع قرية العادية التى يوجد فيها بعض آثار الحميريين ومن بينها أحجار عليها نقوش بالخط الحميرى وتقع بلدة البيضاء بالقرب من جبل الظاهر وهى داخلة فى حدود اليمن .

العوالق

تقع بلاد العوالق شرق بلاد الفضلى والعواذل ويحدها من الجنوب بحر العرب ومن الشمال منطقة بيحان ومن الشرق بلاد الواحدى وحضرموت ، وتنقسم إلى قسمين : العوالق العليا والعوالق السفلى وهذه الأخيرة أقرب

إلى الساحل وهى مزدحمة بالسكان وبها واديا أحور وأخضر ومدينة أحور التى تبعد عن البحر بضعة أميال هى مقر السلطان وهى واقعة فى منطقة قاحله ولكنها مركز تجارى حيث تمر بها القوافل الذاهبة إلى عدن والواردة منها إلى المناطق الشمالية والشرقية ولا حور مرسى صغير تقصدها المراكب الشراعية .

ومن القرى الهامة (المحفد) وهى السوق الرئيسى القبائل آل با كازم ، ومن أهم أودية العوالق السفلى وادى المحفد ووادى المنقعة ووادى ضيقة التى ينحدر سيله المتجمع من شعابه ويتجه إلى منطقة أحور ويصب فى البحر ويعتبر وادى ضيقة أطول الأودية فان القوافل تقطعه فى ثلاثة أيام .

أما العوالق العليا فكلها جبال وتلال وهضاب ويقيم السلطان فى مدينة نصاب وتكثر فى منطقتها الأراضى الزراعية وفيها بعض السهول الفسيحة ومن أهم القرى فى العوالق العليا المصيفة ويشبم والصعيد .

وأهم الأودية فى العوالق العليا وادى ضرا وعبدان ووادى يشبم ويمر وادى يشبم هذا بمدينة حبان التابعة لمنطقة الواحدى .

وفى جنوب بلاد العوالق على ساحل البحر تقع مشيختا عرفة وحوره وهما مشيختان مستقلتان .

الواحدى :

على بعد مائتى ميل شرق عدن تقع بلاد الواحدى وغرب حضرموت مباشرة وعاصمتها حبان وهى مركز تجارى ويقيم السلطان الآن فى بلدة عزان التى تبعد عن الساحل بنحو أربع مراحل .

وبئر على أقرب موانى بلاد الواحدى إلى حضرموت وتقع المجدحة شرق بئر على أما بلحاف فغربيها .

ومن البلدان المهمة الحوطة وهى مركز تجارى مهم وبلدة لهية والروضة وجول الشيخ ورضوم ويبعث وجردان وأهم القبائل فى بلاد الواحدى آل السود وآل باعوضه وآل العضم وآل باخرخور وآل سليمان وآل حبتور وآل عمر بن على وآل باديان .

وأجود الأراضى تربة مينعة وحبان وتسق بمياه الأمطار وتوجد عيون فى أودية حبان وجردان ورضوم والجورى وعين بامعبد .

وأهم حاصلات البلاد التمر والحبوب والعسل وتوجد صناعة النسيج بكثرة فى الروضة والحوطه ولهيه ويوجد فى حبان نحو خمسمائة من اليهود .

بيحان :

بيحان هى آخر المقاطعات الجنوبية التى ضمت إلى المحيات وقد استطاع الانجليز ضم هذه المقاطعة بواسطة إسلام أحد ضباطهم السياسيين ومصاهرته لحاكم بيحان الذى ينتمى إلى الأشراف الحسينيين .

وتقع مقاطعة بيحان شمال بلاد العوالق وغرب حضرموت وشرق اليمن بحدودها الحاضرة وعاصمتها بيحان .

وقد قامت فى بيحان والمواضع القريبة منها حضارة قامت على عبادة القمر تعرف فى التاريخ القديم بالقتبان وكانت عاصمتها تدعى (تمنا) ثم انقرضت قبل ألفى سنة تقريبا بعد كارثة لا بد وأن تكون قد هزت العالم العربى من أساسه .

تلك الكارثة هى خراب تمنا عاصمة القتبان القديمة فمنذ ذلك الحين أسدل الصمت ستاراً كثيفا من نسيان على تاريخ الوادى حتى ان سكانه المعاصرين ليست لديهم أية فكرة عن أسلافهم المدهشين الذين عملوا على إشادة طريق البهارات فى أيام التوراة وعلى تحويل هذه الأراضى القاحلة إلى أراضى غنية مزدهرة .

وقد عاشت ملكة سبأ على مقربة من هذا المكان يوما ما فلا بد وأنها مرت بهذه الرمال الموجودة الآن مراراً عندما كانت حقولا نضرة غنية بالماء .

وفى الشمال الشرقى من بيحان تمتد الرمال المتكاثفة التى تدعى رملة الصباطين وهى عبارة عن بحر مثلث مترامى الأطراف من الرمال الصريحة والتى ترعرعت على سواحلها الصخرية يوما ما ثلاث من ممالك جنوب الجزيرة العربية الأربع

معين فى الشمال وحضرموت فى الشرق وسبا وقتبان فى الجنوب ، وقد قامت مدينة مأرب عاصمة سبأ فى الزاوية الشمالية الغربية من هذه الأراض التى ليس لأحد سلطان عليها كما قامت تمنا عاصمة القتبان فى الزاوية الجنوبية الغربية منها وكلتا المدينتين الآن تحت الرمال .

وقد وصلت إلى بيحان فى فبراير ١٩٥١ م بعثة أمريكية مؤلفة من خمسة عشر شخصا تحت رئاسة المستر وندل فلبس مارة بحضرموت وكانت البعثة مزودة بالسيارات والمحركات الكهربائية والسلاح وكل ما يلزم لعملية الحفر وإزالة الرمال عن آثار حضارة القتبان .

ويقول وندل فلبس إن الفضل فى إرسال هذه البعثة يعود إلى المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان .

بلاد المهره

وبلاد المهره آخر مقاطعات الجنوب العربى على الساحل الشرقى ويحدها غربا حضرموت وشرقا سلطنة عمان وجنوبا بحر العرب وشمالها منطقة المناهيل التابعة لحضرموت .

وقد أصبحت بلاد المهره تحت الحماية البريطانية حسب المعاهدة مع سلطانها ابن عفرار سنة ١٨٧٦ م وعاصمتها قشن الواقعة على الساحل ومن أهم مدنها سيحوت والغيضة وهما على الساحل أيضاً .

ويقيم السلطان فى جزيرة سقطره الواقعة فى البحر العربى محاذية لبلاد المهره وينوب عنه فى قشن أحد أقاربه وينتسب السلطان إلى عشيره بنى زياد المهريه وللمهره لغة خاصة يتفاهمون بها غير اللغة العربية .

ويعيش نصفهم على تربية الماشية ونصفهم على صيد الأسماك واستخراج الدهن منها لطلاء السفن الشراعية وهم محرومون حرمانا تاما من أى مظهر من مظاهر التعليم أو التجارة أو الزراعة وفى شبه عزله عن العالم إلا ما يتاح لهم من اتصال بسيط بالمكلا وعدن فى سفنهم الصغيرة .

٢٨ – حضرموت

موقعها – حدودها – مساحتها – أقسامها – سكانها – أراضيها الزراعية – تاريخها القديم – عاد – الحكم الوطنى قبل الإسلام – امتداد الحكم اليمنى إلى حضرموت – حكومة كندة – الإسلام فى حضرموت – حكم الخلفاء الراشدين – بنو أمية والعباس – الأباضية – فوضى واضطراب – السلطنة الكثيرية – السلطنة القعيطية .

موقعها – حدودها :

تقع حضرموت على ساحل البحر العربى شرقى عدن واليمن والمقاطعات الجنوبية ، على بعد خمس عشرة درجة عرضا شمال خط الاستواء ، وخمسين درجه طولا شرقى جرينتش .

ويحدها من الشرق سيحوت وبلاد المهرة ومن الغرب خط يبتدىء شرق بئر على ويمتد فى انحراف نحو الغرب إلى غرب وادى عرمة فشبوة فالعبر ، ويحدها من الشمال الربع الخالى ومن الجنوب بحر العرب

مساحتها :

يقدر البعض مساحة حضرموت بمائة وعشرين ألف ميل مربع(١) وتقدر مساحة الساحل بأربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر غربا وعشرين كيلو متر عند الحدود الشرقية وأعلى نقطة فيه تقع فى سطه ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٢١٨٧ مترا .

أقسامها :

تحكم حضرموت الآن سلطنتان هما السلطنة القعيطية والكثيرية وينقسم الجزء الخاضع للقعيطى إلى خمس مقاطعات كبيرة أو خمسة ألوية إدارية تمثل الجزء الأكبر من البلاد .

---

(١) تقدم أن مساحة المقاطعات الجنوبية جميعها ١١٢ ألف ميل مربع .

١ — لواء المكلا ، العاصمة : ويمتد على الساحل من المعينة شرقا إلى حدود حجر ويشمل مقاطعات غيل باوزير وشحير وروكب والحرشيات وقوة وبروم وتقع فى هذا اللواء قبائل العوابثة والعكابرة والمحمديين وآل الحيق والشعاملة والعصارنة والحامديين وآل بهيش .

٢ — لواء الشحر : ويمتد على الساحل من نهايه حدود جبال دخ حساى شرقاً إلى وادى المعينة غرباً وتنضم تحت هذا اللواء مقاطعات المعيان وتبالة والحامى والديس وقصيصر وريدة آل عبد الودود .

وتسكن فى هذا اللواء قبائل ثعين والحموم والقرزى والشعاملة والمسيليين والعصارنه وآل باحباب والمعارة والجوهيين .

٣ — لواء حجر : ويحتوى على وادى حجر بمدنه وقراه من مينفع إلى رأس الكلب ومن المناطق التابعة له مينفع والصدارة وكنينة ومحمدة ويسكنه من القبائل نوح وحجر بن دغار وبلبحيث وباقطمى والسمحى .

وهذه الألوية الثلاثة فى الساحل أما فى الداخل فيقع :

٤ — لواء دوعن : ويحتوى على وادى دوعن الأيمن والأيسر ومنطقة المشهد والهجرين ووادى عمد ووادى العين وجميع المدن والقرى الواقعة بها .

وفى هذا اللواء قبائل العمودى وسيبان ونوح دوعن والخنابشة والخالكة وآل محفوظ وآل لسود والدين والمشاجرة والأبارقة والقثم والحامدى ويافع والجعدة وآل ماضى وآل باتيس وآل باصليب والعوابثة .

٥ — لواء شبام : وتنضم تحته المدن والقرى الواقعة من وادى دوعن تحت المشهد ووادى حضرموت إلى شبام شرقاً وإلى حصن العبر غرباً كما يضاف إلى هذا اللواء أيضاً مناطق آل تميم والمناهيل فى شرق الوادى بما فيها دمون وعينات وقسم والقرى القريبة منها .

وفى هذا اللواء قبائل العيعر ونهد والكرب وآل مخاشن فى الغرب وقبائل وادى دهر ورخية وعرمة وآل حريز ويافع وقبائل آل تميم والمناهيل فى الشرق .

وقد دخل تعديل أخيراً على تقسيم الولايه فأفرد وادى عرمة والمناطق المحيطة به والقريبة منه إلى حدود حضرموت الداخلية الغربية بلواء خاص وبذلك كانت الألوية ستة .

أما السلطنة الكثيرية فتقع أراضيها فى داخل حضرموت ما بين تريم شرقا إلى الحزم شرقى شبام غربا وتمتد حدود المنطقة الكثيرية من تريم شمالا إلى حصن الضبيعة ووادى زبون فى الجنوب فى شبه خط متعرج ثم يمتد الخط من وادى زبون إلى جهة الغرب حتى يحاذى وادى الحرية المتاخم للحزم فتتجه الحدود فى خط مستقيم إلى جهة الشمال حيث يمر بالحزم شرقى شبام ووادى جعيمة .

وتقع فى هذه المنطقة سيئون عاصمة السلطنة الكثيرية وتريم وتاربة وبور ومريمة وتربس والغرفة والحوطة وجفل والحزم ومدودة والفرق وهذه المدن والقرى فى وادى حضرموت الرئيسى وفى الجنوب من هذا الوادى تقع بلدان غيل عمر وساه وغيل بن يمين .

وأهم القبائل فى السلطنة الكثيرية هم آل كثير والشنافر أى القبائل التابعة لهم مثل آل جابر وآل باجرى والعوامر وغيرهم .

سكانها :

لا يوجد إحصاء رسمى لعدد السكان فى البلاد الحضرمية ولكن يقدرهم بعض المطلعين بثلاثمائة وخمسين ألفاً ويرفعهم البعض إلى نصف مليون وكلهم من الأصل العربى الصريح وفيهم عدد كبير من حمير وكندة كما توجد أسر كبيرة عدنانية وقحطانية هاجرت إلى حضرموت من اليمن والعراق وغيرهما من البلدان العربية .

ويتمذهب الحضارم فى الأصول بمذهب السنة على طريقة الإمام الأشعرى وفى الفروع بمذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى ولا توجد بينهم طوائف أصلا مخالفة لدين الإسلام وعقيدة السنة ومذهب الشافعية ما خلا أفراد من الهنود البراهمة ، البانيات : يشتغلون فى المكلا بالتجارة .

أراضيها الزراعية :

يتكون معظم القسم الداخلى لحضرموت من أودية فسيحة أهمها وادى حضرموت الرئيسى الذى تمتد على حافيته أهم المدن والقرى فى البلاد الداخلية مثل تريم وسيئون وعينات وقسم والغرفة وشبام والقطن وغيرها وتأخذ المزارع مساحات واسعة من هذا الوادى العظيم وكل أراضيه جيدة صالحة للزراعة غير أن أجودها القسم الواقع بين الفرط غرباً وشبام شرقاً حيث تجتمع سيول الأودية العليا وتنحدر إليه وتكسبه طمياً كثيراً .

وفى هذا الوادى الفسيح يزرع القمح فى الشتاء والذرة فى الصيف بماء الآبار والآلات الرافعة للماء ويوجد النخيل بكثره فى هذا الوادى حتى أن سكانه الذين يعتمد بعضهم على التمر كغذاء رئيسى أحياناً يستغنون بتمر نخيلهم عن التمر الوارد من البصرة إلى الساحل الحضرمى وكذلك الحال فى وادى دوعن وغيره من أودية الداخل .

ومن الأودية المهمة التى توجد فيها أراضى جيدة صالحة للزراعة أودية سر وهينن . وعمد . ورخية . ودهر . وعرمة . ووادى بن على ووادى العين ووادى دوعن الأيمن والأيسر إلا أن هذه الأودية تعتمد فى رى أراضيها على مياه الأمطار فقط لعمق مياه الآبار فى مناطقها التى يبلغ فى بعضها ثلاثمائة قدم وأكثر وكل هذه الأودية فى الداخل .

أما فى الساحل فتنتشر التربة الزراعية على طول الساحل من ريدة آل عبد الودود فى الشرق إلى وادى حجر فى الغرب وكل هذه الأراضى تسق بمياه العيون التى توجد بكثرة فى مناطق الساحل وبالأخص فى منطقه غيل باوزير التى بلغت العيون فيها إلى أكثر من خمس وعشرين عينا .

وفى وادى حجر بالقرب من حدود حضرموت الجنوبية الغربية يقع نهر حجر العظيم الذى يصب بالقرب من رأس الكلب ويمر بإقليم منيفع الخصيب ولو أحسن استعمال مياه هذا النهر لغيرت الوضع الاقتصادى فى حضرموت ودفعت به إلى الأمام مراحل شاسعة .

وأهم ما يزرع فى الساحل الحبوب على اختلاف أنواعها والخضروات والفواكه وتحتل النخيل ساحات واسعة من هذه الأراضى كما يزرع التمباك فى بعض المناطق وبالأخص فى غيل باوزير حيث تنتج التمباك المشهور فى العالم بجودته .

التاريخ الحضرمى القديم

عاد

يبتدئ المعروف من تاريخ حضرموت القديم بعاد ، ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وكانت منازلهم بالاحقاف كما ينص القرآن الكريم .

ومن العسير جداً تحديد الزمن الذى قامت فيه حكومة عاد وتحقيق الاحداث التى حصلت فى عهدهم كما أنه لم تقم حتى الآن أدلة تاريخية قاطعة تبين المناطق التى كان يسكنها هؤلاء القوم من حضرموت بالضبط وربما حدثتنا عن ذلك الآثار التى يتاح لنا الكشف عنها فى يوم من الأيام .

وقد سبق عند ذكر الأمم البائدة ما أشار إليه القرآن الكريم من قوة عاد وشدة بطشهم وأن الله عز شأنه جعلهم خلفاء من بعد نوح وزادهم فى الخلق بسطة فكفروا نعمة الله وعبدوا الأصنام وقالوا لنبيهم هود عليه السلام اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

ويقول المؤرخون انه بينما كان وفد من عاد يستقى عند البيت الحرام فى مكة بسبب القحط الذى استمر فى بلادهم ثلاث سنوات متوالية كان العذاب قد أهلك الكفرة العتاه من قومهم فقد أرسل الله تعالى عليهم ريحاً فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

وعاد الوفد من مكة بعد هلاك قومهم حيث لم ينج من العذاب سوى هود عليه السلام ومن آمن به واستمر الملك فى أعقاب هؤلاء مدة طويلة ويسميهم المؤرخون عاد الثانية حتى نشبت حروب بينهم وبين قبيلة ثمود المجاورة لهم ولا يذكر التاريخ أكثر من أن ثمود ظفرت بعاد وقتلت عدداً كبيراً منهم وشتتت بقيتهم فتفرقوا فى الأرض ولم يعرف لهم خبر ولذلك أدرجهم التاريخ

بين الأمم البائدة وكانت ثمود تقيم فى موضع يقع بين عسير واليمن وحضرموت ثم انتقلت لأسباب لا نعلمها بعد ظفرها بعاد إلى وادى القرى فى شمال الحجاز.

الحكم الوطنى قبل الاسلام

والمعلومات الموجودة حتى الآن عن الحكومات الحضرمية الوطنية التى قامت على أكتاف ملوك من الحضارم أنفسهم بعد تفرق عاد قليلة جداً لا تشفى غليلا ولا تساعد على إزالة الغموض الذى حف بالتاريخ الجاهلى لهذا الجزء المهم من جنوب بلاد العرب .

وكل ماعلم من هذا التاريخ أنه قد قامت فى حضرموت قبل الميلاد المسيحى مملكة حضرمية ذات شأن بجانب الممالك الجنوبية التى قامت غرب حضرموت وشمالها الغربى وهى :

معين . وقتبان . وسبا . حمير

والذى لايختلف فيه المؤرخون أن سكان حضرموت القدامى الذين كونوا هذه المملكة هم من العرب العاربة سلالة قحطان أحد الفرعين العربيين العظيمين ولكننا لا نعلم بالضبط متى قامت هذه المملكة وكيف كانت حضرموت عقب تفرق عاد وكم دامت الفترة الزمنية بين آخر ملوك عاد وبين قيام المملكة القحطانية الحضرمية .

ويذكر بعض المؤرخين ان عامر بن قحطان أول من نزل الاحقاف أى بعد عاد فكان إذا حضر حرباً أكثر من القتل فصاروا يقولون عند حضوره حضرموت ثم صار ذلك لقباً عليه وصاروا يقولون للأرض التى بها قبيلة أرض حضرموت ثم أطلق على البلاد جميعها وهناك أقوال أخرى فى سبب تسمية هذا الجزء من بلاد العرب بحضرموت وكلها مما لا يطمئن إليه طالب الحقيقة

وقد كانت حضرموت فى هذا العهد عبارة عن مجموعة محافد أو إمارات صغيرة يتولى شئونها أمير أو قيل كما يسمونه . ومن أشهر هذه المحافد أو الإمارات دمون وشبام وهيتن وعندل والشحر ويعرف أصحاب المحافد بالازواء جمع

ذو أى صاحب وكان بين هؤلاء الأمراء من التنازع على السلطة ماهو طبيعى فى تاريخ الأمم فيحدث أن يؤدى التنازع إلى الاصطدام والحرب فيتغلب القوى على الضعيف ويستولى على أملاكه ومواضع نفوذه فإذا امتدت سلطته واتسع نفوذه كون مملكة وسمى نفسه ملكا .

ونقل بعض المؤرخين — والعهدة عليه — أن نظام الحكم فى حضرموت فى هذا العهد يخالف نظام الحكم فى اليمن فبينما الحكومة فى اليمن وراثية تنتقل إلى الأبناء والإخوة كانت فى حضرموت تنتقل إلى أول مولود فى العائلة الملكية أثناء حكم الملك فعند الاحتفال بتوليته الملك يرفع إليه خاصته قائمة بأسماء الحوامل من العائلة الملكية فيعين الملك لكل منهن امرأة تقوم بمراقبتها وخدمتها حتى تضع فأول نبيلة تلد غلاماً يأمر الملك بمن يعتنى بتربيته ويقوم بتهذيبه وإعداده للملك .

والملك عندهم مطلق التصرف يسجن ويسرح ويقتل متى شاء وقد يفدى المسجون نفسه بالمال وليس للسجون والعقوبات قوانين وأنظمة معلومة . ومن عادات الملك أنه يحلق لحيته وشاربه ويضفر شعوره جدايل يرسلها خلفه وعلى كتفيه وحين ينزل من قصره يركب فرساً أو مركبة تجرها الخيول .

وكان الملوك ينقشون على النقود صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التى ضربت فيها بالحرف المسند « الحروف الحميرية » وأحيانا ينقشون صورة الثور أو الصقر أو البومة .

والشعب فى عهدهم ينقسم إلى ثلاث طوائف :

١ — الزراع . وهؤلاء عليهم ملاحظة الأرض وزراعتها وحفر الترع وإقامة السدود لحفظ السيول وتوزيعها على المزارع والحقول والحدائق والبساتين

٢ — حملة السلاح . وهؤلاء يحمون البلاد ويحفظون الأمن ويحرسون القوافل ومنهم تتكون حاشية الملك وأعوانه وحرسه .

٣ — التجار وأهل الحرف ومن يلحق بهم كالعمال .

وماقيل عن العلوم والمعارف عند العرب فى فصل سابق يقال عن الحضارم

وكانوا يكتبون بالحرف المسند ، الحروف الحميرية ، ولقلة الورق عندهم كانوا يكتبون فى الجلود وفى ألواح الخشب وإذا كان ما يراد كتابته أمراً هاماً فإنهم يكتبونه على الصخور .

وللحضارم فى هذا العهد مهارة مشهورة فى النسيج وفى صناعة الحلى الدقيقة وزخرفة الآنية وصناعة الأثاث وتركيب الروائح الطيبة وتحضير البخور .

وإلى جانب اهتمامهم بالزراعة وإقامة السدود وغراسة الأراضى بأنواع الفاكهة وزراعتها بمختلف الحبوب كانوا تجاراً ذوى مهارة فائقة .

وكانت مدينة الشحر أهم ميناء وأكبر مركز تجارى فى جنوب بلاد العرب تأتيها السفن من الهند وخليج فارس وسواحل أفريقيا الشرقية ومن مصر مشحونة بأصناف السلع وأنواع المتاجر وكان كثير من هذه السفن للحضارم يتولون قيادتها بأنفسهم وكانوا يأتون من الهند بالأحجار الكريمة والعاج والأطياب والتوابل وخشب الأبنوس والقطن والقصدير . ومن سواحل أفريقيا بالذهب والعاج والعطور وخشب الأبنوس أيضاً وريش النعام ومن البحرين باللؤلؤ وكانت مدينة شبام تبعث إلى الشحر بحاصلات الداخل من البخور واللبان والمر وغيرها .

وتصدر هذه التجارة العظيمة من حاصلات البلاد وغيرها من البضائع الواردة إليها من الخارج بواسطة القوافل التى تخترق حضرموت إلى سواحل البحر الأحمر حيث تسير محاذية لهذا الساحل إلى مدائن صالح فإلى بترا ومن بترا تسير إلى مصر أو إلى فلسطين وصور وغزة وغيرها من شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

كما تصدر أيضاً بواسطة البحر أحيانا حين يأمن الحضارم على سفنهم وتجارتهم من الأنواء والقراصنة وحيث تكون تكاليف حمل البضائع بالبحر أخف مؤنة من نقلها بطريق البر نظرا لبعد المسافة ولأن الخفراء كانوا يأخذون أجوراً باهظة فضلا عما تتعرض له القوافل من تعدى بعض القبائل العربية وحملها على دفع ضرائب وإتاوات .

وقد قال المستر وندل فليس رئيس البعثة الأمريكية الأثرية التى مرت بحضرموت فى فبراير سنة ١٩٥٠ م فى طريقها إلى بيحان للبحث عن تمنا عاصمة القتبان قال :

قامت اقتصاديات أربع من الممالك الهامة على ما كانت تدره قوافل البخور فى جنوب الجزيرة العربية من الثراء زهاء ألفين من السنين فقد كانت القوافل تنساب فى مهل من غابة البخور فى حضرموت متجهة نحو الشمال على طول الجزيرة وهى تقدم فى طريقها الأتاوة والحماية لعدد لا يحصى من القبائل ثم تعود محملة بالذهب والفضة من مصر واليونان وروما كما ذهبت محملة بالبخور والبهارات .

حتى لقد أقلق تدفق الأموال من الإمبراطورية الرومانية رجال الاقتصاد فيها فجأروا بالشكوى من أن العربية السعيدة هى السبب فى ارتفاع أسعار الذهب وفى تدهور قيمة العملة المتداولة .

إن أغلب أشجار الطيب تنمو فى الجنوب الشرقى من حضرموت والعصارات التى تتساقط من جذوع المر واللبان على هيئة دموع متجمدة تجمع وتحمل على ظهور الإبل إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط على بعد عشرين ألف ميل تقريبا وكانت طريق القوافل يتجه فى العادة غربا عبر الأراضى الحضرمية ثم ينحرف نحو الشمال متاخما للساحل الشرقى من البحر الأحمر .

وقد دلت البحوث الأثرية الأخيرة فى بيحان ومأرب أن ملوك حضرموت عاصروا ملوك سبأ وملوك قتبان كما دل الكشف على ذلك فى الباب الجنوبى عند مدينة تمنا فى هجر كحلان حيث قصر الشريف عوض بن أحمد محسن كما تدل هذه البحوث أن ملوك حضرموت حكموا قتبان نفسها .

ومن ملوك حضرموت فى هذا العهد : صدق عيل : الذى كان ملكا على حضرموت ومعين فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد وياد عيل بين الذى عمر مدينة شبوة التاريخية ويادياب غيلان الذى ينوى الأستاذ جمه

الإفرنسى نشر تاريخه مستنداً إلى كشفه الأثرى فى تمنا وقد تثبت البحوث أن ياداب غيلان هو الذى تحالف مع الهان نهنان ملك سبأ عام خمسين قبل الميلاد واحترقت مدينة تمنا بالمؤامرة بين ملوك سبأ وحضرموت وقد ذكر ابن خلدون أنه كان فى حضرموت ملوك يقاربون ملوك التبابعة فى علو الصيت ونهاية الذكر ثم ذكر عددا منهم ونماذج من أعمالهم .

امتداد الحكم اليمنى الى حضرموت

وإذا رجعنا إلى ما أسلفنا من قول فى تاريخ الممالك اليمنية التى عاشت قبل الإسلام وهى معين ، وسبأ ، وحمير . نجد أن ملوكا ذوى مطامع ومطامح وقوة من هذه الدول الثلاث لج بهم طمعهم فى السيطرة إلى أن يوسعوا منطقة نفوذهم ويمدوا سلطانهم على أكبر رقعة ممكنة من جزيرة العرب .

وهكذا نرى أن بعض الملوك المعينيين والسبئيين والحميريين قد ضموا حضرموت إلى مملكتهم فيما ضموه إليها من بلاد العرب وذلك فى فترات متقطعة من التاريخ لم يقو فيها أولو الشأن بحضرموت على صد مطامح الأقوياء من جيرانهم الأقربين والمصادر التى قدر لنا الاطلاع عليها لا توضح كيف كان الصراع فى هذا الاستيلاء وكيف كانت تتخلص حضرموت من قبضة هذا الاحتلال الذى كانت هدفا له مرات متعددة .

وطبيعى أن يكون ضعف السلطة المركزية فى عواصم الدول الثلاث الكبرى الحاكمة فى اليمن من أقوى الأسباب لتطلع حضرموت إلى استقلالها وخلع طاعة الملوك اليمنيين أضف إلى ذلك نزوع السلطات الحاكمة فى حضرموت إلى الحرية وتفكيرها المستمر فى استرداد نفوذها كلما وجدت إلى ذلك سبيلا .

وقد مر بك آنفا أن معين وقتبان قد حكمها ملوك من الحضارم فلتستنج من هذا أن الصراع كان على أشده بين ممالك الجنوب وكيف كانت تتوسع كل مملكة على حساب الأخرى .

ورغم الاضطراب والتناقض فى المعلومات التاريخية التى وصلت إلينا عن هذا العهد فإنه يمكن القول بأن الحكم اليمنى لحضرموت فى هذا العهد دام زمنا طويلا حتى إنه يصعب على المؤرخ بما لديه من هذه المعلومات المضطربة أن يفرق بين آثار الحكم الحضرمى والاحتلال اليمنى والأحداث التى تمت فى العهدين .

وقد نقل بعض المؤرخين أن مدينة تريم كان تأسيسها فى عهد الحكم السبئى لحضرموت وأنها سميت باسم تريم أحد أولاد سبأ الأصغر أو باسم القبيلة التى تفرعت من تريم هذا .

حكومة كنده

هم من ولد عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان القحطانى وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب أنهم قدموا إلى حضرموت من البحرين والمشقر على خليج فارس أثر حادثة وقعت هناك فأقاموا بحضرموت أثناء الحكم الحميرى فى منطقة تعرف باسمهم وقصبته دمون .

وكان الكنديون على وفاق مع الحميرين حكام البلاد . وكان الحميريون يستخدمون خاصتهم وكبارهم فى بعض مصالحهم ويدخلونهم فى بطانتهم وحاشيتهم كما كان ملوك حمير يصاهرونهم ويولون أصحاب الكفاءات منهم بعض الأعمال الحكومية .

ويرى بعض المؤرخين أنه كانت بحضرموت قبائل من كندة قبل جلاء إخوانهم هؤلاء من البحرين إلى حضرموت على أنه لا يعرف بالضبط الزمن الذى استأثرت فيه كندة بالسلطة فى البلاد الحضرمية وكل ما علم حتى الآن أن كندة كانت تطمع فى فرض سيادتها على حضرموت وهذا ما حصل فعلا عند ما سنحت لها الفرصة بضعف الدولة الحميرية وانحلالها . فقد أقامت حكمها على أنقاض هذه الدولة . حتى جاء الإسلام وأكبر الدولة فى أيديهم . وقد تحدث التاريخ عن إمارات كندية بعد الإسلام كان لها وجود سياسى

معروف . مثل : إمارة آل بادجانة فى الشحر ودولة آل محفوظ فى الهجرين وآل بانجار فى بور وغيرهم .

وقد كان بين كندة وحضرموت حروب فى الجاهلية أفنت كثيرا منهم وكانت كندة قد اجتمعت على سعيد بن عمرو بن النعمان بن وهب وكان على بنى الحارث بن معاوية وعلى شرحبيل بن الحارث وكان على السكون . واجتمعت حضرموت على عدة رؤساء منهم شرحبيل بن مرة وسلامة بن حجر وطالت الحرب حتى هلك أولئك الرؤساء وفنى الرجال وكثر القتال فى كندة وملكت حضرموت علقمة بن ثعلب . وهو يومئذ غلام . فلانت كندة بعض اللين وكرهت محاربة حضرموت . وانتقلت إلى أرض معد فجاورتهم .

وقد سرى الاضطراب والاختلاف الذى منى به التاريخ الحضرمى فى عهد الجاهلية إلى تاريخ كندة فلا يستطيع الباحث عن الحقيقة أن يطمئن إليها من بين تلك الروايات المضطربة المختلفة . والأمر الذى لاخلاف فيه هو : أن كندة قد مكنت لسلطانها فى أهم المناطق بحضرموت على أنقاض الحكم الحميرى. وكان لهم من قوة شخصياتهم ووفرة ذكائهم وبلاغة خطبائهم وشعرائهم وشجاعتهم وفروسيتهم ما مهد لهم السبيل إلى بلوغ مآربهم وتنفيذ مطامحهم .

وكان لملوك كندة ثروة واسعة ومزارع كبيرة تدر لهم غلات وافرة . وكانوا يراسلون ملوك الروم واليمن ويغمرونهم بالهدايا النفيسة التى كان أحسنها الخيل العربية التى توجد بكثرة فى حضرموت الشرقية حيث الحشائش والأعشاب .

ولما جاء الإسلام كان فى بنى عمرو بن معاوية وحدهم أربعة رؤساء أو أمراء كلهم أخوة أبناء أب واحد وهم جمد ومخوس ومشرح وأبضعة . وكانت لهم أخت تدعى العمرة . وكان لكل واحد منهم واد يملكه ومحجر خاص يقيم فيه . وكان الأشعث بن قيس أمير بنى الحارث بن معاوية . وكان لغير هؤلاء أمراء آخرون يقيمون فى شبام ودوعن وعمد وجردان والشحر وغيرها من مناطق الساحل والداخل .

ومن قبائل كندة المشهورة تجيب والصدف والسكاسك والسكون والعباد وبنو بدا وبنو معاوية ومن منازلهم المشهورة قبل الإسلام وبعده دمون وهي إحدى مدينتي الهجرين وليست هي دمون التي تقع بجانب تريم فان هذه بناها محمد بن أحمد الصبرات سنة ٨٩٣

ومن منازلهم النجير وهو حصن بموضع يبعد عن تريم شرقا بنحو أربعة أميال وهينن التي ذكر الهمداني أن في أعلاها حصنا للحصين بن محمد التجيبي ويسكنها بنو بدا وبنو سهل بن تجيب وصوران وقشاقش وعندل وكانت مدينة عظيمة للصدف وكان امرؤ القيس قد زار الصدف إليها وفيها يقول : —

كأني لم أسمر بدمون ليلة ولم أشهد الغارات يوماً بعندلِ

ومن المدن الصدفية أيضا هدون وفي رخيه درب يقال له سور بني نعيم من تجيب ولهم فيه قرى كثيرة .

ومن منازلهم أيضا سدبه قرية محمد بن يوسف التجيبي وحوره وكانت مدينة عظيمة لبني حارثة الكنديين وفي ريدة الصيعر فرقة من بلحارث بن كعب وإليها تنسب الإبل الصيعريه والصيعر قبيلة من الصدف .

الاسلام في حضرموت

وهكذا جاء الإسلام وكندة هي صاحبة الحول والطول في حضرموت وكانت الوثنية هي دين الأغلبية من الحضارم كغيرهم من العرب وهناك أقليات تعتنق اليهودية والنصرانية .

وسمع الحضارم عن دعوة النبي عليه السلام بمكة فلم يحفلوا بها بادىء الأمر وعرض النبي عليه السلام نفسه على وفود الحضارم في أحد مواسم الحج طالباً إليهم نصرته وحماية دعوته فترددوا وقالوا قوم الرجل أدرى به لأنهم لم يقدروا ما سيكون لصاحب هذا الأمر من شأن وما ستحرز دعوته من نجاح .

ولما جاء نصر الله والفتح ووصلت دعوة الإسلام إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من نجاح وانتشار أسرعت البلاد الحضرمة إلى إرسال ممثليها

ومندوبيها إلى المدينة عاصمة الإسلام الأولى تقدم الطاعة وتعلن عن إسلام الحضارم واعتناقهم للدين الجديد .

قدمت وفودهم على النبي عليه السلام فى السنة العاشرة من الهجرة فقدم وائل بن حجر أمير بلاد الشاطىء الغربي وملوك بنى عمرو بن معاوية والأشعث بن قيس فى ثمانين راكباً من قومه وقيس بن سلمة رئيس الجعفيين فى رهط من عشيرته وأمير جردان وغيرهم وكان النبي عليه السلام يقبل إسلامهم ويقر كل أمير على إمارته .

وانتشر الإسلام فى حضرموت بعد عودة الوفود وأقبل زياد بن لبيد عاملاً على حضرموت من قبل النبي عليه السلام فأقام بتريم وتارة فى شبام وأمده النبي بمعاذ بن جبل يطوف بأرجاء البلاد ويعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين وأقام زياد عنه نوابا فى أنحاء القطر يجمعون الصدقات وكان يوزع الصدقات على الفقراء ويرسل ما فضل عن الحاجة إلى المدينة .

حكم الخلفاء الراشدين

ولم يمض على إسلام الحضارم أكثر من سنة واحدة حتى قدم البريد بكتاب من الخليفة الأول إلى زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبي عليه السلام ويأمره بأخذ البيعة على من قبله من أهل حضرموت فجمع زياد الناس وقام فيهم خطيباً وعرفهم موت النبي ودعاهم إلى بيعة أبي بكر الصديق فأسرع الكثير منهم إلى البيعة وتردد البعض وتأخر عن المبايعة وكان فى مقدمة هؤلاء الأشعث بن قيس فقد اعتزل فى جماعة من كندة .

والواقع أن الناس كانوا حديثى عهد بالإسلام ففاجأهم موت النبي قبل أن يعرفوا نظام الحكم فى الإسلام ولم تتهيأ أذهانهم لمعرفة الوضع السياسى الذى ينبغى أن يخضع له المسلمون فحصل اضطراب فى كافة أنحاء الجزيرة كما تقدم الكلام عنه فى ارتداد العرب .

وكان رأى بعض زعماء كندة المتخلفين عن البيعة أنه إذا خضعت حضرموت لحكم النبي عليه السلام حال حياته فلا مانع أن تستقل عن سلطة

من يتولى الحكم بعده وعلى هذا الأساس كان تأخر المبايعين .

وبنفس الشدة والحزم اللذين عالج بهما أبو بكر فتنة الردة والمانعين للزكاة كان زياد بن لبيد يعالج فتنة المتأخرين عن البيعة فى حضرموت وعن دفع الزكاة .

فحارب بنى عمرو بن معاوية وقتل ملوكهم مخوسا وشرحاً وجمداً وأبضعة وأختهم العمرة وأكثر فيهم القتل ثم اتجه إلى بنى الحارث بن معاوية وكانت قد انضمت إليهم جماعات كثيرة من كندة تحت قيادة الأشعث بن قيس معلنة العصيان متفقة على الخروج على سلطة الخليفة وعدم أداء الصدقة .

وأرسل الخليفة أبو بكر المهاجر بن أبى أمية وعكرمة بن أبى جهل فى جيش كبير لنجدة زياد وشبت معركة طاحنة فى محجر الزرقان انهزمت كندة على أثرها والتجأت إلى حصن لهم يدعى النجير الذى سبقت الإشارة إليه وبعد حصار شديد وقعت المعركة الفاصلة التى انتصرت فيها جيوش الخليفة وعادت حضر موت بعدها إلى حظيرة الخلافة الإسلامية تابعة لمركز الخلافة فى المدينة (١) .

وقد أسر فى هذه المعركة نحو ستة آلاف وقتل عدد كبير وجرح من الصحابة رجال عادوا إلى تريم ليتداووا بها ويضمدوا جراحهم فمات منهم جماعة ودفنوا فى مقبرة زنبل شرقى قبر الأستاذ الفقيه المقدم الآن .

وكذلك عاد إلى حضرموت هدوؤها واطمئنانها طيلة حكم الخلفاء الراشدين الذين كانوا يعينون عمالهم فى اليمن وحضرموت . وقد كانت السياسة الرشيدة التى انتهجها أبو بكر وعمر من أقوى الأسباب فى التفاف أقطار الجزيرة العربية ومن بينها حضرموت حول السلطة المركزية فى المدينة فقد كان الخليفة يعد نفسه المسئول الأول عن كل عربى يعيش داخل الجزيرة وساعدت الفتوحات والانتصارات التى كان يحرزها المسلمون فى أيام الخلفاء الثلاثة الأول على

---

(١) فى كتابنا (تاريخ حضر موت فى شخصيات) تفصيل واف لهذه الحوادث .

استتباب الأمور فى جزيرة العرب وخلق جو من الرضا والسعادة بسبب الأموال التى كانت تتدفق على الجزيرة بكثرة لم يعهد لها مثيل .

وقدم الحضارم أنفسهم كجنود يجاهدون فى سبيل الله وتحت راية الإسلام فاشتركوا فى حروب الروم والفرس وحضروا اليرموك والقادسية وكان منهم عدد كبير فى الجيش الذى فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب وكان لهم مشاركة مشهورة فى الفتوحات الإسلامية أثناء حكم الخليفة الثالث وحدث النزاع بين على ومعاوية فأدلوا بدلوهم بين الدلاء وحضروا صفين مع على بن أبى طالب .

وهكذا مهد الإسلام للحضارم كما مهد لغيرهم من العرب الهجرة عن وطنهم إلى الأقطار الجديدة التى غزاها الإسلام حيث أقاموا هناك واتخذوها وطناً لهم

وقد ذكر العلامة الكبير يونس بن عطية الحضرمى أول من تولى القضاء بمصر من الحضارم أنه هاجر مع أبيه وأعمامه فى مائة راكب من حضرموت فى آخر خلافة عثمان قال وأنا غلام جهر أعقل ماأسمع فأتينا المدينة وأقمنا بها شهراً وكان أبى وأعمامى يجالسون أصحاب رسول الله قال فدخلوا يوما على عثمان وأنا معهم فاستأذنوه فى المصير إلى مصر فأذن لهم .

وفى أواخر خلافة الإمام على كانت اليمن ميدانا للصراع بينه وبين معاوية فقد أرسل معاوية جيشاً بقيادة بسر بن أرطاة لمحاربة شيعة على كما تقدم فاستولى على صنعاء ، وكان عبيد الله بن عباس عاملا من قبل على قد غادرها ولما بلغ ذلك علياً أرسل جيشاً من العراق مؤلفاً من أربعة آلاف ظفر بأتباع معاوية بعد معارك دامية وهرب بسر فى جماعة من أصحابه .

ولم أقف حتى الآن من المصادر التى بين يدى على ما يوضح كيف كانت الحالة فى حضرموت أثناء هذا الصراع فى اليمن وهل امتد إلى حضرموت أم لا

بنو أمية والعباس

لما آلت الخلافة إلى معاوية الخليفة الأموى الأول وخضعت له جميع الأقطار الإسلامية بعد قتل الإمام على وصلح الحسن بن على خضعت حضرموت

لسلطان بنى أمية فلما توفى معاوية امتد سلطان ابن الزبير إلى اليمن وحضرموت فيما امتد إليه من بلاد الإسلام ولكن الأمر لم يلبث أن عاد إلى بنى أمية بعد قتل ابن الزبير فى مكة سنة ٧٣ هـ .

وتتابع عمال بنى أمية على اليمن وحضرموت طيلة الحكم الأموى حتى آل الأمر إلى آخر خليفة منهم وهو مروان بن محمد سنة ١٢٧ هـ فقد كان عامله فى صنعاء القاسم بن محمد وفى حضرموت إبراهيم بن جبلة الكندى .

وفى أيام مروان هذا ثار عبد الله بن يحيى الكندى زعيم الأباضية فى حضرموت سنة ١٢٩ هـ [1] وأجلى عامل مروان بحضرموت بعد ما حبسه يوما ثم احتل اليمن بعد قتال شديد ودخل صنعاء دخول الفاتحين ثم سير أبا حمزة المختار بجيشه إلى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما فأرسل مروان جيشاً عقد لواءه لعبد الملك بن عطية فقاتل أبا حمزة وهزمه فى وادى القرى فالتجأ إلى مكة فجد فى أثره وما زال يقاتله حتى قبض عليه وقتله .

ثم سار ابن عطية لقتال عبد الله بن يحيى فظفر به بعد معارك شديدة وقتله واستولى على صنعاء ثم حضرموت فى حوادث يطول تفصيلها .

وطويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان حيث خلفتها دولة بنى العباس، وكان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م وكان هذا بداية الحكم العباسى فى حضرموت ثم خلفه أخوه المنصور سنة ١٣٦ هـ ٧٥٤ م .

وقد ذكر الطبرى أن المنصور ولى رجلا من العرب حضرموت فكتب إليه وإلى البريد : انه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قدأعدها فعزله وكتب إليه ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

---

(١) أى فى كتابنا (تاريخ فى حضرموت شخصيات) تفصيل واف لهذه الثورة .

وهذا نص صريح على أن عمال حضرموت يعينون رأساً من قبل مركز الخلافة وكذلك يعزلون دون تدخل أو وساطة العامل فى اليمن على أنه توجد نصوص أخرى تدل على أن العامل فى اليمن كان هو الذى يعين عمال حضرموت والجمع بين النصوص ممكن بأن الخليفة قد يكل تعيين العمال فى حضرموت إلى القائم بالأمر عنه فى اليمن وقد يعينهم هو بنفسه .

فقد تحدث التاريخ أن المنصور أيضاً عين معن بن زائدة والياً على اليمن فأرسل أخاه عاملا من قبله على حضرموت فأقام بتريم وكان فاسقاً ظالماً سفاكا فقتله أهل تريم وخلعت حضرموت كلها طاعة معن فغزاهم وأثخن فى القتل حتى بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفاً وسد العيون بالرصاص وأجبر الناس على لبس السواد شعار العباسيين ثم عاد إلى صنعاء وأبقى ابنه زائدة والياً على البلاد ولما استدعى المنصور معنا لقتال الخوارج فى خراسان تبعه رجلان من حضرموت فقتلاه فى الطريق أخذاً بثأر أبيهما .

ولو صحت رواية سد العيون بالرصاص لكانت دليلا على حمق أمثال معن من حكام هذا العهد وفساد عقلياتهم وعدم تقديرهم لواجباتهم .

وتعاقب ولاة بنى العباس على اليمن وحضرموت حتى انتهت الخلافة إلى المأمون وظهرت باليمن دعاة العلويين من الشيعة وانتشرت الفتن وقامت الحروب فولى المأمون محمد بن زياد على اليمن سنة ٢٠٣ ﻫ فأخضع اليمن جميعها لحكمه ودخلت فى طاعته حضرموت والشحر وديار كندة وصار فى مرتبة التبابعة .

ومحمد بن زياد هذا هو أول ملوك الدولة الزيادية باليمن التى استقلت بالأمر فيها وإن احتفظت لبنى العباس بالسلطة الاسمية .

الأباضية

الأباضية فرقة من فرق الخوارج الكثيرة المتعددة وسموا الخوارج لأنهم خرجوا عن طاعة على ومعاوية معاً وانفردوا برأى غير رأى الجماعة فسماهم الناس من أجل ذلك خوارج ثم ذهبوا إلى النهروان وعسكروا هناك وكانوا

على مايروى أربعة آلاف مقاتل فصمد إليهم على وما زال يقاتلهم إلى أن أفناهم على بكرة أبيهم ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر قيل ذهب منهم اثنان إلى عمان واثنان إلى كرمان واثنان إلى سجستان واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى اليمن فذلك أصل الخوارج .

والأباضية أكثر فرق الخوارج انتشاراً وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الإسلام الكبرى ويتلخص مذهبهم فى أنهم :

« يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ويرون أن دار مخالفيهم من الإسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغى . وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون إنهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ويقال إنهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة » .

وهم لا يذكرون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلى فلا يعجبانهم إذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم . ويقولون بوجوب نصب الإمام بين المسلمين إذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وإن القرشية ليست بشرط فى الخلافة ؛ بل يكفى أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته . فإن انحرف عنهما وجب خلعه » .

« ويقولون إن القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسى . وأنه تعالى لا يرى بالأبصار فى الجنة ، وأن الثواب والعقاب أبديان ولا فناء للنعيم ولا للجحيم . وأن الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة . وهم يرجعون إلى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالإجماع والقياس ، بل عندهم محلهما الرأى . وهم يقولون : إن كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الدينى خسر حقه فى حنو إخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو إلى أن يتوب وينيب » .

هذا ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى حاضر العالم الإسلامى ومثله فى الملل والنحل للشهرستانى .

وهم ينتسبون إلى عبد الله بن إباض بكسر الهمزة وقد تلفظ بفتحها فلذلك سموا أباضية وهو المذهب الغالب فى بلاد عمان ، ومنها امتد إلى زنجبار وقد ظهر هذا المذهب فى شمال أفريقية فى أواسط القرن الثانى للهجرة وانتشر كثيراً بين البربر .

وكان نظر الخوارج إلى خلفاء بنى العباس كنظرهم إلى خلفاء بنى أمية كلهم لا يصلح للخلافة ولم يختر اختياراً حراً صريحاً ولم يستوف الشروط التى يجب توافرها فى الإمام وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته وعزله إن أمكن وقتله إن أمكن .

وقد عقد الأستاذ أحمد أمين فى الجزء الثالث من كتابه ضحى الإسلام فصلا خاصاً عن أدب الخوارج يعطى صورة صحيحة عن عقيدة القوم ومبادئهم فى تحقيقها قال :

لقد كان فى الخوارج كل العناصر التى تكون الأدب : عقيدة راسخة لا تزعزعها الأحداث ، وتحمس شديد لها تصون بجانبه الأرواح والأموال ، وصراحة فى القول والعمل لا تخشى بأساً ، ولا ترهب أحداً ، وديمقراطية حقة لا ترى الأمير إلا كأحدهم ، ولا العظيم إلا خادمهم ، ورسم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه رسماً مستقيما واضحاً لا عوج فيه ولا غموض ، يجب أن يعدل الخليفة والأمراء ، وألا يقاتلوا حتى يعزلوا أو يقتلوا ، ويجب أن يسير المسلمون حسب نصوص الكتاب والسنة من غير أن ينحرفوا عنها قيد شعره ، وألا يقاتلوا ليحل محلهم مسلمون مخلصون طاهرون ، ويجب أن يسلك السبيل إلى ذلك من غير تقية ، ومن غير مجاملة ولا مواربة ، ويجب أن يقابل الواقع كما هو ، ويشخص كما هو ، ويعالج كما هو ، على طريقة عمر بن الخطاب ، لا على طريقة عمرو بن العاص ؛ ووراء ذلك كله نفوس بدوية — غالبا — فيها كل الاستعداد للقول ، وفصاحة اللسان ، وفيها كل ما نعهده فى البدوى من قدرة على البيان ، وسرعة فى البديهة ، وأداء للمعنى بأوجز عبارة وأقوى لفظ .

من هذا كله نرى الخارجى قد اجتمعت له العاطفة القوية ، والأداة الصالحة للتعبير عنها .

وهذا الذى ذكرناه قد جعل لأدبهم لوناً خاصاً غير لون الأدب المعتزلى ، وغير لون الأدب الشيعى . أدب المعتزلة أدب فلسفى ، فيه عنصر المعانى أغلب وأقوى ؛ وأدب الشيعة أدب باك أو أدب حزين على فقدان الحق ، أو أدب غضبان على أن لم توضع الخلافة موضعها ؛ أما أدب الخوارج فأدب القوة ، أدب الاستماتة فى طلب الحق ونشره ، وأدب التضحية ، فلا تستحق الحياة البقاء بجانب العقيدة ، وأدب التعبير البدوى الذى لا يتفلسف ولا يشتق المعانى ويولدها كما يفعل المعتزلة ؛ هو فى بعض الأحيان أدب غضبان ، ولكنه ليس غضباً من جنس أدب الشيعة ، فالشيعة يغضبون لشخص أو أشخاص ولكن الخوارج يغضبون للعقيدة وللإسلام عامة بقطع النظر عن الأشخاص ، وإن نظروا للأشخاص فنى ضوء العقيدة ، لا كما يفعل غيرهم من النظر إلى العقيدة فى ضوء الأشخاص .

وقد يرثون ويبكون ، ولكنهم حتى فى رثائهم وبكائهم أقوياء يذرفون الدمع ليسفكوا الدم ، ويبكون الميت ليتشجع الحى ، ويؤبنون المفقود ، ليرسموا المثل الأعلى للموجود ؛ لا يعرفون هزلا فى الحياة فلا يعرفون هزلا فى الأدب ، ولا يعرفون خمراً ولا مجونا ، فلا نجد فى أدبهم خمراً ولا مجونا ، إنما يعرفون الجهاد والقتال والتربية المتزمتة القاسية التى تخرج رجالا أقوياء لا يحرصون على الحياة ، فكذلك أدبهم . انتهى ما قاله الأستاذ أحمد أمين .

ولعل فى هذا القدر كفاية فى التعريف بالأباضية تمهيداً للحديث عن أباضية حضرموت فإن هؤلاء فرع من أولئك وبهذه المناسبة أورد أبياتا من قصيدة قيلت فى رثاء عبد الله بن يحيى الكندى الحضرمى زعيم إباضية حضرموت وأبى حمزة المختار :

أوفى بذمتهم إذا عقدوا　　وأعف عن العسر واليسر
متأهلون لكل صالحـــة　　ناهون من لاقوا عن النكر
متأوهون كأن جمر غضى　　للخوف بين ضلوعهم يسرى

كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلتــــه إلى الفجر
والمصطلى بالحرب يسعرها بغبارها وبفتيـــة سعر
يجتاحها بأفل ذى شطب عضب المضارب قاطع البتر
لا شىء يلقـاه أسر له من طعنة فى ثغرة النحر

والقصيدة كاملة فى الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى فليرجع إليها من أراد .

وكل ما نعرفه حتى الآن أن ظهور الأباضية فى حضرموت كقوة سياسية ذات شأن بدأ سنة ١٢٩ ﻫ عندما أعلن عبد الله بن يحى الكندى المعروف بطالب الحق ثورته على آخر خليفة أموى كما سبق واستقل بالأمر فى حضرموت واحتل اليمن والحجاز ، وتتلخص دعوته فى هذا الجزء من خطبته التى ألقاها فى جامع صنعاء عقب احتلالها فقد قال :

« إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا رضينا بالحلال حلالا لا نبتغى به بديلا ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ندعوكم إلى فرائض بينات وآيات محكمات وآثار نقتدى بها ونشهد أن الله صادق فيما وعد عدل فيما حكم وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعيد والوعد وأداء الفرائض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله » .

كما أن الخطاب الذى ألقاه أبو حمزة المختار فى مسجد المدينة من بين النصوص التاريخية التى تلقى ضوءاً على عقيدتهم وطريقة دعوتهم إليها فقد قال :

إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا غدراً ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض .

أقبلنا من قبائل شتى كل جماعة منا على بعير واحد عليه زادهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون فى الأرض فآوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن

ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين .

وكان أبو حمزة المختار هذا من زعماء أباضية البصرة ويقول صاحب تحفة الأعيان : إنه من أباضية عمان كتب إليه عبد الله بن يحي فقدم إليه فى جماعة من الأباضية وكانوا عوناً له فى حروبه مع جيوش مروان وقد رأينا كيف اهتم مروان بالأمر وأرسل عبد الملك بن عطية من الشام فأجلى الأباضية من المدينة ومكة واليمن ثم غزاهم فى حضرموت فى عقر دارهم فأثخن فى القتل .

وورد إلى ابن عطية وهو بحضرموت كتاب من مروان يأمره بالتعجل إلى مكة ليحج بالناس فجمع ابن عطية أعيان شبام وصالحهم على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم ويولى عليهم من يختارونه فأجابوه إلى ذلك ثم سار متعجلا فى جماعة من قومه ولما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الأباضية فقتلوه ومن معه .

ويقول المدائنى إنه لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جمانة وسعيد أبناء الأخنس فى جماعة من قومهما ورجل من نهد يقال له دمانة وثلاثة من مراد وخمسة من كندة ، فقصدوا حيث توجه ابن عطية ، فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلا ، فقتلوهم جميعاً وأدرك سعيد وجمانة بن عطية ، فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره فقال له ابن عطية هل لك يا سعيد فى أن تكون أكرم العرب أسيراً ؟ فقال ياعدو الله أترى الله كان يمهلك أو تطمع فى الحياة وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلجا وأبرهة ثم قتله وبعث برأسه إلى شبام .

وبلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية وهو بصنعاء ، فأرسل شعيبا البارقى فى جيش كثيف أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن وجاءوا حضرموت من طريق الكسر ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وخربوا دورهين وقعوضة والخيليق وحوره وكثيراً من دور شبام

ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا ممن قدروا عليه من الأباضية إلا وقتلوه ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلى الثمينة .

وجاء العهد العباسى فلم يكن الحال فيه بحضرموت بأحسن من الحال فى العهد الأموى فسرعان ما قتلت الأباضية عاملهم على تريم فى عهد المنصور وكان هذا العامل فاسقاً ظالماً وانتقضت البلاد كلها على معن بن زائدة والى المنصور على اليمن كما مر آنفاً ، فأقبل معن بجيش مثل من الفظائع ما تشيب من هوله الأبدان وأبقى ابنه والياً على البلاد بعد أن عاد إلى صنعاء .

ولم يفلت معن من نقمة الأباضية فقد تبعه رجلان منهم وهو فى طريقه إلى خراسان ، فقتلاه فى الطريق أخذاً بثأر أبيهما كما سبق على أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن معناً عاش إلى خلافة المهدى حيث ولاه سجستان .

ولما قامت دولة آل زياد فى اليمن خضعت حضرموت لسلطانهم فى عهد مؤسسها الأول محمد بن زياد الذى ولاه المأمون العباسى حكم اليمن عندما خاف رسوخ التشيع فيها سنة ٢٠٣ هـ ورضخت الأباضية لحكم القوة متحينة كل فرصة لإعلان الثورة والاستقلال بالأمر فى حضرموت .

ومع غموض هذه الفترة على الأخص من التاريخ الحضرمى نظراً لفقد المصادر التاريخية أو ندرتها فإننا نجد فى التاريخ أن الأباضية هم المسيطرون على شؤون حضرموت عندما قدم المهاجر أحمد بن عيسى العلوى من البصرة فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، أى سنة ٣١٨ هـ بالضبط وكانت دولة آل زياد لا تزال قائمة فى اليمن .

فقد ذكر أحد المؤرخين[١] من الحضارم بأن الأباضيين تألبوا على المهاجر لزحزحته عن الإقامة بحضرموت وأن أهل السنة والشيعة بحضرموت واليمن اجتمعت كلمتهم على نصرته ، وأن وقائع حربية نشبت بين الفريقين كان الأباضيون يتلقون الإمدادات فيها من أباضية عمان وغيرها وأن المهاجر كان يتلقى العتاد والنقود وتأتيه الإمدادات تحملها القوافل براً والسفن بحراً من

(١) عبد الله بن محمد السقاف فى التعليق على رحلة باكثير .

البصرة يرسلها إليه ابنه محمد الذى تركه هناك وكيلا على أملاكه ونخيله وتجارته الواسعة ، كما يقال بأن معركة فاصلة وقعت ببحران عندما كان المهاجر مقيما فى الهجرين انكسرت فيها شوكة الأباضية وانتقل المهاجر على أثرها من الهجرين إلى قادة بنى جشير .

وقد كان هذا الخلاف فى المذهب والعقيدة بين المهاجر والأباضية سبباً فى عدم استطاعة المهاجر سكن المدن الكبرى فى حضرموت كشبام وتريم مثلا فقد كانت تزخر بعلماء الأباضية وذوى الرأى والقوة منهم فكان يختار القرى التى يمكن أن يجد له فيها أنصاراً من السنيين والشيعة كقرية الجبيل فى دوعن والهجرين .

ووجد الأباضيون الفرصة سانحة للانتقاض والثورة فى عهد محمد بن يعفر الحوالى الذى كان كملك مستقل فى صنعاء سنة ٢٦٣ ﻫ وإن كان يدين بالطاعة المعتمد بن المتوكل العباسى وفى هذا التاريخ كان نفوذ آل زياد قد تقلص من صنعاء وما حواليها وانحصر فى تهامة ، فعمل اليعافرة لإخضاع ثورة الحضارم وأقاموا الهزيلى الحضرمى حاكم شبام نائباً عنهم .

ونسأل المصادر التى بين أيدينا عمن كان يتزعم الحركة الأباضية ويتولى شئونها بعد قتل عبد الله بن يحيى الكندى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى فتعتصم بالصمت ولا تجيب كما أنها لم تشر من قريب ولا من بعيد إلى مراكز الثورة على الخلفاء والملوك اليمنيين من اليعافرة وآل زياد وكيف كانت الحالة الثقافية والاجتماعية فى هذه الفترة ؟

لقد ضاعت إذن أو فقدت مصادر تاريخ هذه الفترة ولكن لماذا ؟ لا أرى غير أنى وجدت السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه جنى الشماريخ يقول : إن سبب ذهاب تواريخ حضرموت القديمة وانطماسها أن الأخلاف رأوا فى سيرة الأسلاف ما ينكرونه منهم اليوم فعمدوا إلى إخفائها وإفنائها . . !

ثم لا يذكر السيد علوى شيئاً عن هؤلاء الأخلاف المدهشين وماذا كانوا ينكرونه على الأسلاف ؟ وبصرف النظر عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها فإنه قد مرت بحضرموت محن عصيبة ونشبت فيها حروب وفتن كثيرة

وتعرضت لنكبات من الداخل والخارج فلا يبعد أن تفقد كثير من المصادر التاريخية أثناء هذا العراك الدموى الذى أناخ بكلكله على حضرموت قروناً طويلة .

وقد ذكر السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب فى مقال له نشره الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الثالث من حاضر العالم الإسلامى بأن الوهابيين دخلوا تريم سنة ١٢٢٢ هـ وطموا الآبار فى تريم بما وجدوا من الكتب فى خزائنها جفاء وغلظة وبداوة وغباوة وكانت هذه الخزائن مشحونة بكتب السنة والتفسير والفقه والتاريخ ولقد أتلفوا من بيت واحد اثنتى عشرة خزانة ومن آخر ست خزائن .

ومن يدرى فقد يعثر الباحثون على ما يخفف لوعتنا ويرضى من حرصنا على التعرف إلى مواطن الغموض فى التاريخ الحضرمى فنتدارك ما فى هذه الكتابات من نقص ونصلح ما يحتاج منها إلى إصلاح .

وفى نفس المقال الذى أورده الأمير شكيب لابن شهاب ما يشير إلى أن الأباضية كانت المذهب الغالب فى حضرموت فى القرن الرابع الهجرى فقد قال ما نصه :

وقد كان أكثر الحضارمة فى أول ماقدم سيدنا المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى منعزلين عن العالم الإسلامى لمكان مذهبهم الشاذ إلا قليلا منهم .

وقال فى موضع آخر من هذا المقال :

ومن عجائب ما يراه الناظر فى تاريخ حضرموت أن الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ولكن لم يؤثر ذلك فى خراب حضرموت خراباً يماثل ما وقع فى الزمن الأخير فإنهم باحتلالهم حضرموت واستغوائهم أهلها ورميهم بهم فى تلك النحلة قد جعلوا العالم الإسلامى إلباً عليهم ، فصارت حضرموت ميداناً لهجات جنود الإسلام إذ ذاك حتى قال أحد الشعراء يصف معن بن زائدة أحد الأمراء فى اليمن الذين قتلوا بأباضية حضرموت :

يا معن من شيبان أنت أنت   علمت أهل حضرموت الموت

وقال شاعره مروان بن أبي حفصة يمدح معنا ويصف ما فعله بالأباضية :

وطئت خدود الحضرميين وطأة لها هد ركن منهم فتضعضعا
فأقعوا على الأذناب إقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقى وأودعا
فلو مدت الأيدى إلى الحرب كلها لـكفوا وما مدوا إلى الحرب إصبعا

وواضح أن الأستاذ ابن شهاب يعنى بهجمات جنود الإسلام على حضرموت الحملات التي أرسلها مروان بن محمد ثم والى المنصور العباسي على اليمن وغيرهما من ملوك آل زياد واليعافرة لإخضاع ثورات الأباضية المتعددة .

ونحن لا نعرف حتى الآن من زعماء الأباضية ورؤسائها السياسيين بعد عبد الله بن يحي الـكندى الذى سار سنة ١٢٩ ﻫ سوى الإمام أبي إسحق إبراهيم ابن قيس الهمدانى الذى ظهر أمره بحضرموت فى أوائل القرن الخامس الهجرى وحارب القرامطة والصليحيين وثلثمائة سنة تقريبا مضت بين الزعيمين الأباضيين كان نصيبها الصمت الغريب من مصادر التاريخ الحضرمى .

غير أنى وجدت فى تحفة الأعيان عند ذكره للإمام محمد بن أبي عفان الذى عزل سنة ١٧٩ ﻫ أن سبيله سبيل إمام حضرموت عبد الله بن سعيد الذى عزله أهل حضرموت وقدموا عليـه خنبشا فهذا صريح فى أن هناك أئمة يعزلون ويولون بعد قتل عبد الله بن يحي وقبل إمامة الهمدانى .

ويبدو لى أنه لولا تعرض كتاب التاريخ الإسلامى من غير الحضارم لعبد الله بن يحي وإبراهيم بن قيس لم يصل إلينا الـكثير من أخبارهما .

وفى رسالة للسيد عبد الرحمن بن عبيد الله (١) ما نصه : إن المهاجر ورد حضرموت وهى تغلى غليان المرجل بالأباضـيين والخوارج والأمويين نسبا العباسيين دولة فما زال وأولاده يقارعونهم الحجج حتى أضرعوا خدود الأباضية وأخفتوا أصواتهم وقد ذكرت فى البضائع أن مجاهرة الإمام بنسبه بين أولئك الطوائف أقوى دليل على شهامته وصحة نسبه وما مجاهرته بالمذهب إلا دون مجاهرته بالنسب وجاء فى أوائل العقد لشيخنا الأستاذ الأبر عن

(١) نسيم حاجر . ص ١٤ و ١٥ و ١٦ .

مواضع من المشرع : أن المهاجر أضعف شوكة الأباضـية بما أورده عليهم من صحيح الاستدلال ثم تلاه الإمام العالم الشيخ سالم (يعني ابن بصرى) فأنزل البدعة إلى أسفل مرتبتها ثم عززهما الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم . انتهى .

ويذكر ابن عبيد الله فى هذه الرسالة أن الأباضية بقيت على جانب من القوة إلى عهد الفقيه المقدم المتوفى سـنة ٦٥٣ هـ وأن تأخر استيطان العلويين بمدائن حضرموت إنما كان بسبب اختلاف المذاهب وأنه مازالت المجاذبة بين العلويين وعلماء المدن الحضرمية الـكبرى حتى كانت الغاية الاتفاق على منتصف الطريق فإن الذين تديروا تريماً من العلويين وافقوا المشايخ فى الأخذ بمذهب الشافعى وبعض الآراء الأشعرية وأكثر المشائخ بتريم وافقوا العلويين على القول بالقطبانية وهو المذهب الإمامى بنفسه فان لم يكنه فإنه أخوه فـكل من الفريقين أخذ وأعطى إما بقصد وإما بطبيعة الاختلاط والاحتكاك فلا غالب ولا مغلوب .

هذا هو رأى ابن عبيد الله أوردته ليكون من بين العلامات التى نتعرف بها إلى الرأى الصحيح والحقيقة الناصعة فى موضوعنا عن الأباضية .

والمعلومات التى لدينا عن أبى إسحق الهمدانى تلقى ضوءاً ساطعاً على الحالة فى القرن الخامس الهجرى وتخرج بنا من ذلك الصمت المخيف والغموض البغيض الذى شمل القرنين الثالث والرابع

فقد ذكروا أن والده قيساً كان عالماً كبيراً وذا ثروة واسعة ومكانة مرموقة مسموع الـكلمة مطاع الأمر والنهى وقد بذل مجهوداً عظيما فى تربية ابنه إبراهيم حتى صار أعلى من أبيه شأناً وأعظم جاهاً وأوسع اطلاعا وأثبت جأشاً وأشد إقداماً .

وقد تصدى للأمر بالمعروف ومحاربة المنكرات ومعالجة شئون الاجتماع فى أخريات أيام والده ولم يكد يمضى فى غايتـه غير بعيد حتى هجم القرامطة على حضرموت للمرة الثانية فقد كان هجومهم المرة الأولى[1] فى أواخر القرن الرابع

---

(١) علوى بن طاهر الحداد

فخربوا ودمروا كعادتهم فى غزواتهم وقطعوا النخيل وسلبوا الأموال وعاثوا فى البلاد فساداً .

ولم يجد أبو إسحق فى حضرموت من يناصره فى صد غارات القرامطة فالتجأ إلى الخليل بن شاذان الأباضى إمام عمان طالباً منه النجدة وقدم إليه قصيدة جاء فيها : —

يا خير خل خربت أوطاننا — واستعبد السفهاء كل نبيل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى — عن أخذ مكنون وجذ نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقنا — أسواق سحت واعتداء محول
يا خير خل قد غلبنا فانتصر — وانظر لنا بالرأى عزم أصيل

ويقول من قصيدة أخرى : —

فجدت له بالعذر بسطا وجادلى — بما فيه نصر لا عدته المكارم
فهأنذا بالمال والبيض والقنا — على حضرموت بالسلامة قادم
سلا تخبرا عنى إذا صرت نحوها — وناديت فى الإخوان أين اللهام

وعاد أبو إسحق إلى حضرموت بعد أن أمده الخليل بن شاذان بالمال والبيض والقنا ، وقد استطاع بهذه المعونة أن يجمع حوله جنوداً وأنصاراً فرق بهم أعداءه حتى لم تبق منهم سوى طوائف التجأت إلى القرى الواقعة بأطراف البلاد .

وفى هذا يقول أبو إسحق من قصيدة أرسلها إلى الخليل إمام عمان مع وفد وجهه إليه عقب انتهاء الحرب يخبره فيها بما تم له من نصر : —

سل الوفد عنى يا إمام ألم أكن — تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همى غير ما كنت ذاكراً — وهل نمت عن طرف الجواد وصارمى
حرام حرام إن طعمت بمنزلى — إلى اليوم طعم النوم بين الكرائم
ولكننى لما نزلت بعقوتى — نشرت لوائى فى الكرام القماقم
وساروا بحمد الله حولى كأنهم — بدور ولكن فى الوغى كالضراغم
فما كان إلا جمعة بعد جمعة — وأدت إلى العشر أهل الحضارم

سل الخطبا لما دعوا لك جهرة   على رغم أهل الجور بعد التصادم
وسل عرب البيداء هلا أذقتهم   عشية خانوا العهد سم الأراقم
وأما نواحي حضرموت فإنها   بحول إلهي طوع أمرى كخاتمي
سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا   من الخوف فى روس القرى كالحمائم
ولم يبق لى إلا الصليحى قائما   وها هو أيضا سعده غير قائم
وقد نزعت عنه القبائل قصدنا   لما نظرت من رغمها فى الملاحم
ونحن إليه واردون بجيشنا   فما هو أدهى من ملوك الديالم

وليس فى هذه القصيدة ذكر للقرامطة بل أنه يشير إلى مخالفيه من عرب البيداء والنفر العصاة من نواحي حضرموت فقط إلا أن كانت دعوة القرامطة تسربت إلى عرب البيداء والنفر العصاة فهو يحاربهم كمناصرين لحركة القرامطة؟

أما الصليحى الذى أشار إليه أبو إسحق فى قصيدته فهو أحد حكام اليمن فى القرن الخامس الهجرى وقد سبقت الإشارة إليه فى الفصل الخاص باليمن ، وقد وقف أبو اسحق حائلا دون تنفيذ مطامع الصليحيين فى احتلال حضرموت وفى ذلك يقول من نفس القصيدة السابقة :

يخوفنى أن المعز ملاذه   بمصر وما خوفى لأهل المظالم
إذا وفده ولى إلى مصر رائداً   مضى وفدنا قصداً لخير المعالم
أيعلم أى الحزب أسبق نصرة   وأيهما أولى بفعل المكارم

والمعز هذا يعنى به الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر الذى كان الصليحى يخطلب له ويحارب باسمه ، واستمرت الحرب بين الصليحى وأبى إسحق مدة طويلة اضطر أثناءها أن يطلب المدد مرة أخرى من الخليل بن شاذان كما تدل على ذلك قصيدته هذه :

من شاء يعلم ما كانت أوائلنا   فيه فسيرتنا تكفيه برهانا
هذا الخليل إمام المسلمين حكت   أنوار سيرته فى العدل نيرانا
يا أيها العلم العدل الذى كملت   له الخصال مروآت وإيمانا
إنى أحبك والرحمن يعلمه   حب احتساب إلى ذى الطول قربانا
إذا صرت مشتهراً بالفضل أنت ولى   قلب يحب بدين الله من دانا

حتى عبرت إليك البحر منتصراً ... أيام عدت بما أوليت جذلانا

إلى أن قال :

وانصر أخاك فإن الحرب قائمة ... والحق يطلب من أهليه أركانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة ... فارفع لها شرفاً فالأمر قد هانا
إن الذى عمرت صنعاء دولته ... بالفسق أصبح من مولاى فزعانا
أضحت مخالفة أرض اليمان له ... لما رأتك لها حصناً ومعوانا
فاحفدهم فهم يدعون ربهم ... جهراً لتملكهم سراً وإعلانا

وهو يعنى بمن عمرت صنعاء دولته بالفسق الصليحى لأنها قاعدة ملكه فى هذا التاريخ وقد أمده الخليل هذه المرة بجيش استطاع به أن يحد من أطماع الصليحى وأن يرده خائباً .

والواقع أن المصدر الوحيد الآن لتاريخ أبى إسحق إنما هو ديوانه المطبوع الذى قدمه الشيخ سليمان البارونى وقد تعرض فى ديوانه لوفادته على أئمة عمان فقال إنهم أمدوه بالمال دون الرجال .

أبا القاسم اسمع لاعدمتك قصتى ... لتعجب من أمرى وأنت رشيد
طلبت بوادى حضرموت فلم أجد ... بها أحداً ينكى العـدا ويكيد
فسرت عمانا قلت على أرى بها ... شراة تسامى والمكان بعيد
فجادوا ببذل المال دون نفوسهم ... وعدت حميداً والإمام حميد
فلما رأى أهل الضلال شرارتى ... تزيد حيـاة والضلال يبيد
بدا لهم أن ينكثوا فتسللوا ... لواذا وغال المسلمين خمود

وفى قصيدته السابقة يصرح بأنه قدم إلى حضرموت من عمان بالمال والبيض والقنا ، ومن قصيدة أخرى يقول :

سيعلم دغار بن أحمد والفتى ... سلالة مهدى وكل مخالف
إذا أنزل المستنصرون بجحفل ... يهزون بيضاً كالبروق الخواطف

والجمع بين هذه الروايات ممكن بأن الخليل أمده مرة بالمال فقط ومرة أخرى بالمال والرجال وشعره صريح فى تعدد وفادته على عمان .

ويزعم الشيخ سليمان البارونى إن أبا إسحق أقام عاملا بحضرموت للخليل ابن شاذان مدة حياته فلما نصب راشد بن سعيد إماما بعمان بعد الخليل بقى عاملا على حاله وله مع الإمام راشد قصائد يعترف له فيها بالولاء منها قصيدته التى أرسلها إليه يعرض فيها الإمام راشد النجدة فى حربه مع نهد وعقيل حيث يقول :

أباضية زهر كرام أفاضل | مناقبهم فى كل سامى علا تبدو
وأنت لنا من بعدهم صرت قيما | حمولا لثقل الخطب يورى بك الزند

إلى أن قال متحدثا عن نهد وعقيل :

فإن عدلوا عن بغيهم وتراجعوا | إلى عسكر الإسلام والحق وارتدوا
فأهلا وسهلا بالعشيرة إنهم | إليكم بإخلاص لرب السما أدوا
وإن هم أبوا فاستصرخونا فإننا | قريب وما للقوم من صحبهم بد
وما بين وادى حضرموت وبينكم | إذا سركم إتيـاننا نحوكم بعد
متى يأتنا منكم صريخ نؤمكم | بعسكر جرار يضيق به النجد
كهولا وشبانا صباحا مساعرا | ورادا إلى الهيجا إذا استصعب الورد
بكل ردينى أصم ومرهف | كمثل شعاع الشمس تحملنا الجرد

ومن قصائده لراشد :

ونحن إذا ما الحرب جدت إليكم | أتتكم كراديس تهز الصوارما
يذودون عن أديانهم كل معتد | فويل لمن فى الحرب يلقى الحضارما
أيا راشدا إنا لعمرك نزدهى | بذكركمو فى حضرموت تعاظما
إذا ما عمانى ألم بأرضنا | أحطنا به نسأله عنكم تزاحما

ولم أجد ذكراً لتاريخ ولادة أبى اسحق ومبدأ أمره ووفادته إلى عمان وحروبه مع الصليحيين وغيرهم غير أننى رأيت صاحب تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان(١) يرجح أن وفاة الخليل بن شاذان كانت سنة ٤٢٥ هجرية وأن وفاة

---

(١) لابن محمد بن عبدالله بن حميد بن سلوم السالمى .

راشد بن سعيد كانت سنة ٤٤٥ ﻫ فمن هذا التقدير لوفاة الإمامين يمكن أن نقدر تاريخ الحوادث التى حصلت فى عهده .

على أن أبا إسحق تعرض فى إحدى قصائده لضبط بعض الحوادث بالتاريخ حيث يقول :

بحول إلهى لا بحولى وقوتى ... وتوفيقه أظهرت بالسيف دعوتى

إلى أن قال بعد أن ساق عهده ووصيته للناس :

بتاريخ شوال وفى عام أربع ... وخمسين تقفوأربعامن هنيدتى (كذا)

ويمكن القول بأن سنة ٤٥٤ ﻫ التى يشير إليها هى مبدأ استقلاله بالأمر فى حضرموت عن أئمة عمان فقد ذكر البارونى أن أبا إسحق استقل بالأمر بعد وفاة الإمام راشد وكانت له شوكة قوية ودولة زاهرة وصولة ظاهرة شهر فيها الحق وساد العدل .

وتاريخ الرجل سلسلة حروب ومعارك وصراع وجلاد فهو فى هذه القصيدة يذكر موقعة حربية خاضها فى دوعن ويستنصر بسويد بن يمين :

سويد الذى فى المجد منه عرائش ... وفيه من المجد النفيس عرائس
سويد الذى لا قائد متغطرس ... ولا عاجز عما تروم العتارس
سويد الذى لم ينخدع لمنافق ... ولا ولجت فى مسمعيه الوساوس
سويد الذى قد عاهد الله لم يزل ... عليه من الصدق الصريح قلانس
سويد الذى أيام كنت بدوعن ... سق السيف حتى جددته المجالس
فكيف يغيب اليوم عنى انتصاره ... وها أنذا فى داره اليوم جالس
فيا ابن يمين زادك الله رفعة ... أيغشى الكرى عينيك والحق طامس
ذمارك محروس وحرمة ذى العلا ... مهتلة ترى حماها الأناحس
أغثنا قبيل الموت إن نفوسنا ... لها فى غد أو بعدها الموت خالس

وهذه القصيدة من جيد شعره غير أنا لا ندرى من هو سويد بن يمين وعلى من كان يستنصره ومتى كان ذلك ؟ ويدعنا الهمدانى فى حيرتنا عن سويد بن يمين ليضيف إلينا حيرة أخرى :

فني الشرق قد أضحى الهدى بعد ذلة عزيزا بملك راجح الحلم حازم
كريم حمى الأنف شهم غشمشم أخى نجدة صعب صليب الشكائم
أبي الفضل عباس بن معن بن حوشب ذرى كندة العليا الملوك القماقم
أقمت سنينا قبل ألقـاه لاهيا يقاسى عداة الحق مر العلاقم
فلما التقت كفى بيمناه اخمدت عساكره بالرغم نار المخاصم
ومدت بإذعان إليـه رقابها جميع البرايا بين راض وراغم

فمن هو عباس بن معن ؟ لقد كان ملكا كما يقول أبو إسحق ولكن فى أى منطقة ؟ أما ابن عبيدالله فى بضائعه فيظن أنه من سلاطين كندة بالمشقاص كما يظن أن سويد بن يمين على مقربة منه بالغيل المعروف بغيل ابن يمين ولا أرى حتى الآن مرجحا لهذا الظن .

وهذه أبيات من قصيدة له تدلنا على مراكز الأباضية فى حضر موت ومقر علمائهم :—

فقلت وما يبكيك يا خود لا بكت لك العين ما هبت رياح زعازع
فقالت بكيت الدين إذ رث حبله وللعلمـا لما حوتها البلاقع
فأين الألى إن خوطبوا عن دقائق من العلم أنبوا سائليهم وسـارعوا
فقلت لها هم فى شبام ومنهم بميفعة قوم حوتهم ميـافع
وفى هينن منهـم أناس ومنهـم بذى أصبح حيث الرضى والصمادع
ومنهم بوادى حضر موت جماعة وأرض عمان (سـلهم ثم دافع)

وواضح أنه يعنى بهؤلاء العلماء رجال العلم من الأباضية فقد كان يوجد بحضر موت عدد كبير من العلماء قبل ظهور أبى إسحق وبعده فنى البضائع للسيد عبد الرحمن بن عبيد الله أنه كان بحضر موت قبل أن يصل إليها المهاجر من أجلة الفقهاء من لا يشق غبارهم ولا يخفى منارهم ولا تجهل آثارهم ... وفى المشرع الروى أن العلويين عند ما كانوا ببيت جبير وجدوا فى تريم من أرباب العلوم والآداب وأصحاب الفهوم والألباب ما شغلهم عن الأهل والوطن وأذهلهم عن كل خل صفى وسكن .

وكما لانعرف شيئاً عن تاريخ الحوادث التى مرت بصاحبنا الهمدانى بالضبط . لم يصل إلى علمنا أين ولد وفى أى بلدة كان مقر إمارته من حضر موت وحتى ما رجحه صاحب تحفة الأعيان من وفاة الخليل سنة ٤٢٥ ﻫ يتعارض تعارضاً واضحاً مع ما ثبت من أن الصليحى كان يدعو للمستنصر الفاطمى الذى تولى الحكم فى مصر سنة ٤٢٧ ﻫ وأن الصليحى أعلن ثورته فى اليمن سنة ٤٢٩ ﻫ وأنه كتب للمستنصر يستأذنه فى إظهار الدعوة له سنة ٤٥٣ ﻫ فى حين أن أبا إسحق كان يستنجد بالخليل بن شاذان على الصليحى هذا . فيجب أن يكون الخليل على قيد الحياة إلى ما بعد سنة ٤٥٣ ﻫ ليصح استنجاد الهمدانى به على الصليحى .

لقد كان ترجيح صاحب تحفة الأعيان إذن لتحديد وفاة الخليل يحتاج إلى إعادة نظر .

ويقول البارونى أن أبا إسحق عمر زمناً طويلا ورزق ذرية صالحة وتوفى حال حياته ولداه محمد وأبو الحسن بعد أن تنوّرا بأنوار العلوم وتهذبا بمحاسن الأخلاق والآداب وبلغا فى المعرفة مبلغاً عظيما فعظم عليه فقدهما ورثاهما بقصائد بعضها مثبوت فى ديوانه .

والحديث عن أبى إسحق هذا هو آخر العهد بالمعلوم لدينا من تاريخ الأباضية فى حضرموت فلا نعلم عنهم أكثر من أن الأباضية بقيت على جانب من القوة والمنعة إلى عهد الفقيه المقدم المتوفى سنة ٦٥٣ ﻫ حيث أخذ ظلها يتقلص بفضل الحملات للتى تثار ضدها حتى انمحت تماما وحل محلها مذهب الأشاعرة السنيين فى الأصول ومذهب الشافعى فى الفروع .

غير أن المتتبع لتاريخ سلاطين آل راشد الذين ظهروا فى الميدان السياسى منذ أوائل القرن السادس يجد أن خلافا واضح الأثر بين بعضهم وبين كبار أنصار السنة من العلويين فهل كان هؤلاء السلاطين ممن يذهبون مذهب الأباضية ؟ .

اسمع ما يقول المشرع الروى بالحرف الواحد فى ترجمة علوى بن محمد صاحب مرباط المتوفى سنة ٦١٣ ﻫ : —

« وكان السلطان فى ذلك الزمان من آل قحطان قد أضمر له السوء مراراً وكان يظهر له الصداقة جهاراً فرقا من توجه الناس إليه وخوفا من أن يأمرهم بالخروج عليه فأعمل فيه مكره وسقاه السم المرة بعد المرة ، فلم يعمل فيه ولم يضره » .

ونقل الشيخ محمد بن عبد الله باسودان أن بعض أئمة ذلك الزمان كلف العلويين بإثبات نسبهم بالطريقة القضائية وكان الحامل له على تكليفهم بعض من عنده نزعة أباضية ... فسار الإمام المحدث على بن محمد بن جديد إلى البصرة وأثبت نسبهم عند قاضيها وأشهد على إثبات القاضى نحو مائة شاهد ممن يريد السفر للحج ورقب بمكة حجاج حضرموت وقال صاحب البضائع إنه بذلك انتهى الهمس والتقطيب وانقطعت لسان كل خطيب . وعلى بن محمد بن جديد هذا عاش فى أيام آل راشد وتوفى بالحجاز سنة ٦٢٠ ﻫ .

ويذكر صاحب المشرع أيضاً أن سلطان تريم امتحن الإمام سالم بن بصرى بأشياء تزعزع رواسى الجبال وتخجل أكابر فحول الرجال ونحن نعرف أن الإمام ابن بصرى هذا من ألد أعداء الأباضية وكان يحارب بدعتهم وينال منها جهراً ويذكر صاحب البضائع أن العلامة سالم بن بصرى قتل فى يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ٦٠٤ ﻫ فمن هو السلطان الذى امتحنه ولماذا ؟ ومن ذا الذى دبر مقتله ؟ وما هى الظروف التى أحاطت بهذا القتل أو الاغتيال ؟

ولنترك الأباضية تجود بأنفاسها فى نهاية القرن السابع الهجرى لنستمر فى توضيح معالم التاريخ الحضرمى .

فوضى واضطراب :

مرت بحضرموت بعد الإسلام قرون طويلة كانت فيها مسرحاً للفوضى والاضطراب إذ لم تستطع سلطة ما طوال تلك المدة أن تحتفظ بكيانها وتوطد دعائمها وتضع بنيانها على أساس ثابت نتيجة الضعف المادى والإدارى الذى اتصفت به جميع السلطات المحلية التى حاولت أن تفرض وجودها أثناء تلك الفترة الطويلة من تاريخ حضرموت .

وحال بعد المسافة وصعوبة المواصلات وقلة موارد القطر الحضرمى فى أسباب أخرى دون استقرار سلطة الحكومات الإسلامية الخارجيـة فى حضرموت استقراراً يمكنها من الإنشاء والبناء فظلت البلاد عرضة لتعاقب سلطان القبائل المحلية التى ليس لأفرادها من المؤهلات ما يمكنها من القيام بواجبات الحكم وتبعاته .

وإذا كانت الفوضى والاضطراب ظاهرة ملموسة فى كثير من فترات التاريخ الإسلامى لحضرموت فإن الفترة الواقعة ما بين القرن السادس الهجرى إلى أوائل القرن العاشر كانت من أبرز عهود التاريخ اضطرابا وفوضوية .

وفضـلا عن الاضطرابات الداخلية فى البـلاد الحضرمية فقد كانت حضرموت فى صراع مستمر مع الطامحين من حكام اليمن الأقوياء لاتتخلص من احتلال حتى تنشب فيها أظفار احتلال آخر ولا تهدأ فيها حرب إلا لتندلع نيران حرب أخرى ولا تنتهى من هجوم إلا لتواجه هجوماً أشد منه وأنـكى فقد رأينا كيف تعرضت لهجات ملوك آل زياد واليعافرة اليمنيين ثم كانت هدفا لغزوات القرامطة وآل زريع والصليحيين فى القرن الخامس الهجرى .

ودخل القرن السادس فـكان بداية التطاحن والعراك الدموى بين آل راشد ورجال الغُزّ وهم المهاجمون من العساكر الأيوبية وجيوش ابن مهدى اليمنى وغيرهؤلاء من العشائر الوطنية من نهد وبنى حارثة[1] وبنى حرام وغيرهم

وآل راشـد هؤلاء قبيلة من حمير القحطانية شقوا طريقهم إلى الحكم فى موجة من الفوضى والتناحر على النفوذ والسلطان وذهب كثير منهم ضحايا الحروب التى نشبت فى القرن السادس فى سبيل التنازع على السيطرة والطمع فى الاستيلاء وكان منهم السلطان عبد الله بن راشد المشهور له بالعلم والورع والعدل والاستقامة بويع له آخر بيعة سنة ٦٠٦ هـ واستولى على جميع وادى حضرموت ولذا نسب إليه فسمى وادى ابن راشد وكان قبل ذلك موزعا بين

(١) بنو حارثة هؤلاء من بنى الأشرس من كنده وكانوا يسكنون أسفل الوادى مابين مريمه وبور ومعهم من حمير طائفة من بنى هذيل .

الرؤساء مفرقا بين الطوائف يتحكم كل رئيس فى ناحيته تحكم الأمير فى مملكته .
وفى أثناء حكم آل راشد غزا حضرموت عثمان الزنجيلى وكان واليا على عدن من قبل صلاح الدين الأيوبى فوصلت إلى الشحر قوة كبيرة من اليمنيين والغز فى سبع سفن سنة ٥٧٦ هـ فاحتلتها ثم تقدمت إلى الداخل حيث اعترضتها قوة عسكرية من أتباع شجعنة بن راشد لم تثبت أمامها فواصل الجيش زحفه حتى احتل تريم ومريمة وشبام وغيرها .

ولكن الحضارم سرعان ما انتقضوا فى نفس السنة ودخل عبد الباقى بن احمد بن راشد إلى تريم وفيها الغز بعد أن حاصرهم فيها واستمرت الحرب سجالا بين الغز وأهل حضرموت مدة طويلة تواليهم طائفة وتناوئهم أخرى وتكرر هجومهم على حضرموت وتعددت غاراتهم فى الساحل والداخل فهجموا على حجر وميفع والشحر وشبوه وعمد والريدة وعندل والهجرين وفى سنة ٦١٠ هـ دخلوا الشحر وكان عبد الباقى بن فارس بتريم فساد إلى الشحر فى جماعة من أهل تريم بعد أن وقع الاتفاق بينه وبين الغز على أن يعطيهم خمسة آلاف ريال ويتخلوا عن بلاده فانصرفوا بعد أن دفعها لهم .

وفى جمادى الأولى من سنة ٦١٤ هـ عاود الغز هجومهم بقيادة عمر بن مهدى اليمنى فاستولوا على الشحر بعد أن نكلوا بولاتها آل فارس ثم استولوا على عرف بعد قتال وعلى الفيل الأسفل ثم دخلوا تريم بعد حصاد وأخرجوا منها السلطان عبد الله بن راشد واتجهوا إلى شبام بعد ذلك فاحتلوها بعد قتال شديد من بنى حارثة ويصفو وادى حضرموت كله لابن مهدى سنة ٦١٧ ويبنى حصن شبام سنة ٦١٨ هـ ويحفر خندقا يحيط بها ويحتل وادى دوعن بأسره .

وعاد ابن مهدى إلى اليمن لمقابلة الملك السعودى الأيوبى بتعز ثم رجع ليجد حضرموت قد انتقضت عليه فيمر بحجر ويقاتل أهلها ثم يأتى إلى روعن وشبام وكانت قد انتقضت هى أيضاً كما انتقض بنو سعد وبنو ظبيان وفهد كلها والبلاد ثائرة والمطامع الفوضوية والنعرات القومية قائمة على سوقها وهو يؤدب ويصالح وكلما أخضع قبيلة انتقضت عليه أخرى .

ولم يطل المقام بابن مهدى فى حضرموت فقد هجمت قبائل فهد على شبام بعد حصار دام أياما واستولت عليها بعد أن قتلت عمر بن مهدى وكان ذلك سنة ٦٢١ ه وبذلك انتهى حكم الأيوبيين فى حضرموت ثم اندفعت فهد حتى دخلت تريم وبها عبد الرحمن بن راشد واستولت على جميع بلدان حضرموت وأخرجت أولاد عبد الله بن راشد من سجن ابن مهدى .

ويقول الأستاذ ابن هاشم(١) أنه فى هذا الوقت بدأت سلالة كثير تفكر فى إيجاد كتلة وطنية قوية تقبض على ناصية البلاد وتقوم بإصلاحها على أسس وقوانين الحكومات النظامية تنقذ الوطن من فتنه المتماوجة . ثم قال :

يظهر لمن تتبع مجارى السياسة الكثيرية فى ذلك العصر وقيامها على مبدأ التقرب من مشائخ العلم والصلاح فى العلويين وأنصار السنة بتريم وبيت جبير كآل باعباد وآل باجمال وغيرهم وتبركها بآثارهم ودعواتهم . . . أنها ترمى من بعيد إلى أنها إنما تسعى لمحو آثار ذلك المذهب الأباضى الذى كوفحت دولته وصولته وانتهت مدته وشدته وقضى على البقية الباقية منه سنة ٥٦١ ه بشبام وأنها تود أن تشيد على أنقاضه دولة سنية شافعية المذهب نزيهة الاعتقاد تسعد بها البلاد ويرتاح بها القطر مما يكابده من الأهوال والويلات .

ويروى الأستاذ ابن هاشم أن آل كثير هم الذين ألبوا أساطين الحول والطول ورجال النفوذ الروحى والمادى ضد افتتاح نهد لمنطقة السليل سنة ٦٠١ ه حتى فشلت خطتهم وتلاشت بأسرع ما يكون فقد ذكروا أنه فى هذا العام اقتسمت نهد السليل فأخذ بنو معروف ومره شبام والحول (الفرفة) وتريس واختص بنو سعد وظبيان بحبوظه وسيؤن وانفرد بنو ظنه ببور ومسيب ومريمه .

وقد عادت نهد سنة ٦٢١ ه فاستولت على شبام وتريم وجميع بلدان الوادى كما سبق بعد أن قتلت عمر بن مهدى فى شبام ولكنها ما عتمت أن

(١) فى كتابه تاريخ الدولة الكثيرية .

زحزحها مسعود بن يمانى بن لبيد الظنى الكنانى واستولى على هذه البلدان فى السنة نفسها .

ومسعود هذا هو مؤسس دولة آل يمانى بتريم الذين دام ملكهم مدة طويلة وتوفى بتريم سنة ٦٤٨ ﻫ وقد تولى بعده ابنه عمر المتوفى سنة ٦٧٥ ﻫ ثم يمانى ابن عمر المتوفى سنة ٧١٤ ﻫ ثم عبد الله بن يمانى المتوفى سنة ٧٤٥ ﻫ ثم أخوه أحمد بن يمانى ثم محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٦٩ ﻫ ثم تنازع الولاية بعده ابنه عبد الله وابن أخيه راصع بن دويس ، وقد بقيت دولة آل يمانى إلى سنة ٩٢٧ حيث قضى عليها بدر أبى طويرق الكثيرى .

وكان آل كثير قد اختطوا فى وادى بوحة مدينة عينات الجنوبية عند السفح وهى عينات القديمة وأخذوا يرتادون لأنفسهم نقطا مواتا يحتلونها ليجعلوا بها مواقع حربية لتنفيذ خطتهم فلم يرق ذلك فى عينى يمانى بن جعفر زعيم بنى حرام فحاربهم سنة ٦٣١ ﻫ وهجم عليهم سنة ٦٣٢ ﻫ وحصر مشطه وعينات .

وحدث ان استولى ابن اقيال سلطان الشحر على تريم وشبام وما بينهما بالشراء فاستنصر به بنو حرام على آل كثير فجهز جيشا وحصر مشطه ثم عسكر قريبا من عينات ولكنه لم يظفر بطائل ثم انقلب ابن اقيال ضد بنى حرام فبطش بهم وقتل سبعة من زعمائهم فى حصن الرناد بتريم منهم يمانى بن جعفر نفسه سنة ٦٣٥ ﻫ .

ويروى بعض المؤرخين أن عامر بن فضالة بن شماخ طرد آل اقبال من شبام وتريم وسيون واحتل البلاد سنة ٦٣٦ ﻫ وفى سنة ٦٣٧ ﻫ جمع مسعود ابن يمانى رجالا من آل اقبال وآل أبى قحطان وهجم على تريم فهرب أكثر السكان ولم تصل جمعة فى رجب وشعبان ورمضان .

وآل شماخ هؤلاء وآل فضالة بطنان من قبيلة خيثمة التى انتقلت إلى حضرموت من جبل السراه وهى التى خربت قارة بنى جشير سنة ٦٠٤ ﻫ وخربت قرية حبوظة وكحلان .

وفى أيام عمر بن مسعود بن يمانى قدم أمير ظفار سالم بن ادريس الحبوظى الحضرمى طامعا فى الاستيلاء على حضرموت فاشترى مدينة شبام سنة ٦٧٣ ﻫ — وشراء المدن والمالك الحكومية فى حضرموت تقليد معروف إلى عهد قريب جداً — واستولى على كثير من قرى ومدن حضرموت مثل دمون والعجز والفيل الأعلى وسيؤن وغيرها وأقام ثلاثة شهور محاصراً ابن مسعود فى تريم وحاول ابن مسعود أن يستنجد بالغز فقد أرسل ابنه يمانى أثناء الحصار ليجند منهم جنداً يستخدمهم فى أغراضه الحربية فعاد خائبا .

واشتدت الفتنة على تريم وخلت البلاد من أهلها وعم الخراب وعاد الحبوظى إلى ظفار تاركا آل كثير نوابا عنه فى حضرموت وكانوا قد أسرعوا إلى موالاته والدعاية له وتولى شئونه العسكرية وفى سنة ٦٧٧ جهز الحبوظى على الشحر من البحر والبر عند ما بلغه استيلاء الغز عليها وهرب سلطانها ابن مشجعنة إلى الجبال فدارت معارك بينه وبين الغز انتهت بفشله وعودته خائبا إلى ظفار .

وكانت علاقة الحبوظى بالمظفر الغسانى ملك بنى رسول فى اليمن غير حسنة فقد علم أن الحبوظى يفكر فى الهجوم على عدن وأنه هو الذى شجع حاكم الشحر راشد بن شجعنة على خلع طاعة بنى رسول وكان يدفع إليهم خراجا سنويا فاغتاظ المظفر غيظا شديداً وجهز إليه جيشاً كبيراً استولى على ظفار سنة ٦٧٨ ﻫ بعد أن قتل سالم بن إدريس الحبوظى فى المعركة التى دارت بالقرب من ظفار عاصمة مملكته وبذلك انتهى ملك بنى الحبوظى فى ظفار وحضرموت ودخلت البلاد تحت سلطان بنى رسول حكام اليمن مع العلم بأن السلطة اليمنية فى حضرموت كثيراً ما تكون غير فعلية فتكتفى بالنفوذ الاسمى وتترك شئون البلاد لمن يواليها من أصحاب السلطات المحلية .

وتشبث آل كثير بما فى أيديهم من البلدان التى كانوا يحكمونها باسم الحبوظى وأعلنوا استقلالهم بالأمر فيها وضاعفوا من جهودهم فى التقرب إلى رجال الدين وكسب مودتهم وكان الشيخ محمد بن عمر باعباد الذى بنى الغرفة

سنة ٧٠٠ هـ وابنه عبد الله القديم فى مقدمة الذين لا يقصرون فى نصرة آل كثير وتنشيطهم وترويج مشروعهم بين الدهماء علاوة على ما يقوم به العلويون[1] من الجهة الأخرى من حسن الدعاية وتمهيد السبيل .

وأصبحت أغلبية قرى السليل خاضعة للنفوذ الكثيرى ما عدا قرية (بور) فقد رفضت قبيلة آل بانجار التسليم ولم تنجح الوساطات الكثيرة للوصول إلى حل سلمى فهجم آل كثير على بور واستولوا عليها بعد أن قتلوا جماعة من آل بانجار سنة ٧٢٣ هـ .

وفى هذا القرن الثامن أخذ الصفو يتعكر بين آل كثير وقبائل الظلفان سكان هينن فقد ضاق هؤلاء ذرعا بتطاول آل كثير إلى بسط نفوذهم على أكبر مساحة من البلاد ولم يطيقوا صبرا على تحككهم بمحاسيبهم والمستجيرين بهم الأمر الذى أدى إلى نشوب الحرب بين الفريقين مدة طويلة دامت أكثر من مائة عام يتوارثها الأبناء عن الآباء .

وأثناء سلطة آل يمانى بتريم وقعت حروب بينهم وبين آل الصبرات الذين نازعوا آل يمانى سلطتهم مدة من الزمن وكذلك آل أحمد فقد عرفهم هذا القرن كقوة تحاول أن تدلى بدلوها بين الدلاء فتساعد فى اضرام نيران الفتن وترويع الآمنين .

السلطنة الكثيرية

وما انعدم القرن الثامن حتى كانت الدعاية لآل كثير قد خطت خطوات واسعة وأصوات المعارضين من طلاب السلطة خافتة ومكايدهم ضعيفة . فبدأت السلطة الكثيرية حينئذ تجرى على نظام وتدبر ممتلكاتها وشئونها بحكمة ورزانة وتتزلف إلى أهل الفضل والعلماء[2] وتقبل شفاعاتهم حتى تمنى أولئك الذين لا يزالون تحت لواء آل أحمد والصبرات وغيرهم أن تظلهم الراية الكثيرية وتسرى عليهم سلطتها .

---

(١) تاريخ الدولة الكثيرية لابن هاشم .

(٢) تاريخ الدولة الكثيرية لابن هاشم .

وفى سنة ٨١٤ غادر على بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن على بن عمر ابن كثير بلدة بور مسقط رأسه واتصل بالشيخ على بن عمر باعباد وغيره من رجال الصلاح . . .[1] وكانوا يعدونه بالاستيلاء على ظفار وجميع بلدان حضرموت فاشتد على بن عمر بذلك وشرع يذلل العقبات ويزحزح الحواجز ويحارب ويغزو حتى استتب له الأمر واستحق لقب سلطان وهو أول من نصب سلطانا على حضرموت من آل كثير التى كانت إلى وقته متفرقة بين ولاة كثيرين وهو أول من حول القبلية الكثيرية إلى دولة منظمة .

وتوفى السلطان على بن عمر سنة ٨٢٥ هـ بعد أن دانت له ظفار وشبام وكثير من مدن الوادى وقراه وبعد أن أمضى أكثر حياته فى قمع الحركات المعادية وإخضاع الثوار وقد استمرت ظفار فى يد الدولة الكثيرية الأولى إلى أن أفل نجم هذه الدولة منها سنة ١١٣٠ هـ .

وآل يمانى حكام تريم هم الذين لاقى منهم آل كثير أشد الصعوبات فى سبيل تحقيق مطامحهم وقاسوا منهم أمر العناء فقد قاموا بهجوم مشترك ضد آل كثير سنة ٨٢١ هـ منهم ومن محمد وآل يعقل ثم انهزموا بعد معركة عظيمة وصدوا هجمات آل كثير المتكررة على تريم فى قتال عنيف وفى سنة ٨٤٤ هـ كان عبد الله بن يمانى ابن محمد بن راصع بوادى العين فى طريقه إلى اليمن حيث أدركه آل كثير ومعه ذهب كثير وفضة ليجهز به جيشا يقاتلهم به فقتلوه وأخذوا ما كان معه من مال.

وفى سنة ٨٤٥ هـ ثار آل يمانى أيضاً مآل أحمد والصبرات وآل ثعلب وصاحب مريمة وآل جميل فى جفل وغيرهم وطبيعى أن يكون هم القائمين بالأمر من آل كثير إخضاع هذه الثورات المستمرة والاستعداد للطوارىء من أمثالها وهكذا لم تتفرغ حكومة ما فى حضرموت أثناء هذا التاريخ الطويل بعد الإسلام لأى عمل اجتماعى أو اقتصادى ثابت نتيجة لهذا التزعزع فى الميدان السياسى وعدم الاستقرار .

وكان آل كثير قد استولوا على الشحر فى ضمن ما استولوا عليه من مدن

---

(١) نفس المصدر .

حضرموت الهامة فانتزعها منهم سعيد بن مبارك بادجانه الكندى سنة ٨٣٨ ﻫ وبعد وفاته قام بالأمر فيها ابنه محمد الذى حاول احتلال عدن فأسره حكامها من آل طاهر وقاموا برد فعل فاحتلوا الشحر وأعادوها إلى آل كثير سنة ٨٦٧ ﻫ[1] .

ويروى ابن هاشم أن رجال السادة العلويين كثيراً ما كانوا ينشطون الأمير جعفر بن عبد الله بن على بن عمر إلى القيام بنصرة قومه والتصدى لنيل السلطنة لما يعلمونه فيه من الرأى الثاقب والورع الحاجز وقد ضمه يوما فى حوطه سلطانه مجلس مع الشيخ عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف فاقترح هذا عليه أن يكون سلطاناً فى بلد بور المستعصية وأكد له أن واليها قد تعب من ولايتها وأنه يستطيع أن يقنع واليها بالتنازل عن الولاية لجعفر وكان الأمر كذلك فقد ذهب الأمير جعفر إلى بور وتولاها صفواً عفواً ولم يزل بها سلطانا حتى تآمر عليه الظلفان فقتلوه سنة ٩٠٥ ﻫ

وجعفر هذا هو جد السلطان العبقرى العظيم بدر بن عبد الله بن جعفر الملقب بأبى طويرق المتوفى سنة ٩٧٧ ﻫ والذى استعان بالاتراك فى إخضاع القبائل الحضرمية وقبل أن تكون بلاده تابعة للحكومة العثمانية التى يرأسها حينذاك السلطان سليمان القانونى وهو الذى صد هجمات البرتغاليين المتكررة على الشحر وأسر عدداً كبيراً منهم سنة ٩٤٢ ﻫ وفى أيامه دخلت تريم نهائيا تحت حكم آل كثير وقضى على آخر سلطة آل يمانى بها .

وكان الجزء الأخير فى حكم أبى طويرق عبارة عن سلسلة ثورات عنيفة قام بها زعماء القبائل وطلاب السلطة فثارت دوعن والهجرين وعمد ونهد والمهرة وقبائل الحموم وسيبان وبعض الأمراء من آل كثير فى شبام وعبيد آل يمانى وغيرهم وكانت أخطر هذه الحروب وأهمها هى حروب بدر مع العمودى فى دوعن :

فقد كان الشيخ عثمان العمودى خصما لدودا لأبى طويرق . عارض سياسته

---

(١) فى تاريخ حضرموت فى شخصيات تفصيل لهذه الحوادث .

وألب عليه القبائل وآثارها عليه حرباً شعواء ولم تؤثر فى معنويته تلك البنادق الجهنمية التى كان يتسلح بها جنود بدر والتى أمدهم بها مصطفى أغا قومندان الأسطول التركى .

ولما رضخ أبو طويرق لسلطان الأتراك وأعلن تبعية بلاده لسليمان القانونى عاهل الترك أعلن العمودى عدم موافقته على هذا التصرف وانحاز ألى إمام الزيدية فى اليمن وكون بذلك جبهة سياسية تعارض سياسة أبى طويرق وظل خلفاؤه من آل العمودى موالين لأئمة اليمن الزيود مدة حكمهم السياسى فى دوعن على العكس من آل كثير الذين لم تكن علاقاتهم دائما بأئمة اليمن على ما يرام .

وقد استمر حكم آل العمودى فى دوعن مدة طويلة تبتدىء فى أوائل القرن التاسع الهجرى تقريباً حتى ضم أخيراً إلى ممالك السلطنة القعيطية سنة ١٣١٧ ﻫ .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بدأ تدخل أئمة اليمن من الزيدية فى شئون حضرموت يتخذ شكلا عمليا فقد ذكروا أنه لما استولى الإمام الحسن بن القاسم كتب لسلطان حضرموت وأعيانها كتبا يدعوهم إلى طاعته ويحذرهم من مخالفته وكان من بين الذين ردُّوا على الإمام الزيدى السيد على بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ١٠٤١ ﻫ وكان هذا كما يقول صاحب المشرع مبالغا فى تحصيل التعظيم لدولة آل كثير قانعاً للمخالفين عليهم بأنواع الحيل والتدبير وكان هو الذى يتولى الرد على بعض رسائل الملوك التى ترد إلى السلطان .

وقد أورد صاحب المشرع نص الرسالة التى رد بها العيدروس على الحسن بن القاسم وهى صريحة فى رفض الإذعان لطاعة الإمام والتمسك الصريح بمذهب أهل السنة فى الأصول والفروع التى تختلف اختلافا جوهرياً مع مذهب الزيدية .

وتوفى الحسن بن القاسم سنة ١٠٥٤ ﻫ وتولى بعده أخوه المتوكل اسماعيل

الذى استطاع أن يضم حضرموت إلى مملكته ويخضعها لنفوذه فقد كتب إلى السلطان بدر بن عبد الله بن عمر الكثيرى سنة ١٠٦٧ ﻫ يقول له : —

« وقد أرسلنا إليكم القاضى شرف الدين الحيمى لأخذ البيعة وليساعدكم فى أمور الإصلاح ونشر أحكام الشرع ونصب النواب والحكام وإحياء السنة ومحو آثار البدع والتذكير بحق الله ورسوله وحق أهل بيته والمطهرين والالتجاء إلى أهل البيت فى الأحكام الشرعية والعقائد . . . وأخذ ما أمر الله بأخذه من الصدقات والأخماس والمظالم وصرف القدر الذى أمرنا بصرفه فى مواضعه وإيصال ما أمرنا بإيصاله إلينا لنضعه حيث أمر الله » .

وكان السلطان بدر بن عبد الله هذا يحاول إبعاد الزيدية عن التدخل فى سياسة السلطنة الكثيرية وقد سبق منه أن اعتقل عمه بدر بن عمر الذى كان مواليا لأئمة اليمن وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدى وطفق يجمع آل كثير والشنافر ويعقد المؤامرات السرية ضد عمه بدر ويهول لهم الأمر فى موالاته للزيود وأنه سيسهل لهم احتلال حضرموت ويساعده فى ترويج هذه السياسة والدعاية لها كثير من العلويين وغيرهم من العلماء ورجال الدين .

وظل السلطان بدر بن عبد الله بعد أن أطلق سراح عمه وتنازل له عن ولاية ظفار بأمر من الإمام يتظاهر بالولاء والطاعة للمتوكل اسماعيل ويعمل سراً لمعاكسته ومحاربة أنصاره فى حضرموت الأمر الذى سبب توتر العلاقات بينهما حتى اضطر المتوكل إلى توجيه إنذار نهائى زحف على أثره إلى حضرموت بجيش كثيف سنة ١٠٧٠ ﻫ حيث احتلت جيوش الإمام جميع البلاد الحضرمية وأعادت السلطان بدر بن عمر إلى السلطنة ومنعت الزيدية أثناء احتلالها لحضرموت تلاوة راتب الحداد وأمرت بأن يزاد فى الأذان حى على خير العمل مجاراة لمذهب الزيدية فى صيغة الأذان عندهم .

وبعد وفاة السلطان بدر بن عمر سنة ١٠٧٣ ﻫ أمر المتوكل اسماعيل أن يخلفه فى سلطنة ابنه محمد المردوف فتولاها بعد أبيه إلى أن مات وكان محمد هذا حازماً صارماً شديد الوطأة على العشائر المتسلحة وقد أعمل بطشه وتنكيله

بالشنافر من آل كثير بأقل حق وأدنى سبيل لقيامهم مع السلطان بدر ابن عبد الله ضد أبيه وأضعف ما لديهم من شوكة حتى ألحقهم بمستوى العزل من السلاح .

وظلت البلا خاضعة خضوعاً اسمياً للنفوذ الزيدى إلى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى يتمثل فى الخطبة يوم الجمعة باسم الإمام وما أشبه ذلك من المظاهر الاسمية .

وفى أوائل هذا القرن سنة ١١١٣ ﻫ وكانت البلاد تموج بالأحقاد والأضغان حيث انقسم الناس سياسياً ومذهبياً إلى فريقين. فريق يجنح إلى الزيدية ويفضل سلطة الأئمة وهم أتباع آل على بن عبد الله بن عمر الكثيرى وفريق يؤيد سلطة الشوافع من يافع التى تعضد السلطان بدر بن محمد المردوف ويعضدها .

كان بدر بن محمد المردوف شاعراً بضعف مركزه أمام التيارات المتعاكسة فى سلطنته ولم تبق لديه قوة غير الجنود من يافع التى أصبح هو نفسه تحت سيطرتها وانقضت البلاد كلها عليه وعارضه كثير من بنى عمه فرأى أن يستزيد من الجنود اليافعيين ليستعين بهم على حفظ مركزه المتزعزع ، فشخص إلى يافع وقدم ستة آلاف مقاتل منهم واستولى بهم على جميع حضرموت سنة ١١١٧ ﻫ

ولكن هؤلاء الجنود الذين استقدموا لتعزيز الدولة الكثيرية وتعضدها وجدوا الفرصة سانحة والظروف مهيأة للتغلب على الحكم فى البلاد وزحزحة الدولة الكثيرية عن مراكزها فى داخل حضرموت وساحلها .

واشتدت الخصومة سنة ١١١٩ ﻫ بين آل بدر بن عمر يرأسهم السلطان بدر ابن محمد المردوف وبين آل عبد الله بن عمر برئاسة السلطان عمر بن جعفر بن على بن عبد الله بن عمر وكان هذا حاقداً على يافع لتدخلهم فى شؤون السلطنة الكثيرية فحاول عدة محاولات لإيقاف التدخل اليافعى عند حد فلم يستطع واضطر أخيراً إلى السفر من حضرموت يائساً حتى توفى بمسقط من أرض عمان

ولم تطل حياةٌ بالسلطنة الكثيرية بعده فقد قضى عليها تماما واختفت من

الوجود فى عهد ابنه جعفر بن عمر منتصف القرن الثانى عشر الهجرى وأصبحت حضرموت فى يد عشائر يافع الذين كونوا لهم سلطات متعددة فى كثير من مدن وقرى الساحل والداخل وكان لغير يافع من القبائل والسادة والمشائخ نفوذ محدود أيضاً داخل مناطقهم التى يسكنونها .

وكانت هذه المدن والقرى الآتية تخضع لنفوذ يافع مباشرة : فى تريم آل لبعوس وفى سيؤن آل الضبى وفى تريس آل النقيب وفى مريمة آل البكرى وفى جفل آل الرباكى وآل النقيب وفى شبام الموسطه وفى غيـل بن يمين الشناظير وفى ريدة المعاره كلد وفى حوره آل النقيب وفى حريضه بن بريك وفى لحروم القعيطى وفى سدبه الجهورى وفى الهجرين آل يزيد وفى القزه آل البطاطى وفى الشحر آل بريك وفى المكلا الكسادى وفى كل مدينة أو قرية تقريباً سلطة مستقلة يافعية أو غير يافعية .

وطبيعى والحالة السياسية على هذا المنوال أن يحصل بين هذه السلطات من التناحر وإراقة الدماء وإهلاك الحرث والنسل وقطع السبل وترويع الآمنين ما يدمى تصوره الأفئدة ويقطع نياط القلوب .

وفى النصف الأخير من القرن الثانى عشر زحف إلى حضرموت حسن وهبه المكرمى الأباضى بأربعة آلاف جندى من جهة عمان وكان يتظاهر بنصر الشريعة الغراء ويدعى أنه إنما جاء لمحو سلطة الطاغوت ولم يلبث أن أظهر دعوته إلى مذهب الأباضيه فانقلبت الدعاية ضده ونفر الناس منه .

وقد اضطربت حضرموت لقدومه وظل الناس فى خوف شديد منه وأقام مدة محاصراً لشبام ثم رحل عنها بعد أن هلك من رجاله العدد الكثير واضطر إلى المصالحة بعد أربعين يوما .

وفى سنة ١٢١٨ هـ قدم من جاوا والهند جعفر بن على بن عمر بن جعفر الكثيرى وحاول إعادة دولة آل كثير وزحزحة يافع عن البلاد وناصره جماعة من السادة آل العطاس وآل البار وآل الحبشى والسيد أحمد بن عمر بن سميط فاستولى على شبام بعد أن دحر يافع عنها ثم استولى على وادى عمد

وبعض دوعن وحوره والكسر وحاصر يافع فى سيؤن سنة كاملة ثم انقلب عنها خائباً وحاول الاستيلاء على تريم أيضاً فلم يفلح .

ثم اصطدم بمنصب عينات السيد أحمد بن سالم بن الشيخ أبى بكر الذى استقدم جنوداً من يافع لحرب الأمير جعفر بن على ودامت الحرب مدة دب الوهن أثناءها إلى صفوف عساكر الأمير جعفر فمرض ومات آسفاً بالحيضرة من ضواحى تريم سنة ١٢٢٣ ﻫ .

وبوفاته انحصرت سلطة أبنائه وخلفائه من آل كثير فى شبام فقط يجاذبهم حبل السيطرة فيها بعض قبائل الموسطه من يافع وعلى أنقاض هذه الإمارة الصغيرة قامت دويلة آل عيسى بن بدر الكثيرى فى شبام سنة ١٢٣٩ ﻫ الذين كان آخرهم منصور بن عمر الذى قتله يافع فى شبام سنة١٢٧٤ ﻫ وبقتله دخلت شبام تحت سلطة القعيطى .

وفى سنة ١٢٢٤ ﻫ وصـــــل إلى حضرموت ناجى بن قملا النجدى بجيش عرمرم من قبائل الدرعية فاكتسحوا القطر الحضرمى واضطر القبائل من نهد ويافع والشنافر إلى محالفتهم ودخلوا تريم وكسروا قببها وحرقوا كتبها وحبسوا مناصب الجهة ومنعوا الأذكار والتذكير .

ويقال بأن عبد الله بن يمانى التميمى وعبد الله بن عوض غرامة اليافعى حاكم تريم إذ ذاك تعهدا له بنشر مبادىء الوهابية ومحاربة الخرافات بحضرموت فعادوا راجعين إلى بلادهم بعد أن أقاموا بحضرموت أربعين يوما فقط وكان زحفهم هذا للمرة الثانية فقد سبق لهم أن زحفوا على حضرموت قبل سنوات فى عهد الأمير جعفر بن على الكثيرى الذى مر ذكره آنفاً وقد استطاع الأمير جعفر أن يردهم من غرب شبام فعادوا من حيث أتوا .

وفى هذا القرن (الثالث عشر) بذلت محاولات من بعض السادة العلويين لإقامة حكومة قوية فى حضرموت تقضى على تعدد السلطات وما ينتج عنها من فوضى واضطراب وإراقة دماء فكاتب بعضهم محمد على باشا خديوى مصر طالباً إليه أن يمدهم بجيش يدوخ به البلاد ويقيم لها والياً عدلا فلم يستطع محمد

على أن يحقق هذا الرجاء واكتفى بأن أصدر فرماناً للمقدم على بن عمر بن قرموص بإشارة من العلويين ليكون والياً على البلاد .

وفشلت هذه الفكرة فى مهدها فاتجهت أنظارهم إلى إمام اليمن وفاوضوه مكاتبة وسفارة ليسعفهم بما يحقق رغبتهم فلم يجدوا لديه إسعافا ولا رغبة فيما فاوضوه فيه .

وبذل بعض العلويين فى هذا القرن أيضا محاولات أخرى لإقامة حكومة محلية يرضون عنها فبايعوا السيد طاهر بن الحسين العلوى المتوفى بمسيلة آل شيخ سنة ١٢٤١ ﻫ لينهض بأعباء الحكومة المقترحة ولقب ناصر الدين وحمل السلاح ودعا إلى التسلح وزحف إلى تريم وحصرها طويلا ثم باءت هذه المحاولات بالفشل كما فشلت محاولاتهم أيضا فى دفع عمر بن عبد الله بن مقيص الأحمدى اليافعى ليتولى السلطنة سنة ١٢٤٣ ﻫ وقد جمعوا له الأموال وابتاعوا له مدفعا واشتروا له حصن مطهر ليجعله قاعدة حربية لسلطنته فلم تستمر هذه السلطنة أكثر من سنتين فقط دخلت بعدها فى خبر كان

وهكذا قدر للشعب الحضرمى المسكين أن يدفع ثمن هذه الفوضى السياسية غاليا من حاضره ومستقبله ومقدرات بلاده فقد كانت هذه السلطات بحكم تعددها وضعفها وتنافسها وجهلها سببا فى فقد الأمن وعدم النظام وخراب العمران وسوء الحالة الاقتصادية وانتشار الجهل والاستبداد بالضعفاء إلى غير ذلك من الأضرار الاجتماعية التى تنجم عادة من وجود الفوضى السياسية والاستبداد المطلق الذى يخنق الحريات ويقضى على كل حركة ترمى إلى إسعاد الشعوب ورفاهيتها .

وفى هذه المدة نشأ غالب بن محسن الكثيرى المولود سنة ١٢٢٣ ﻫ فى غنيمة بوادى تاربه وهو من أحفاد السلطان عبد الله بن عمر الذى سبق ذكره غير مرة وكان هذا الفتى معروفا بالذكاء وحسن الاستعداد ، ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره حتى نزعت نفسه إلى السفر فاتجه نحو الهند سنة ١٢٤٦ ﻫ

حيث لقى حظوة كبرى لدى نظام حيدر اباد وجمع ثروة طائلة جعلته يفكر فى بعث الدولة الكثيرية .

وأعد الرجل عدته لجميع الطوارئ المحتملة فهو يعلم حق العلم أن التفكير فى بعث الدولة الكثيرية التى تلاشت أمام سيطرة يافع معنـــاه التعرض لتضحيات جسيمة . وجهود مضنية فلن يتخلى يافع عن مناطق نفوذهم التى أصبحت وطنا لهم ولأبنائهم ولن يتأخر الجمعدار عمر بن عوض القعيطى كبير يافع فى الهند وصاحب الطموح الخطير عن إمداد عشيرته من يافع وشد أزرهم بكل مستطاع ولن يسمح بأى عمل حربى ضدهم أو أى طمع فى الاستيلاء دون أن يقاومه ويستغله لقضاء حاجة فى نفس يعقوب . . .

ولكن الحياة كفاح فى نظر الجمعدار غالب بن محسن لقد صمم على أن يستعيد مجد آبائه مهما كلفه من ثمن فلينزل إلى الميدان ومن عرف مايطلب هان عليه ما يبذل وبدأت المحاولات الأولى بأن أرسل من الهند أحد أعيان آل كثير للاتصال بأنصار الفكرة من رجالات الشنافر وكبار العلويين ووضع خطة محكمة للسير عليها

وفى سنة ١٢٦١ ﻫ اشتروا بلدة الغرف لتكون نواة للدولة ومركزا لأعمالهم ثم اشتروا حصن ابن مطهر بالقرب من تريم واحتلوه بقوة من آل كثير ونشط عبود بن سالم أحد دهاة آل كثير لمحالفة القبائل بدواً وحضراً ثم بدأوا الهجوم على تريم التى تسيطر عليها قبيلة لبعوس اليافعية ونشبت الحرب واضطرب الأمن واشتد الحصار على تريم واستمرت الفتنة حوالى سبعة شهور اضطر بعدها عبد القوى غرامه آخر حاكم يافعى فى تريم إلى التسليم سنة ١٢٦٣ﻫ

اتجه الزحف بعد تريم إلى سيؤن التى يحكمها آل الضبى من يافع وكان العدد المهاجم كبيراً جداً فقد بلغ حوالى ألفى مقاتل ولم تقاوم يافع طويلا وخلصت المدينة لآل كثير بعد خمسة عشر يوما من بداية الهجوم سنة ١٢٦٤ﻫ ثم حاصروا تريس شهرين كاملين ومنعوا عنها الماء حتى اضطر حاكمها اليافعى من آل نقيب إلى التسليم سنة ١٢٦٥ ﻫ .

شجعت هذه الانتصارات آل كثير على التفكير فى غزو الساحل واحتلال شبام كما نزلت هذه الأنباء على رؤوس يافع نزول الصاعقة وحفزتهم للاتحاد والتعاون ضد آل كثير ونزل إلى الميدان عمر بن عوض القعيطى يمد عشيرته من يافع بالمال والرجال والذخيرة والعتاد الحربى فتغير الموقف وتعادلت الكفتان فلم يتمكن يافع من استرداد مافقدوه من نفوذهم فى تريم وسيؤن وتريس ولم يستطع آل كثير إرضاء مطامعهم فى التوسع فذهبت محاولاتهم الكثيرة المتعددة لاحتلال شبام والشحر والمكلا سدى

ووصل الجمعدار غالب بن محسن من الهند إلى سيؤن سنة ١٢٧٢ هـ ليشرف على التطورات الحربية بنفسه وسير حملات قوية جدا لاحتلال شبام فلم يفلح ثم اتجه إلى الشحر بثلاثة آلاف مقاتل سنة ١٢٨٣ هـ فاحتلها بعد أن غادرها أميرها اليافعى على ناجى بن بريك ثم زحف إلى المكلا فكسر دونها بعدمعارك شديدة ولم يلبث القعيطى أن انتزع الشحر من آل كثير فى نفس العام وبذلك لم يبق لآل كثير أى نفوذ فى الساحل وداهمت المنية غالب بن محسن قبل أن يفرغ من إتمام برنامجه الضخم الذى يستهدف بسط نفوذ الدولة الكثيرية الفتية على جميع ربوع القطر الحضرمى ففارق هذه الحياة سنة ١٢٨٧ هـ عن أربعة وستين عاما حافلة بالجليل الخالد من الأعمال .

وتولى السلطنة بعده ابنه منصور بن غالب المتوفى بعرفات فى ذى الحجة سنة ١٣٤٧ هـ وقد حصلت فى عهد منصور هذا حوادث حربية بين آل كثير والقعيطى لم يكن لها كبير دخل فى تغيير الوضع الجغرافى والسياسى لدولة آل عبد الله ولكن أهم الحوادث فى عهده معاهدة عدن المنعقدة بين السلطنتين القعيطية والكثيرية والتى تراضى الفريقان بموجبها على إيقاف الأعمال الحربية وأعلنا فيها عن استعدادهما للتعاون فى إصلاح البلاد وكان ذلك سنة ١٣٣٦ هـ .

وآل الأمر بعد منصور إلى ابنه على المتوفى فى شعبان سنة ١٣٥٧ هـ وقد تم فى عهده تعيين مستشار انكليزى لحكومتى حضرموت ثم خلفه فى السلطنة أخوه جعفر المتوفى سنة ١٣٦٨ هـ وفى أيامه تعينت الحدود بين الدولتين

وجردت حكومة عدن حملة لإخضاع أمير الغرفة عبيد صالح بن عبدات الكثيرى فى فبراير سنة ١٩٤٥ م

وبعد وفاة جعفر تولى ابن أخيه السلطان حسين بن على بن منصور وهو فى ريعان شبابه وتجرى فى عهده الآن عدة إصلاحات إدارية وثقافية واقتصادية بل وسياسية .

السلطنة القعيطية

مؤسس هذه السلطنة الجمعدار عمر بن عوض بن عبد الله القعيطى اليافعى الذى يعتبر بحق أحد العصاميين العباقرة الأفذاذ فى تاريخ حضرموت ولد بقرية لحروم بالقرب من عندل غرب شبام وعندل هذه هى التى عناها امرؤ القيس شاعر الجاهلية الفحل بقوله :

كأنى لم أسمر بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

ولا تعرف بالضبط السنة التى ولد فيها غير أنه فى حكم المؤكد أنه ولد فى أول العقد العاشر من القرن الثانى عشر الهجرى وتوفى والده وهو طفل فانتقلت به أمه إلى شبام تحت ضغط ظروف مالية قاسية حيث تعلم هناك مبادىء القراءة والكتابة وحال ضيق ذات يده دون مواصلة تعليمه فآثر الهجرة إلى الهند وكانت إذ ذاك مهجر الكثير من الحضارم الذين يشتغلون هناك بالتجارة أو ينضمون إلى الجندية فى جيوش أمراء الهند وبالأخص نظام حيدر أباد .

وهناك تقلب فى مراتب الجندية حتى أصبح من القواد الذين يشار إليهم بالبنان فى مملكة نظام حيد أباد وبرزت مواهبه وظهرت آثار عبقريته وطموحه واجتمعت لديه ثروة كبيرة وتزوج ورزق من الولد خمسة هم محمد وعبد الله وصالح وعوض وعلى .

وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه لقد كانت الدواعى متوفرة وأسباب النجاح

ميسرة وكل شيء يوحى بنجاح فكرة الأمير عمر بن عوض فى الوصول إلى السلطنة .

كانت قبائل يافع فى حضرموت مستميتة فى الدفاع لأنها تعرف أن هذه المعارك معارك حياة أو موت بالنسبة لها وقد رماهم الدهر ببطلين من آل كثير هما منصور بن عمر فى شبام وغالب بن محسن بواسطة دعاته فى أسفل الوادى وكانت حملات آل كثير ومؤامراتهم تستهدف جلاء اليافعيين عن حضرموت والاستئثار بالسلطنة دونهم فيثير ذلك من حفيظة يافع ويدفعهم إلى الدفاع والاستهانة بالموت وهم من لا تجهل مكانتهم فى الشجاعة والإقدام ولا ينقصهم سوى القيادة الموحدة وجمع الصفوف وتموين الحركة بالمال والذخيرة وهذا ما تكفل به الأمير عمر بن عوض .

وكان الأمير عمر بن عوض مطلعا على مدى قوة منافسه الخطير غالب بن محسن الكثيرى خبيراً بحركات آل كثير واتجاهاتهم عليما بما جريات الأحوال فى البلاد الحضرمية ونفسيات القبائل الذين تتكون منهم القوة المسلحة فى البلاد .

ووصلت إليه نداءات واستغاثات يافع يستحثونه فيها للإسراع بدرء الخطر الداهم الذى دللت الحوادث على أنهم لا قبل لهم بصده والوقوف أمامه وتجسمت الفكرة فى رأس الأمير اليافعى فأخرجها إلى حيز التنفيذ مشروعاً ضخما نابضاً بالقوة والحياة .

وجه إلى حضرموت أحد أقاربه عامر بن عوض القعيطى فاشترى له البقعة التى تدعى الآن (الريضة) فى وسط منطقة يافع فى القطن وشرع يبنى فيها الحصون والمبانى الحربية سنة ١٢٥٥ ﻫ ثم أرسل ابنه محمداً لينوب عنه فى تنفيذ الخطط الحربية وعززه بعد ذلك بأبنائه عبد الله وعوض وعلى .

وطفق أبناء الأمير عمر بن عوض عقب وصولهم إلى القطن يجندون رجال القبائل ويبذلون الأموال فى شراء العتاد الحربى ويعقدون معاهدات صداقة

وعدم اعتداء مع قبائل نهد وآل تميم وبعض آل كثير والعوالق وغيرهم واستقدموا من يافع عدداً كبيراً من الجند حتى تجمعت لديهم قوة كافية لانتزاع المبادأة بالهجوم من أيدى آل كثير فهجموا على حصون الدفاع عن شبام وأحكموا الحصار على المدينة حتى اضطر حاكمها منصور بن عمر الكثيرى إلى قبول الصلح على مناصفة شبام بينه وبين القعيطى فتم ذلك فى غرة محرم سنة ١٢٧٥ ه‍ .

ودبر منصور بن عمر عقب دخول القعيطى إلى شبام مؤامرة لاغتيال الأمير عوض بن عمر مع كبار مستشاريه من يافع حيث دعاهم لحضور مأدبة فى قصره وكان قد وضع أكياساً من البارود تحت البساط المعد لجلوسهم ولكنهم فطنوا إلى هذه المؤامرة واكتشفوها فتأخروا عن الحضور .

وقام القعيطى برد فعل سريع حيث هجم عليه أحد رجال يافع وهو فى أحد بيوت شبام وضربه بالسيف حتى سقط جثة هامدة وقتل ممن حاولوا الدفاع عنه من آل عيسى بن بدر ومواليهم نحو ثلاثين نفرا وبذلك تم احتلال القعيطى لشبام سنة ١٢٧٥ ه‍ وحاول آل كثير استرداد شبام باسم غالب بن محسن فحشدوا مالا يقل عن ألفى جندى فى ذى الحجة سنة ١٢٧٥ ه‍ فارتدت هذه الجموع عن شبام خائبة بعد معارك شديدة .

وفى نفس العام اشترى القعيطى بلدة حورة وحصونها ومراكزها بخمسة آلاف ريال من آل عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيرى وكانت حورة هى المدينة الثانية التى احتلها القعيطى بعد شبام .

وقبل أن تستمر هذه العمليات الحربية فى تقدمها توفى الأمير عمر بن عمر فى حيدر أباد من أرض الهند فى شهر صفر سنة ١٢٨٢ ه‍ بعد أن وضع حجر الأساس لدولة أثبتت وجودها وبرهنت بصلاحيتها للبقاء على أنها من خير إمارات الجنوب العربى وإذا لم تتح له الفرصة للعودة إلى حضرموت فقد كان القائد الأول لجميع الحركات السياسية والعسكرية التى قام بها أبناؤه يوجهها بتفكيره وإرشاداته ويمدها بكل ما تحتاج إليه من مال ومعونة .

وتعاون أبناء الأمير الراحل بعد وفاة والدهم العظيم على إتمام الخطة التى وضعها لهم وإذا لم يكن الأمير عوض بن عمر أسن إخوانه فقد كان ألمعهم إسماً وأبرزهم شخصية وأقدرهم على مواجهة الصعاب والتغلب عليها فأخذ يعالج الشؤون الحربية والسياسية بكل ما عرف عنه من حنكة وسياسة ودهاء ، وهو أول من أطلق عليه لقب السلطان من العائلة القعيطية المالكة ، فقد أصدرت حكومة الهند أمراً سنة ١٩٠٢ م بأن يطلق لقب السلطنة عليه وعلى خلفائه القائمين بالأمر بعده بدلا من لقب الجمدار الذى يعبر فى الاصطلاح الهندى عن رتبة عسكرية خاصة .

وأدرك السلطان عوض بن عمر بثاقب نظره ضرورة الحصول على منفذ إلى البحر تسيطر عليه دولته الناشئة تتلق بواسطته الإمدادات الحربية والمالية من الخارج وتجعل منه مركزاً لتوسعها فى الساحل والحد من طموح منافسها الخطير السلطان غالب بن محسن الكثيرى .

وإذا كان غالب بن محسن قد فكر نفس هذا التفكير فسبق إلى احتلال الشحر وطرد أميرها اليافعى على ناجى بن بريك سنة ١٢٨٣ ﻫ فتلك فرصة هيأتها الأقدار لتدخل القعيطى فى شؤون الساحل باسم الدفاع عن الحقوق اليافعية المسلوبة وحماية نفوذهم ومصالحهم فى الساحل .

فهاجم المدينة بثلاثة آلاف مقاتل فى ذى الحجة سنة ١٢٨٣ ﻫ من البر والبحر ، ولم يقاوم آل كثير سوى يومين فقط انهزموا بعدها تاركين أربعين قتيلا ، وعاد السلطان غالب بن محسن لاحتلال الشحر فى رجب سنة ١٢٨٤ ﻫ وكاد يحتلها لولا ثبات يافع وتشجيع السلطان عوض بن عمر لهم فقد امتشقوا السلاح الأبيض يلقون به كل من وجدوه من آل كثير حتى اضطروا للانسحاب متوهمين أن مدداً قد وصل ليافع تاركين مائة وعشرين قتيلا وستين جريحاً وعشرين أسيراً .

وأقلق القعيطى تلك الهجمات العنيفة التى يقوم بها غالب بن محسن لعرقلة خططه السياسية والحربية فجمع ما لا يقل عن سبعة آلاف جندى لغزو العاصمة

الكثيرية حتى يكون فى مأمن من أى عدوان يفسد عليه برنامجه السياسى والحربى .

واحتشدت هذه الجموع على حدود المنطقة الكثيرية وبدأت هجومها فى شعبان سنة ١٢٨٥ ﻫ فى عدة جهات مستهدفة مدينتى تريم وسيؤن وغيرهما من المراكز الكثيرية الهامة ، وقد تأخذ القارىء الدهشة إذا قيل له بأن هذا الجيش الكثيف المزود بأحسن الأسلحة وكامل المعدات قد فشل فى مهمته فشلا ذريعاً ذلك أن الزمام كان قد أفلت من يد القيادة العامة التى يرأسها السلطان عوض بن عمر وإخوانه واختلف الجنود وتنازعوا ودب إلى صفوفهم التخاذل وسوء النية والغفلة عن الغرض الرئيسى من هذه الحملة فكانت النتيجة الهزيمة والانسحاب وتكبد الخسائر فى الأرواح والمعدات .

وعاد آل كثير متضامنين مع العولقى صاحب حصن الصداع الواقع بالقرب من غيل باوزير محاولين إعادة الكرة على الشحر جاعلين من غيل باوزير مركزاً لمؤامراتهم ومعسكراً تتجمع فيه جيوشهم وكان آل عمر باعمر أقدم قبيلة مسلحة تسكن الغيل يتأرجحون بين الخضوع للقعيطى تارة وبين التأثر بإغراء العولقى وآل كثير تارة أخرى ، ولم يكن للقعيطى بد من حسم الموقف فزحف إلى الغيل بنحو ألف وستمائة مقاتل سنة ١٢٩٢ ﻫ واحتلها بعد أن فرّ عنها آل كثير وأتباعهم من آل عمر باعمر وغيرهم من البادية .

واستمرت فرقة من الجيش القعيطى فى زحفها إلى حصن الصداع وكان قد تحصن فيه بعض الفارين من آل عمر باعمر وغيرهم من أتباع العولقى فحاصروا الحصن عدة أشهر حتى سلم أهله وخرجوا من الحصار فى حالة يرثى لها .

وكان القعيطى قد سبق قبل احتلال الغيل أن أرسل ثلة من الجيش لاحتلال الموانىء الشرقية فاحتلت الحامى ورأس باغشوه والقرن والديس سنة ١٢٨٧ ﻫ ثم أرسل قوة أخرى احتلت قصيعر سنة ١٢٨٨ ﻫ .

وجاء دور المكلا التى كان يحكمها النقيب صلاح بن محمد الكسادى اليافعى والذى كان يطمع هو الآخر فى توسيع إمارته الصغيرة التى كان يضايقه ضيق مساحتها ، وربما شعر القعيطى بمطامع النقيب صلاح فتجاهلها بادىء الأمر لأنه يرى ضرورة اتحاد القبائل اليافعية أولا أمام خطر آل كثير .

وقبل أن ينتهى الصراع بين يافع وآل كثير وتعرف نتيجته الأخيرة اخترمت المنية النقيب صلاح فرحل إلى الدار الآخرة سنة ١٢٨٨ هـ ولم يكن ابنه الأمير عمر فى مثل خبرته وبعد نظره وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين السلطان عوض بن عمر القعيطى الذى كان من أهم أسبابه مطالبة القعيطى للنقيب عمر بالمائة الألف ريال التى استدانها أبوه للقيام بنصيبه فى نفقات الحملة الكبرى على آل كثير والتى سبقت الإشارة إليها .

ولم يتردد النقيب عمر فى إعلان عدائه للقعيطى وأخذ يتقرب من آل كثير ويبدى لهم صداقة محاولا الاستنجاد بهم عند الحاجة وكتب إليهم مرة يحثهم على مهاجمة الشحر ويعدهم بالمساعدة .

وضاق السلطان عوض بن عمر ذرعا بهذه التصرفات فرفع إلى حكومة عدن قضية يطالب الكسادى فيها بالمائة الألف فتوسطت حكومة عدن فى الصلح بينهما رسميا وأخذت عليهما وثيقة بالتحكيم ثم أصدرت حكمها بتخيير النقيب بين إحدى ثلاث إما أن يدفع المائة الألف أو يتسلم من القعيطى مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا وينتقل هو إلى بروم أو يتسلم من القعيطى مائتى ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها .

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال وطلب من حكومة عدن وكان موجوداً بها للمفاوضة أن تعيده إلى المكلا فأرجعته وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنجليزى عرض على النقيب أن يقبل إحدى الخصال الثلاث وإلا سيضطر إلى ضرب المدينة بالمدفع فسلم نفسه إلى قبطان البارجة « دراجون » التى أبحرت به إلى عدن فى طريقه إلى زنجبار سنة ١٨٧٧ م وبذلك انتهى أجل الإمارة الكسادية ودخلت المكلا وملحقاتها تحت سيطرة الدولة القعيطية .

هذه أهم السواحل الحضرمية تصبح فى قبضة القعيطى علاوة على مدينة شبام ومنطقة القطن وحوره فى الداخل وأصبحت أكثر القبائل فى حضرموت تواليه رغبة أو رهبة الأمر الذى جعل السلطنة القعيطية حقيقة واقعة لم يتردد ممثل الحكومة البريطانية فى عدن فى الاعتراف بها .

فقد عقدت حكومة بريطانيا بواسطة جنرال هوج حاكم عدن معاهدة مع القعيطى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٨ م الموافق ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥ هـ تعهدت فيها بأن تحمى الدولة القعيطية من أى اعتداء عليها من أية دولة أجنبية وأن تساعدها فى قمع كل ثورة تكون فى داخل حضرموت كما اعترف القعيطى فيها بأنه تحت حماية بريطانيا العظمى وتعهد بأن لا يرتبط مع أية دولة أجنبية أو شركة إلا برضى الحكومة البريطانية وموافقتها وقد أمضى هذه المعاهدة فى الشحر السلطان عوض بن عمر وأخوه عبد الله بحضور المستر هنتر معاون حاكم عدن ثم أمضاها حاكم عدن بالنيابة عن حكومة بريطانيا .

وكان احتلال وادى دوعن جزءا من البرنامج الذى أعده السلطان عوض ابن عمر فظل يتحين الفرص لتنفيذه وكان الوادى إذ ذاك مسرحا للفتن والاضطرابات حتى أن بعض الأهالى قدموا إلى القعيطى عرائض الشكوى لا التذمر من سوء الحالة فى الوادى وبعد مفاوضات بين القعيطى وبين حاكم الخريبة من آل العمودى قبل هذا أن تخضع منطقة نفوذه للحكومة القعيطية مقابل مائتى ريال تدفع له شهريا من ضرائب سوق الخريبة .

ولكن الشيخ العمودى عاد فأعلن عصيانه الأمر الذى اضطر القعيطى إلى حربه والاستيلاء على الخريبة بالقوة بعد معارك شديدة وخسائر فادحة فى قصة يطول شرحها وكان ذلك سنة ١٣١٧ هـ أما حاكم بضه من آل العمودى فقد وقف موقف الحياد من هذه الحروب .

وكان احتلال مدينة الخريبة عاصمة وادى دوعن الأيمن بداية التدخل من جانب القعيطى فى حكم جميع وادى دوعن الأيمن والأيسر فقد خضعت بعد سنوات قبائل ليسر بعد حروب ليس هنا موضع الحديث عنها .

وفى نفس العام الذى خضعت فيه دوعن جهز القعيطى ستمائة مقاتل لاحتلال منطقة حجر التى يمر بها نهر حجر العظيم وفوجئت هذه الحملة بكمين من قبائل حجر أطلق عليها الرصاص ففرقها وعادت منهزمة تاركة ثلاثة وستين قتيلا .

وكان القعيطى مصرا على احتلال هذه المنطقة الغنية الخصبة فأعاد الحملة عليها سنة ١٣١٨ ﻫ وأرسل مع هذه الحملة وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوده بالمال لشراء أراضى بوادى حجر تكون نواة للتدخل فى هذه المنطقة واستطاع المحضار بحكمته ودهائه أن يعقد حلفا بين الحكومة القعيطية وبين قبائل حجر الأشداء كان هذا الحلف بداية التدخل فقد تم بعده بالتدريج خضوع قبائل حجر وميفع ودخلت هاتان المنطقتان الغنيتان بالماء والتربة تحت حكم الدولة القعيطية وأصبحتا جزءاً من الساطنة ومن أحد ألويتها الهامة .

وتوفى السلطان عوض بن عمر فى حيدر أباد سنة ١٣٢٧ ﻫ واثقا من قوة بناء السلطنة التى بذل فى سبيلها العزيز الغالى من وقته وتفكيره ودمه وعرقه فليذهب إلى الدار الآخرة تاركا له فى هذه الحياة تاريخا مجيداً ولسان صدق فى الآخرين .

وتولى السلطنة بعده ابنه الأكبر السلطان غالب بن عوض المتوفى سنة ١٣٤٠ﻫ وكان شهما جواداً معروفا بحب الخير والرحمة بالضعفاء والمحتاجين والإحسان إليهم وأهم ما يمتاز به عهده إيقاف الفتن والحروب بين السلطنتين القعيطية والكثيرية واستقرار الحالة السياسية فى البلاد بارتباط السلطنتين بمعاهدة عدن المنعقدة فى ١٧ شعبان سنة ١٣٣٦ ﻫ والتى حددت مواضع سلطة كل فريق ونصت على موافقة الفريقين على تناسى الماضى والدخول فى عهد ودى جديد أساسه التفاهم والتعاون وحل مايعرض من المشاكل بالطرق السلمية .

وبعد وفاة السلطان غالب تولى شقيقه السلطان عمر بن عوض المتوفى سنة ١٣٥٤ ﻫ ثم صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب بن عوض بن عمر الذى حصل فى عهده الانقلاب الحالى الذى شمل كثيراً من مرافق الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية وكان عهده نقطة تحول فى التاريخ الحضرمى بأجمعه

تولى عظمته السلطنة عقب وفاة عمه السلطان عمر بن عوض والبلاد الحضرمية فى حالة عدم استقرار شامل ينذر بالتحول والانقلاب وكان رجال الإدارة فى الحكومتين بحيث لا يستطيعون أن يضعوا خطة إصلاح ثابتة

يبتدئون بها خط سير قويم إلى هدف صحيح سليم فظلت البلاد تدور حول نفسها فى وضع قديم عقيم لا يفيد الهيئة الحاكمة ولا يصلح الأمة المحكومة .

وكانت القبائل المسلحة وهى أوفر عدداً وأسلحة من جند الحكومتين أضعافاً مضاعفة تسيطر على أكثر مناطق البلاد سيطرة فعالة حيث كان الجند لا يستطيع الاحتفاظ بالأمن خارج المدن والقرى الخاضعة لنفوذ الحكومتين وربما عاثت بعض القبائل سلباً ونهباً وسفكت الدماء فلا يجد الجيش من نفسه القدرة الكافية لإخضاعهم .

وليس الجيش وحده صورة لاختلال الإدارة واضطراب ميزان الأمور فى الدولة فقد كانت هناك أمثلة أخرى فى نظام المحاكم واختصاصات القوام والحكام وتصرفاتهم وفى استيفاء الضريبة والدخل العام الذى تتكون منه ميزانية الدولة حيث لا ميزانية بالمعنى الصحيح تحدد أغراض الدخل وتوضح كيفية الصرف ، وإنما هى ضرائب تجبى الغرض الأول والأخير منها تلبية رغبات القائمين بالأمر وحماية مصالح الحكومة فقط الممثلة فى الجيش وفى نفر معدودين من الموظفين بينهم عمال الدولة وقضاتها وكتبتها يعينون لا باختيار ولا لكفاءة ويعزلون ويقالون لا لسبب مشروع ، بل تبعاً لهوى الحاكم بأمره ممن تسند إليه أعمال الدولة .

أما التعليم والصحة ، أما النظام والعمران ، أما محاربة الفقر والبطالة ، أما إصلاح شامل يستهدف رقى البلاد وتقدمها فذلك ما خلا منه برنامج الحكومات فى العهد الماضى واستسلم الشعب بعد ذلك أمام أسباب وعوامل قاهرة فلم يقم من جانبه بأى إصلاح أو حركة تثبت حياته وتدل على وجوده لقد كان مقسما إلى طبقات وجاهلا وفقيراً ومغلوباً على أمره فماذا ينتظر منه ؟

لقد كانت الحالة العامة فى حضرموت تتلخص فى نقطتين أو مادتين : عطب فى عجلة الحكومة فلا تتحرك ولا تسير وركود من جانب الأمة فلا تكاد تبدى أية حركة تدل على الحياة إذا استثنينا صيحات متقطعة يرسلها الحضارم فى مهاجرهم من حين لآخر يطالبون فيها بالإصلاح فترتد صيحاتهم خافتة

خاسرة حين تتجلى لهم الحقيقة المرة فى عجز الحكومتين عجزاً فاضحاً عن إقرار الأمن فى البلاد الذى هو نواة الإصلاح الأولى فقد كانوا يدركون أن عصيان قبيلة مسلحة واحدة يكفى لإحباط أى مشروع اقتصادى أو اجتماعى فكيف والقبائل جميعها فى حالة عصيان مستمر .

لذلك رأى صاحب العظمة أن يستعين بحكومة عدن فى إخضاع القبائل وإقرار الأمن والسلام فى أرجاء البلاد الحضرمية ، ولم تمض سنوات حتى تمت المعجزة وساد البلاد أمن منقطع النظير لا نعرف له مثيلا فيما قرأنا من تاريخ حضرموت .

وهذه سبع وعشر من السنين مضت منذ تولى السلطنة صاحب العظمة شهدت فيها البلاد الحضرمية أحداثاً جديرة بعناية المؤرخ قمينة بأن تتناولها الأقلام بالدرس والبحث الدقيق عن أسبابها وملابساتها والحكم لها أو عليها فقد تم فيها ذلك التحول الذى نتحدث عنه .

١ — خضعت جميع القبائل المسلحة داخل الحدود الحضرمية لسلطة الحكومتين خضوعاً فعلياً مباشراً .

٢ — اختفى السلاح من أيدى القبائل المسلحة أو كاد .

٣ — تلاشت جميع السلطات المتعددة على اختلاف أنواعها ومظاهرها غير سلطة الحكومتين .

٤ — انمحت الفوارق والامتيازات بين الطبقات إلا بقايا متلاشية فى طريقها إلى الاضمحلال .

٥ — أمن الناس على أرواحهم وأموالهم فى البوادى وطرق المواصلات

٦ — بدأ الناس يدركون علاقة الأمة بالحكومة ويتنبهون إلى حقوق الأولى وواجبات الأخيرة ، فانتقدوا أعمالها وطالبوها بالإصلاح .

٧ — شرعت الحكومة تنشىء دوائر وهيئات منظمة وتقوم بإصلاحات مختلفة فى وضع يتناسب مع مالية البلاد وما يحيط بها من ظروف وملابسات وقد تم منها حتى الآن أشياء كثيرة :

منها سكرتارية الدولة ومجلس الدولة وإدارة المعارف وتشكيل المجالس البلدية ومصلحة الصحة وإدارة العمارة والبريد واللاسلكى والكهرباء ، كما نظمت فرق الجيش وأعد إعداداً مناسباً وقسمت السلطنة إلى ألوية يحكمها نواب ومقاطعات تحت إدارة قوام ودرب القضاة والحكام وأنشىء المستشفى العام بالعاصمة وصيدليات فى كثير من الألوية والمقاطعات ونظمت الميزانية وبذلت محاولات لتحسين حالة البلاد الاقتصادية بإعطاء قروض للمزارعين وإنشاء بعض السدود للانتفاع بمياه الأمطار وجلب الماكينات الرافعة للماء والتعاقد مع شركة أهلية لزراعة أراضى ميفع وغير ذلك .

وحركة التعليم هى الجديرة بالذكر والتقدير من هذه الإصلاحات فقد أنشأت الحكومة حتى الآن حوالى ثلاثين مدرسة ابتدائية فى أنحاء القطر للبنين والبنات وجعلت غيل باوزير مركزاً للتعليم فوق الابتدائى ، فأنشأت فيها مدرسة متوسطة تضم حوالى مائة وخمسين طالباً يؤمها الطلبة من جميع أنحاء البلاد ومدرسة ثانوية لتخريج المعلمين والموظفين ومعهداً دينياً ومدرسة ابتدائية نموذجية وأرسلت البعثات العلمية إلى مصر والسودان وسوريا والعراق لإكمال دراستهم حيث تخصص بعضهم فى الطب والحقوق وغيرها من العلوم وتقدر ميزانية التعليم فى الدولة بنصف مليون شلن تقريباً .

وتستعين حكومتا القعيطى والكثيرى بآراء مستشار إنكليزى يقيم فى المكلا قبل السلاطين بموجب وثيقة رسمية سنة ١٩٣٧ م أن تنفذ حكومتاهما إرشاداته فيما عدا الشئون الدينية وتقاليد البلاد وكان المستر انجرامس أول مستشار إنكليزى لحكومتى حضرموت .

وفى عهد السلطان صالح تعينت لجنة لتحديد الحدود بين السلطنتين القعيطية والكثيرية مكونة من مندوبى السلطنتين تحت إشراف المستر شبرد المستشار المقيم وقد انتهت هذه اللجنة المشتركة إلى قرار حاسم فى موضوع الحدود وقعت المصادقة عليه رسمياً وهذه هى حدود السلطنة الكثيرية نقلا عن الخريطة الرسمية التى وضعت لتبين الحدود :

تبتدئ فى الشمال الشرقى من شرق تريم مباشرة وتمتد فى خط متعرج شرقى جنوبى إلى حصن الضبيعة قريب من منطقة الحموم ثم يذهب الخط فى اتجاه غربى جنوبى إلى حرزبون شمال ريدة المعارة ويعود الخط فى اتجاه غربى شمالى ثم فى اتجاه أقرب إلى الاستقامة منحرفا قليلا إلى الشمال إلى أن يحاذى وادى الحرية فيتجه إلى الشمال محاذياً لهذا الوادى حتى يصل إلى الحزم شرق شبام حيث يمر غربى الحزم وغربى المحجر إلى قارة آل عبد العزيز ، فينحرف غربيها إلى الشمال .

وتقع هذه المنطقة فى قلب البلاد الحضرمية وهى جزء صغير جداً بالنسبة لبقية المناطق الواسعة التى يحكمها السلطان القعيطى والتى تمتد من سيحوت شرقا إلى شبوه وبلاد الواحدى فى الغرب وتضم جميع السواحل والموانى الحضرمية وبذلك تحيط السلطنة القعيطية ببلاد الكثيرى فى الشرق والغرب والجنوب .

وتدور الآن مباحثات رسمية لتوحيد حضرموت المؤلفة من السلطنات الثلاث التى يحكمها القعيطى والكثيرى والواحدى فقد كانت بلاد الواحدى جزءاً جغرافيا من حضرموت فى التاريخ القديم ولم يبت حتى الآن فى كيفية هذه الوحدة الحضرمية التى يقال إنها ترمى إلى الصالح العالم دون أن تمس حقوق السلاطين .

هذا هو أهم ماقامت به الحكومة حتى الآن فى إصلاحات ينتظر أن تأخذ طريقها إلى النمو والاتساع وإذا كانت هناك مآخذ على بعض أعمال الحكومة وتصرفاتها ، فان الحركات الإصلاحية تبدو دائما متعثرة وبطيئة حتى تتوفر لها أسباب النجاح والكمال .

الحمد لله فى البدء والختام

أهم مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ تاريخ ابن خلدون .
٣ ـ تاريخ ابن الأثير .
٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير .
٥ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى .
٦ ـ طرفة الأصحاب فى معرفة الانساب للملك الأشرف ابن رسول .
٧ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .
٨ ـ محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى .
٩ ـ صفة جزيرة العرب للهمدانى .
١٠ ـ حياة محمد لحسين هيكل .
١١ ـ عبقرية الصديق للعقاد .
١٢ ـ الفاروق عمر لحسين هيكل .
١٣ ـ حاضر العالم الاسلامى وتعليقات الأمير شكيب ارسلان .
١٤ ـ تاريخ الاسلام السياسى لحسن ابراهيم حسن .
١٥ ـ تاريخ الاستعمار الانكليزى فى بلاد العرب لأمين سعيد .
١٦ ـ ضحى الاسلام لأحمد أمين .
١٧ ـ ظهر الاسلام لأحمد أمين .
١٨ ـ قصة الكتابة العربية لابراهيم جمعه .
١٩ ـ مهد العرب لعبد الوهاب عزام .
٢٠ ـ قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة
٢١ ـ ملوك العرب لأمين الريحانى .
٢٢ ـ تاريخ الأدب العربى لاحمد حسن الزيات .
٢٣ ـ تاريخ التربية لمصطفى أمين .
٢٤ ـ ملوك المسلمين المعاصرون لأمين سعيد .
٢٥ ـ دائرة معارف القرن الرابع عشر لفريد وجدى .
٢٦ ـ تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان لأبى محمد السالمى .
٢٧ ـ تاريخ اليمنى للواسعى .
٢٨ ـ خلاصة من تاريخ اليمن قديما وحديثا للقاضى الحجرى اليمنى .
٢٩ ـ هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن للامير أحمد فضل .
٣٠ ـ رحلة سيف الاسلام أحمد للسيد حسين اليمانى .
٣١ ـ جغرافية عدن وبلاد العرب تأليف لجنة الجغرافية العدنية .
٣٢ ـ المشرع الروى فى مناقب السادة آل علوى للشلى .
٣٣ ـ تعليقات السقاف على رحلة باكثير .
٣٤ ـ تاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم .
٣٥ ـ تاريخ حضرموت السياسى لصلاح البكرى .
٣٦ ـ جنوب جزيرة العرب لصلاح البكرى .
٣٧ ـ مقتطفات من مقالات فى مجلة المقتطف والمقتبس والعالم العربى وغيرها
٣٨ ـ تحفة الاسماع والابصار للجرموزى — مخطوط
٣٩ ـ بضائع التابوت لعبد الرحمن بن عبيد الله — «
٤٠ ـ مذكرات الأمير على بن صلاح عن الدولة القعيطية — «
٤١ ـ تاريخ حضرموت فى شخصيات للمؤلف — «

محتـــويات

معالم تاريخ الجزيرة العربية